إعادة كتابة تاريخ الإسلام
من خلال
المنهج الإسلامي الأصيل لكتابة التاريخ

تصحيح أكبر خطأ في تاريخ الإسلام الحديث

السلطان عبد الحميد والخلافة الإسلامية

بقلم
أنور الجندي

مكتبة السنة
القاهرة

ابن زيدون
بيروت

بسم الله الرحمن الرحيم

السلطان عبد الحميد
والخلافة الإسلامية

إعادة كتابة تاريخ الإسلام
من خلال
المنهج الإسلامي الأصيل لكتابة التاريخ

تصحيح أكبر خطأ في تاريخ الإسلام الحديث

السلطان عبد الحميد والخلافة الإسلامية

بقلم
أنور الجندي

دار ابن زيدون
بيروت

دار الكتب السلفية
القاهرة

الطبعة الأولى ـ ١٤٠٧ هـ

دار ابن زيدون
للطباعة والنشر والتوزيع
ص . ب ٧٨٤٦ ـ بيروت (لبنان)

دار الكتب السلفية
مؤسسة علمية لنشر وتحقيق وتوزيع الكتاب الإسلامي
القاهرة ـ خلف مسرح الجمهورية بعابدين
١٠ شارع الشيخ علي الغاياتي

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وصحبه ومن والاه .

أما بعد :

في هذه الرسالة نحاول أن نستصفي المنهج الإسلامي في تفسير التاريخ ، ونحاول أن نصحح المفاهيم إزاء أمرين خطيرين :

أولاً : فساد نظرية السامية التي قدمها الاستشراق ، وفرقها على مناهج التاريخ والأدب في المدارس والجامعات .

ثانياً : ثبات مفهوم الانقطاع الحضاري فيما قبل الاسلام وبعده ، وإن كل ما كان قبل الاسلام هو تمهيد له ومقدمة ، وأن الاسلام قد جبَّ التاريخ السابق له ، فلم يكن من الممكن إحياءه مرة أخرى .

ثم تجيء الحقيقة الباهرة التي لا سبيل إلى نقضها وهي أن الاسلام والإسلام وحده هو الذي نقل العالم كله من طفولة البشرية إلى رشد الإنسانية ليدخل في الدعوة العالمية الخاتمة الى أن يرث الله الأرض ومن عليها .

هذا وبالله التوفيق

أنور الجندي

مقدمة

دعوة الى اعادة كتابة تاريخ الاسلام

تتعالى الصيحات في الوقت الحاضر بالدعوة الى إعادة كتابة تاريخ الاسلام بعد أن تبين للعلماء والباحثين أن الصورة الموجودة الآن فى أيدى شبابنا وطلبة مدارسنا وجامعاتنا والتى صنعت فى ظل الاستعمار وتشكلت أولا فى البلاد التى سيطر عليها ليست بالصورة المثلى ، ذلك أن هذه الصورة نبتت أساسا فى ظل الاحتلال بعد أن انفصلت عن الدولة الأم : الدولة العثمانية . وكان الطابع الأساسى الذى أريد لها هو أن تكون كتابات محلية خالصة : لا تستهدف كتابة تاريخ الاسلام نفسه ولكن كتابة تاريخ الأوطان ، ومن ثم انحازت هذه الكتابات للأمة أو القطر أو البلد وأعلت من شأن وجوده الخاص ، وتاريخه القديم ، واستوحت أشد الصفحات بعدا عن الأصالة وعن الرؤ ية الصحيحة ، فأعلى شأن الفرعونية والفينيقية والبابلية والأشورية والبربرية والزنجية وغيرها . فاذا عرض أمر الاسلام فانما يعرض على هون وفى أسلوب يوحى بأن الأمم أو الأقطار كانت أكبر منه وأنها حين دخل عليها أقامته وسيطرت عليه وعدَّته بعض الكتابات استعمارا أشبه بالاستعمار الفارسى والرومانى .

ويرجع ذلك كله الى أن النظرة الأساسية التي قامت عليها كتابة التاريخ نظرة استعمارية ووافدة وحين فتحت الآفاق لدراسة تاريخ الاسلام ، درس على أنه تاريخ الدولة أو الامبراطورية التى قامت ثم تمزقت الى دول . وحين عرض لم يعرض إلا من خلال خلافات بعض الملوك والأمراء والحكام وصراعاتهم الخاصة .

وكان التركيز شديدا على الخلاف الأول بين الصحابة (عثمان وعلى ومعاوية) ، في محاولة لتفسيره تفسيرا ماديا خطيرا بأنه صراع على الحكم .

وغلبت على دراسة التاريخ مذاهب الاستشراق وهى مذاهب غربية أصلا قامت فى ظل تاريخ أوربي وغربى له تحدياته وظروفه ، مثل الصراع بين الكنيسة والعلماء ، وبين الأمراء والشعب ، وصراع المذاهب الكاثوليكية والبروتستانتية وذلك القتال الرهيب بين الملوك والدول والأمم .

هذا المذهب في تفسير التاريخ الذى كان مطبقا فى الغرب حاول المستشرقون نقله الى أفق التاريخ الاسلامى رغبة في محاكمة هذا التاريخ إليه ، فكان خطرا وفاسدا ومضطربا ، لأنه ليس متسقا معه وليس منبعثا من وجوده ومذاهب التاريخ والأدب والنقد وغيرها جميعا لا يمكن أن تنقل من بيئة الى أخرى ، وإنما هى تنبع من بيئتها لأنها جزء من الثقافة الذاتية الخاصة القائمة على العقائد والتراث والعادات والطوابع العميقة للأمم .

ولكن الاستعمار ومن ورائه التغريب والغزو الثقافى فرض هذا المنهج من تفسير التاريخ على التاريخ الاسلامى فمزقه إربا

وأحاله ركاما ، فهو أولا يدرسه مجزءا واقعةً واقعة أو أنه يرجح رواية توافق الهوى أو أنه لا يفهم تيار التاريخ الاسلامى نفسه ، هذا التيار الذى لا يفهمه الا من يعرف منطلقه الأساسى كما رسمه القرآن الكريم وصوره الاسلام في أصوله وقيمه .

وقد استهدفت هذه الدراسات بالطابع الوطنى الخالص ، الذى حجب عنها الصورة الكاملة للتاريخ بأبعادها حيث عجزت هذه الصورة أو تعمدت ألا تشير الى أن هذا الوطن وهذه الدولة ، ليست الا جزءا من الوطن الاسلامى ومن الدولة الاسلامية أساسا وأن الروابط بين الجزء والكل لا يمكن أن تنفصم لأنها روابط عقيدة ولغة وشريعة وتاريخ طويل وأمة وسطى جامعة لا يستطيع جزء منها أن ينفصل أو ينغلق مهما حاول ذلك أو حاوله له الاستعمار .

وفضلا عن هذا فان هذه النظرة الوطنية الضيقة التى جهلت مكانها كجزء من الكل ، لم تتوقف عند هذا الحد ، بل انها أعلنت استعلاءها بخصائصها التاريخية القديمة أو طبيعتها الخاصة ثم ذهبت الى أبعد من ذلك حين أعلنت الحرب والخصومة على الأجزاء المجاورة لها وأقامة سد عال بينها وبينه وذلك بهدف ألا تتصل الأجزاء مرة أخرى ولا تلتقى .

ولقد استمر هذا الاتجاه طويلا ثم جاءت بعد ذلك الدعوات القومية والدعوة العربية بالذات فكان لها أيضا محاذيرها في كتابة التاريخ . فقد أخذ العرب يفصلون تاريخهم عن تاريخ الأمة الاسلامية ويفصلون جغرافيتهم عن جغرافية العالم الاسلامى وبدا كأنما العرب أمة قائمة بنفسها فكان لها تاريخها الخاص فى

الجاهلية ولم يكن الاسلام الا نبتا من النبات ، ولا تزال الأمة العربية هى الأمة العربية التى لم يغير فيها الاسلام شيئا ، ثم يجىء بعد ذلك الاستعلاء بدور العرب في الفتح والتوسع والحضارة .

وكل هذا أيضا من آثار السيطرة الاستعمارية على التاريخ الاسلامى فى محاولة تمزيقه الى تاريخ دول وأمم والى صبغ هذه التجزئة بالتعصب والاستعلاء العنصري .

ولذلك فقد كان من أخطر ما واجه التاريخ الاسلامي ، هذه المجموعة من أتباع المستشرقين وحملة ألوية الفكر الغربي ودعاة التغريب الذين سيطروا على مجال التربية والتعليم والذين ما زالوا منبثين في عديد من الجامعات ومعاهد الارساليات حيث نجد الشباب المسلم يعرف عن نابليون أكثر من خالد بن الوليد وطارق بن زياد .

هؤلاء الذين يريدون تفسير تاريخنا الاسلامي في الاطار المحلى أو الاقليمى أو القومى أو الوطنى في سبيل إعلاء دعوة العنصرية أو العرق مع أن الاسلام جاء ليقضى على استعلاء العنصرية والعرقية ويدعو الى إقامة مجتمع الإخاء الانسانى العالمى .

كذلك فان الدعوة إلى ربط التاريخ الحديث بالتاريخ القديم السابق للاسلام جاهليا أو فرعونيا أو فينيقيا انما هي دعوة الى أمر مستحيل حيث سيطر الاسلام على الساحة الفكرية والاجتماعية والروحية والنفسية للبشرية بعد أربعة عشر قرنا وقطع الصلة بينهم وبين الماضى قطعا لا سبيل الى اعادته وقد أكد علماء كثيرون غربيون أيضا نظرية « الانقطاع الحضارى ولا استمرارية التاريخ »

فى هذه المنطقة ، والحاجز الضخم الذى أقامه الاسلام بين الأمم وبين ما كان لها من تاريخ ودين وعقيدة وفكر من قبل .

ذلك أن ظهور الاسلام ـ وهو كذلك في تقدير الباحثين الغربيين المنصفين هو علامة بارزة على بدء تاريخ العصر الحديث حتى بالنسبة لعوالم الغرب نفسه وان كل ما سبق الاسلام من حركات التاريخ انما كانت تمهيدا له ، فالاسلام هو الذى حمل الى البشرية لأول مرة « الأخوة البشرية » ووحدة الجنس الانسانى ووحدة الدين ووحدة الفكر بديلا عن الوثنية فى الفكر والعبودية فى المجتمع فهو الذى حرر الفرد في الجماعة وحرر النفس من عبادة غير الله وحرر العقل بالنظر الى الكون فدفعه إلى إنشاء المنهج العلمى التجريبى قاعدة الحضارة القائمة ولم يكن يعرف منه قبل الاسلام شىء ما .

كذلك الخطر الذى نواجهه فى دراسة التاريخ : وهو تاريخ اسلامى أم تاريخ عربى أم تاريخ اسلامى عربى وفى تسمية الحضارة هل هى اسلامية أم عربية والفتوحات هل هى اسلامية أم عربية والعلماء والمفكرون هل هم عرب أم فرس أم ترك .

كل هذه محاولات للتزييف واثارة الشبهات وصرف الشباب المثقف عن الحقيقة التى هى معروفة ومقررة من أن الاسلام هو الذى أعطى العرب هذه الوحدة وهذه المكانة وهو الذى دفعهم فى الأرض وأن هذه الحضارة وذلك الفتح وهذا العلم كله انما جاء من الاسلام ولولا الاسلام ما استطاع العرب أن يقتحموا الآفاق أو يقيموا حضارة ما .

ونحن نعرف أن التراث الفكرى الذى كان موجودا قبل الاسلام سواء تراث بابل الغنوصى أو تراث فارس الوثنى أو تراث اليونان المادى ، انما كان عبارة عن محاولات من البشر لتبرير رغبات الانسان ومطامعه وأهوائه دون أن تكون قائمة على توحيد أو عدالة أو رحمة وأن تراث الأديان نفسه كان قبل ذلك كله هو الضوء الوحيد الذى عرفته البشرية فى طريقها ، وان هذا التراث قد حاولت التفسيرات الزائفة والدعوات المضللة أن تبدده وتمزقه وتخرجه عن مضمونه حتى جاء الاسلام فألقى الى البشرية تلك الحصيلة الضخمة البارة من العلم والفهم والايمان والضياء لاخراجهم من الظلمات الى النور وان هذه الحصيلة وحدها هى التى فتحت الآفاق الى النهضة والحضارة التى شملت أغلب أجزاء العالم اذ ذاك ـ هذا وان كانت الحضارة الاسلامية قد استصفت اليها كل عصارات الفكر القديم وما وجدته صالحا وصهرته في بوتقتها ـ ولم تترك الا الزائف الفاسد .

ومن هنا فالحضارة اسلامية حقا ، وهؤلاء العلماء ليسوا عربا وليسوا فرسا وليسوا أتراكا وانما هم مسلمون كونت عقلياتهم فكرة التوحيد وملأت نفوسهم كلمة القرآن وعمرت أرواحهم دعوة اللّه الى النظر فى السموات والأرض فكل ما أنتجوا انما جاء من محيط القرآن والاسلام وليس من محيط بلادهم أو تراثهم ، ذاك أن الاسلام انما أعاد صياغة عقليات وقلوب ونفوس أربابه وأصحابه خلقا جديدا فشكلهم على نمط جديد هو روح الاسلام ومن قلب هذا الروح كان نتاجهم ومن هنا فان هذا التكوين النفسى والعقلى هو بمثابة الجنس والأخوة الاسلاميين .

ان منهج تفسير الاسلام للتاريخ هو المنطلق الوحيد للنظر فى التاريخ الاسلامى العربى واعادة كتابته من جديد ، فان التاريخ المكتوب الآن واقع تحت تأثير النظرة الاستشراقية التى تغض من شأن الاسلام لحساب خلفياتها الاستعمارية ، أو النظرة القاصرة التى تستمد قدرتها من العقلية الغربية المسيحية التى لم تستوعب الفارق البعيد بين العقائد والأخلاق والقيم والتى تنطلق من مصدر واحد هو أن الاسلام دين عبادى لاهوتى محض ، وهى نظرية المسيحية ، أو نظرة الفكر الغربى المسيحى التى لا تعترف بأن الاسلام انما هو نظام اجتماعى ومنهج حياة أصلا وأن الدين بمعنى العبادة واللاهوت جزء منه .

فالغربى ينطلق من قاعدة أن الدين للّه وأن المجتمع بكل شرائحه الاجتماعية والاقتصادية والسياسية يخضع لنظريات بشرية وأيديولوجيات يصنعها الفلاسفة وليس كذلك الاسلام : الاسلام الذى أنزله اللّه على نبيه محمد صلى اللّه عليه وسلم ليكون منهج حياة لهذه الأمة التى شرقت وغربت ووصلت الى حدود نهر اللوار فى فرنسا والى أسوار فيينا في قلب أوروبا والتى يشمل ضياؤها ذلك المدى الممتد من الصين الى غرب أوروبا ومن هنا تبدأ القاعدة التى تقوم على التفسير الاسلامى للتاريخ .

فهل آمن دعاة إعادة كتابة التاريخ بهذه القاعدة الأصولية، ان عليهم أن يعلنوا ذلك صراحة وأن يلتزموا ذلك في كتابة أبحاثهم على أن يختار لهذا العمل كل من آمن بالاسلام وعاش له وامتلأت نفسه ايمانا بصدقه وبقدرته على تغيير حياة المسلمين ودعوتهم الى القوة والعزة من جديد ذلك لأن التفسير الاسلامى للتاريخ يؤمن بأن

هزيمة المسلمين فى السنوات الماضية وتقلبهم بين الغزو والنكسة والنكبة واقتطاع فلسطين وبيت المقدس كل هذا انما جاء ثمرة (التحول) الخطير الذى دفعهم الى نفض أيديهم من مناهج مجتمعهم ونظام حياتهم الأصيل القرآني المصدر الرباني الأساسى ، الى التماس مناهج الأمم ، هذه المناهج البشرية سواء منها الغربية أو الماركسية وان هذا التفريط في منهجهم هو الذى ألقى اليهم هذه الهزائم والنكبات وأنه لا خلاص لهم مما هم فيه من هزيمة وتخلف الا بالعودة مرة أخرى الى التماس منهجهم الأصيل والاستمداد من النبع الأول : القرآن الكريم .

وان هذه الظاهرة قد تكررت في تاريخهم مرات ومرات ، فهم كلما نفضوا أيديهم من منهج القرآن ضربهم اللّه بالذل حتى يعودوا اليه ﴿ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلاً ﴾ .

ذلك تفسير حركة التاريخ الاسلامى بين النصر والهزيمة .

كذلك فان هناك ملحظا أساسيا لابد من تقديره هو أن هناك فرقا بعيدا وبونا شاسعا بين « المنهج » وبين « الواقع » : بين المنهج الربانى الذى جاء به الاسلام والذى لا يتخلف ولا يتعثر والذى يحمل فى تضاعيفه أسباب النصر والقوة ووسائل الهزيمة والتخلف .

وبين الواقع التاريخى الذى عاشه المسلمون والذى هو التاريخ الاسلامى ولا يمكن أن يكون التاريخ الاسلامى حجة على المنهج أو مثارا لتوجيه الشبهة إليه ، بل على العكس من ذلك : ان

المنهج هو الحجة لأنه هو عنصر الثبات وهو القوة التى يستمد منها المسلمون أسباب حياتهم وطريق عيشهم . فالمسلمون حين ينحرفون عنها تقع الأزمة وتبدأ عوامل الهزيمة .

وتاريخ الاسلام فيه النصر وفيه الهزيمة وكلاهما يرد الى تطبيق المنهج أو التخلف عنه .

وفى تاريخ الاسلام الذى يُعرض الآن ويُقدم لأبنائنا زيف كثير لأنه يحاول أن يعلى شيئا كثيرا من الروايات الباطلة فى سبيل إثارة جو من الخصومة والخلاف بين الفرق المختلفة أو الأحزاب والدول ، وذلك مما فرضه الاستعمار والاستشراق حتى يحتقر المسلمون تاريخهم وتضعف مكانته فى نفوسهم .

وكذلك فان هناك ازورارا كبيرا عن المواقف الحاسمة والبطولات الضخمة ، وذلك حتى لا ينبهر المسلمون بعظمة أجدادهم ، ولا يعرفوا حقيقة الدور الذى قاموا به فى بناء الحضارة .

وكذلك فان هناك آراء بأن للعامل الاجتماعى آثارا فى التاريخ ، ولكن ليس لأحدها أن يفترض أنه وحده العامل المؤثر وانما هى فى مجموعها عوامل ذات أثر بدرجات متفاوتة وهناك عامل آخر له أهميته ولا ينفصل أبدا فى دراسة تاريخ الاسلام هو عامل العقيدة والوحى والنبوة ، وارادة اللّه العليا التى تتحرك من داخلها ارادة الانسان والتى تفرض وجودها على حركة الكون كله .

وبعد فاننا نتطلع الى اعادة كتابة تاريخ الاسلام بحرص كبير

ونأمل من الغيورين أن يكونوا عونـا لأمتهم لتخرج من دائـرة سيطرة الاستشراق والتغريب والغزو الثقافي .

ان المحـاولـة التى جـرت منـذ وقت بعيـد فى سبيـل تفسيـر الاسلام (حركته ودعوتـه) تفسيرا مـاديا صـرفا لا ريب تعجـز أشد العجز عن أن تقول الكلمـة الفاصلة ، لأنهـا تعجز عن أن تستـوفى الأبعـاد المختلفـة ، والجـوانب المتعـددة ، حين تضـع بينهـا وبين الحقيقـة حجـابـا ، هـذه الحقيقــة الممثلة فى العـوامـل النفسيـة والمعنوية والروحية والفكرية وهى عوامل أشد أثرا وأبعد عمقا وأكثر أهمية من الجانب المادى الواحد الذى هـو أحد جـوانب التفسير لا محالة ولكنه ليس واحدها وليس أكبر أهمية .

ان التفسيـر المادى أو الاقتصـادى للتـاريـخ الاسـلامى انمـا يحاول أن يواجه البحر بإناء من مـاء ، أو الجنة الفيحـاء بفسيلة من حطب .

لقـد حاولت كتـابات كثيـرة فى السنـوات الأخيـرة أن تتمثـل الاسلام وكـأنه ثورة الفقراء ضد الأغنياء فحسب والحق أن الاسلام ليس ثـورة موقـوتة ولكنـه حركـة شاملة من حيث الـزمن ومن حيث المضـامين لتغيير أشيـاء كثيرة تغييـر المجتمع وتغييـر النفس وتغييـر الأخلاق وتغيير الاقتصاد .

ومن هنـا فـان الاسـلام ليس هـو التفسيـر الاقتصـادى وليس محمـد صلى الله عليـه وسلم هـو المصلح الاجتمـاعى أو رسـول الحرية وليس يكفى حين يذكر أن تورد شطر الآيـة الكريمـة : ﴿ قل انما أنا بشـر ﴾ فهذا تـزييف فان الآيـة تقول : ﴿ قـل انما أنـا بشر مثلكم يوحى الى انما الهكم اله واحد ﴾ .

لقد جاءت كتابات التفسير الاقتصادي, ثم المادى متباينة حذرة فى (على هامش السيرة وفى الفتنة الكبرى) ثم اتسعت بعد ذلك فى (محمد رسول الحرية) ونمت شبهاتها حتى لقد حرص الكثيرون على أن يربطوا بين هذه الآثار على ما بينها من فروق فى الزمن ، واختلاف فى المصادر والموارد فى ادعاء كاذب بأن مثل هذه الكتابات حاولت أن تعتمد على الوقائع لا على الخوارق وقد ظن أصحابها أن المعجزات يمكن أن تسلك فيما يوصف فى الغرب بأنه أساطير ولا ريب أن لرسول اللّه معجزات غير القرآن ولكنه صلى اللّه عليه وسلم لم يجد الطريق سهلا الى رسالته ولم يجد العرب مستعدين للنهضة فنهض بهم ـ كما يردد البعض ـ ومن هنا فانه فى نظرهم لم يكن فى حاجة الى معجزات أو خوارق .

ولا ريب أن هذا الادعاء باطل وأن وقائع حياة رسول اللّه بعد بعثته الى هجرته خلال ثلاثة عشر عاما تكشف فى وضوح مدى المعاناة والظلم والاضطهاد فى عشرات الصور والمواقف مما يدهش معه أى باحث كيف واجهت قريش والعرب دعوة التوحيد وقاومتها .

ومن هنا نعجب من قول أحدهم حين قال : « ومحمد بهذا ليس فى حاجة الى خارقة تعينه على إقناع الناس بما يقول لأنه بما يقول انما يستجيب لآمال الناس وأحلامهم » .

ولقد تردد هذا القول قديما فى (النثر الفنى) وفى بعض كتابات (الشعر الجاهلى) وغيره وهو من زيف المستشرقين الذين يهدفون به الى التقليل من عظمة الرسالة الاسلامية .

ولقد واجه العلامة فريد وجدى مثل هذه الشبهة حين قال :

« ان قريشا وهى أرقى القبائل لغة وفهما ومكانة لم تقبل دعوة النبى الا رجالا ونساء لا يزيد عددهم على بضع عشرات . ولو كانت قريش أقرب العرب الى الحضارة لقابلت دعوة محمد بصدر رحب وأحلتها المكان اللائق بها ونهضت تحت قيادته لجمع كلمة القبائل وابطال دينهم .

« ان أتباع النبى الأولين اضطهدوا اضطهادا شديدا حتى هاجروا الى بلاد الحبشة وأن الجاهلين كانوا يهزأون بالدعوة للدين وبالداعى اليه ، وأن النبى لبث على هذا الحال من الاضطهاد ثلاث عشرة سنة ، ولما أنست قريش من النبى الهجرة قررت قتله وأرصدت له ، ولما علم أهل مكة بافلاته اقتفوا أثره ، كل هذا ينطق بلسان فصيح أن قريشاً وهي مظنة النجابة والفهم من العرب فى ذلك العهد لم تكن (قد استعدت للملك بعد تطورات عديدة) فان المجتمع الذى يقاتل الداعى للتجديد والنهوض بهذا النفور ويصبر عليه ثلاثا وعشرين سنة لا يزداد بعدها الا عنادا وتشديدا لا يمكن أن يوصف بأنه مجتمع كان مستعدا للنهوض وأنه سرعان ما نهض مع النبى صلى الله عليه وسلم . . » .

كذلك فان قريشا لم ترفض الاسلام لأنه يقضى على نفوذها الاقتصادى وحده ، ولكنها كانت تعلم أنه قضاء على كيانها الفكرى والاجتماعى والدينى جميعا .

ومن هنا كان خطأ القائلين بالتفسير الاقتصادى ، ذلك أن الأديان السماوية انما تغير المجتمع كلية ومن الأساس وهى حين تقصد أول ما تقصد فانما تبنى النفس الانسانية وتشكلها تشكيلا جديدا فيه صمود وصبر وقدرة على مواجهة الاضطهاد واحتمال

البلاء وتهيئها لعمل كبير توهب فيه الأرواح والنفوس ويجل عن المعاني المادية .

ومن هنا كانت دهشة المستشرقين وغيرهم لعظمة الفتح الاسلامى الذى صنعه هؤلاء الذين بناهم محمد فى خلال ثلاثة عشر عاما فى مكة وغير بهم الدنيا كلها وليس جزيرة العرب وحدها ، لقد نظروا الى هذا الفتح الذى تم فى خلال بضع وسبعين سنة على أنه معجزة لم تفسر . نعم كانت تعرف قريش أن معارضة محمد لهم لن تفقدهم نفوذهم الاقتصادى ولكنها ستلغى كيانهم الغاء كاملا بكل فكره وماضيه ومواقفه الاجتماعية والأدبية .

انه تغيير جذرى ليس الاقتصاد الا جانبا منه ، تغيير فى نظام المؤودة وزواج الأخت وفى العلاقة بين الأهل وفى القضاء ﴿ ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا : اعدلوا هو أقرب للتقوى ﴾ كان القوى اذا أذنب تركوه واذا أذنب الضعيف أقاموا عليه الحد ، اللّه تبارك وتعالى هو المشرع ، تجريد الفرد من سلطانه ومن الخضوع لمقاييس الهوى ، مقاييس جديدة ربانية لكل الأمور .

موقف جديد بالنسبة للقيم الكبرى : الحرب والعلم والكرم فهى ليست موجهة للظهور أو الاستعلاء أو الجاه ولكنها موجهة للّه وحده ، شعار لا اله الا اللّه يغير المجتمع كله ويغير النفس الانسانية على مختلف المستويات الدينية والاجتماعية والفكرية والنفسية والأخلاقية ، ليست حركة طبقة ضد طبقة ، ولا ثورة الفقراء على الأغنياء فقد اشتركت فيها الطبقات واشترك فيها الأغنياء والفقراء ، وخرج الأغنياء عن مالهم ، وخرج الأبناء عن آبائهم وأنكروا ترفهم وفجورهم .

ويبدو ذلك واضحا فى لقاء المشركين للنبى :

ان كنت تريد ملكا ملكناك علينا .

وان كنت تريد مالا جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالا . وتكون اجابة الرسول هى منطلق تفسير الاسلام :

« واللّه يا عم : لو وضعوا الشمس فى يمينى والقمر فى شمالى على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره اللّه أو أهلك دونه : ما تركته » .

ولم يكن موقف الرسول موقف المزايدة أو المواءمة أو الالتقاء فى منتصف الطريق ، بل كان حاسما وكان رفضه لقيم المجتمع القديم صريحة ، أما ما أقره الاسلام من قيم الجاهلية ، فكان من أصفاها ، وتلك هى بقايا دين ابراهيم مما لا يتعارض مع التوحيد .

وكان أبرز ما فى دعوة الاسلام بناء الرجال على الصمود والصبر والجلد وعزلهم عن مجتمع الجاهلية بمختلف ألوان فجوره حيث أجرى الاسلام تغييرهم من أعلى الرأس الى أخمص القدم ﴿ ان اللّه لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ﴾ .

كانت دعوة الاسلام مفاضلة بين اللّه وحده وبين الأهل والولد ومتاع الحياة كله ، ولذلك فان عدد الداخلين فيها كان قليلا ، وكانت المحن تتوالى لتصفية هذا القليل ودحر صلابة عوده .

كان الاسلام يستهدف بناء انسان فى سبيل فكره ، ليس له فى الدنيا نهمة ولا مطمع الا أن يقدم روحه خالصة للّه .

ومن هنـا تعجز مقـاييس التفسير المـادى للتاريـخ أو التفسيـر الاقتصادى للتاريخ أن تحيط بذلـك كله وأن تعرف الفـرق بين هذه القيم المعنوية التى لا تقاس بالمقاييس المحسوسة .

واذا كـانت هذه القيم المعنـوية لا تقـاس لأنها ليست مـاديـة محسوسة فإنها تستـطيع أن تكشف عن نفسهـا بآثـارها ، ان آثـارها التى أنتجتهـا والتى يقف أمامهـا أصحاب المنهـج المـادى واجمين عاجزين هو الدليل عليها .

« ليس من المنهـج العلمى الحق أن يـنكـر وجـود الـقيـم المعنـوية أو الـرروحية أو النفسيـة لمجرد أنـه لا يمكن أن يلمسها أو يراها ، كما تلمس أو ترى الأشيـاء الماديـة فان الأثـر الذى تحـدثه ينهض دليلاً محسوساً على وجودها» .

ان المقاييس المادية والاقتصادية لتعجز أن تفسـر كيف يبكى العائدون من الغزوات لأنهم لم يستشهدوا ، ولا الذين لقوا آبـاءهم فى صفـوف الكفار فقتلوهم ، ولا الـذين هاجـروا وتركـوا أمـوالهم وأولادهم واستـأنفـوا حيـاتهم فى المـدينـة بـدينـار اقتـرضـوه ، ولا يستطيعون أن يفسـروا كيف تنكسف الشمس يوم مـوت ابراهيم ابن النبي ثم يقف النبي فيعلن أن الشمس لا تنكسف لمـوت أحد ، أو أن يقف النبى فى حجة الوداع فيقول انه يلغى كـل الربـا ويضعه ، وأول ربا يضعه تحت قدميه هو ربا عمه العباس بن عبـد المطلب ، أو يقـول : « والله لو أن فـاطمة بنت محمـد سـرقت لقـطع محمـد يدها » ، أو أن توضع الحجارة المحماة على صدر بلال فـلا يزيـده ذلك الا أن يقول : أحد أحد .

كل هذا يعجز عن تفسيره المذهب المادي والمذهب الاقتصادى .

لقد كانت دعوة الاسلام شاملة تعجز عنها تفسيرات مذاهب الماديين ويصدق فى هذا نموذجان من القول :

أما أحدهما فقول فيليب حتي :

« لم يسجل التاريخ أن رجلا واحدا سوى النبى محمد كان صاحب رسالة ، وبانى أمة ومؤسس دولة ، هذا الثلاثة التى قام بها محمد كانت فى نشأتها وحدة متلاحمة لا يمكن أن تنفصم الواحدة منها عن الأخرى وكانت الى حد ما متوافقة يشد بعضها ازر بعض وكان الدين من بينها على مدى التاريخ القوة الموحدة وكان أبقاها زمنا حتى اذا رحت تعد الناس فى العالم اليوم وجدت أن السابع أو الثامن منهم يدعو نفسه مسلما » .

أما النص الثانى فهو قول الأستاذ تريتون فى كتابه « الاسلام عقيدته وعبادته » :

« اذا صح فى العقول أن التفسير المادى يمكن أن يكون صالحا فى تعليل بعض الظواهر التاريخية الكبرى وبيان أسباب قيام الدول وسقوطها فان هذا التفسير المادى يفشل فشلا ذريعا حين يرغب فى أن يعلل وحدة العرب وغلبتهم على غيرهم وقيام حضارتهم واتساع رقعتهم وثبات أقدامهم . فلم يبق أمام المؤرخين الا أن ينظروا فى العلة الصحيحة لهذه الظاهرة الفريدة فيرى أنها تقع فى هذا الشىء الجديد : ألا وهو الاسلام » . .

ويقول ولفرد كانتول سميث فى موقف الأمم المختلفة من تفسير التاريخ :

« الرجل الهندى لا يأبه للتاريخ ولا يحس بوجوده فالهندى مشغول بعالم الروح ومن ثم فكل شيء فى عالم الفناء المحدود لا قيمة له عنده ولا وزن ، أما المسيحى فيعيش بشخصية مزدوجة أو فى عالمين منفصلين لا يربط بينهما رباط والمثل الأعلى عنده غير قابل للتطبيق والواقع البشرى المطبق فى الأرض منقطع عن المثل الأعلى .

أما الماركسى فهو قوى الايمان بحتمية التاريخ بمعنى أن كل خطوة تؤدى الى الخطوة التالية فهو لا يؤمن الا بهذا العالم المحسوس ، بل لا يؤمن الا بالمذهب الماركسي وكل ما عداه باطل والماركسى يتبع عجلة التاريخ ولكنه لا يوجهها .

أما المسلم فانه يحس بالتاريخ احساسا جادا ، انه يؤمن بتحقيق ملكوت اللّه فى الأرض ، يؤمن بأن اللّه قد وضع نظاما واقعيا عمليا يسير البشر فى الأرض على مقتضاه ، ويحاولون دائما أن يصوغوا واقع الأرض فى اطاره . ومن ثم فهو يعيش كل عمل فردى أو جماعى وكل شعور فردى أو جماعى بمقدار قربه أو بعده من واقع الأرض لأنه قابل للتحقيق » . .

* * *

خطأ التفسير المادى لحياة الرسول

هناك محاولة مستمرة منذ أربعين عاما تحاول أن تفسر حياة الرسول عليه الصلاة والسلام وتاريخ الاسلام تفسيرا اقتصاديا أو ماديا ، وهى ترمى من ذلك الى أن تجعل من حياة الرسول بطولة عربية أو بطولة اقليمية أو بطولة أمة أو عبقرية أو دعوة الى الحرية .

بدأت هذه المحاولات بكتابات عن حياة الرسول مجردة من المعجزات ، محاولة أن تفسر جوانب الوحي وما يتصل بكثير من نواميس الكون وقوانينه تفسيرا مجازيا أو مناميا ، أو غير ذلك ثم اتسع نطاق هذه المحاولات فوصفت حياة الرسول بأنها بطولة أو زعامة ولا ريب أن الهدف من نفى النبوة هو مقدمة لنفى الالوهية .

وأن الهدف من نفى النبوة هو انكار الوحى وبالتالى انكار رسالة السماء جملة ومن هنا جاءت المحاولات المتعددة لوصف البطولة الانسانية ووضع مقوماتها على نحو مختلف كل الاختلاف عن النبوة التي يختار اللّه تبارك وتعالى من يشاء لها من عباده ويعده في الأصلاب والأرحام جيلاً من بعد جيل .

١ ـ فاذا تقررت فى نظر الناس قوانين معينة للبطولة الفردية البشرية أمكن الطعن فى النبوة لأن هذه القوانين لا تتفق مع تقديرات اللّه التى تعلو على القوانين وتأخذ طابع المعجزات .

فالبطل فى النظرية المادية ، لابد أن يصدر عن أسرة موسرة ، وعن ثقافة عالية ، وعن أبوة حكيمة أما بيئات الفقراء والأيتام والأميين فهى لا تصلح لاخراج البطل .

بينما تنقض النبوة هذه النظرية المادية نقضا كاملا وتكشف عن كذبها وتضليلها وتكشف عن قدرة اللّه فى اغناء النبى بعد فقر وتعليمه وهدايته بعد أمية وايوائه بعد يتم ، وفى هذا معنى المعجزة الالهية التى تنكرها نظرية البطولة الغربية الوافدة .

٢ ـ والاسلام يقرر المعجزة ، وهى الأمر الخارق الذى يحصل على يد نبى مرسل تأكيدا لصدق نبوته وليس فى المعجزات منافاة للعلم المادى وانما هناك قصور من أجهزة العقل والادراك عن معرفة الأسباب التى انعقدت لها المعجزة ، فضلا عن ايمان المسلم بأن اللّه تبارك وتعالى هو صانع السنن والنواميس والقوانين وهو وحده القادر على خرقها على النحو الذي كشفت عنه الكثير من المواقف مع الأنبياء كالولادة لهم بعد سن الكبر للرجل واليأس للزوجة، والولادة من غير أب كما حدث للسيد المسيح عيسى ابن مريم وكتجريد النار من خاصية الحريق كما حدث لسيدنا ابراهيم أو تجريد الخنجر من خاصية الذبح كما حدث لسيدنا اسماعيل وهكذا وتعرف المعجزة فى علم المصطلحات الاسلامية بأنها حقيقة تخالف القواعد العامة وتعارض المجرى العادى للحوادث وسببها فوق ادراك البشر وهى حقيقة تتحدى كل من يرتاب فيها .

وفى مقدمة المعجزات معجزة القرآن فهى معجزة قائمة أبد الدهر ، تمتاز عن معجزات الرسل والأنبياء بأنها باقية ، ومعجزة القرآن انما تمثل فى مطابقته الدائمة لحقائق الماضى والحاضر والمستقبل ، وصدق تحدياته للبشر فى عجزهم عن معارضته ، حتى يرث اللّه الأرض ومن عليها وفى الآيات التى أثبتتها ولا تزال قائمة تعجز الملوك والدول والأمم عن مواجهتها .

٣ ـ ومن ناحية أخرى فان النبوة ضرورة أساسية للحياة البشرية وبناء الانسان الفكرى والاجتماعى فهى التى تحسم عشرات القضايا المصيرية التى تبقى بلا جواب عندما تقوم الريبة والشك فى حقيقة الوحى .

ان الوحى هو الذى يضع النقاط على الحروف فى تلك الشبهات التى تثير عوامل القلق والتمزق والصراع النفسى الذى يواجه الآن مجموعة الأمم التى ألحدت وفصلت ما بينها وبين نور اللّه .

٤ ـ ان عجز العقل عن فهم الغيبيات وما يتصل بها يكشف عن ضرورة الوحى والنبوة فالعقل غير كاف وحده وغير قادر وحده .

« والوحى يعاضد العقل ويؤكد حكمه ويجعله موثوقا فيما يصل العقل الى معرفته فيكونا دليلين على مدلول واحد يرشد العقل ويهديه فيما لا يستقل بمعرفته مثل المعاد ويكشف عن وجود الأشياء التى لا يدرك العقل كنهها ومنهجها» .

وقد التقى الوحى والعقل فى القرآن لأول مرة فى الفكر الانسانى والاسلام وأهله يؤمنون بأن المعرفة الانسانية ليست قاصرة على معطيات الحس ، وعلى حد تعبير الشيخ محمد عبده وقد نقلناه عنه « قد يعرض الدين شيئا يتجاوز حدود الفهم ولكن لا يعرض شيئا يتجاوز حدود الادراك مطلقا » .

٥ ـ ولقد امتدت النظرية الوافدة فى البطولة والوحى والنبوة الى القول بأن القرآن انطباع فى نفس محمد صلى اللّه عليه وسلم .

وهو ليس كذلك أبداً ، فهنـاك فارق واضـح وعميق بين كلام لنبي محمد ونظم القرآن الكريم يعرفه أهل البيان واللغـة ويعرفـون بعاده ومداه .

وليس صحيحا أن القرآن فيض من العقل الباطن فى محـاولة .عـوى الاشادة بعبقـرية محمـد وألمعيته وصفـاء نفسـه ولا ريب أن محمـد كل صفـات السمو النفسى ولكن وصفـه بـالنبى نسبـة الى لوحى الالهى هى أكبر معطياته .

ومثل هذا القول انما يـرمى الى محاولـة خادعـة لقطع الصلة بين المسلمين والقـرآن فانـه ان كـان كـلام محمـد كـان من عمـل لبشر .

وبذلك يفقـد معناه الأسمى وجـلاله الأعـظم ويفقد « ثبـاته » لـذي يعطيـه تلك القدرة الضخمـة على أن يكون الاسـاس الـذي برتبط به كل فكر والقاعدة التى يمتـد عليها كـل بناء والاطـار الذى نجرى فيه كل حركة وهناك أدلة كثيرة تدحض هذه الدعوة وأبسـطها « أن محمدا كان أميا لا يقرأ ولا يكتب فمن الذى أطلعه على أن ما في القرآن مصدق لما في التوراة » « وكان علمه بشؤون قومه لا يزيد على علم غيـره » فمن الـذي أطلعـه على تـاريـخ الأمم وقصص الأولين .

﴿ ومـا كنت تتلو من قبله من كتـاب ولا تخـطه بيمينـك اذا لارتاب المبطلون ﴾ .

٦ ـ ولقد جلى الباحثـون المسلمون ظـاهرة الـوحى : وأكدوا « أنها ليست ظاهـرة نفسية داخليـة تنبعث من كيانـه صلى اللّه عليه

وسلم وانما هى حقيقة خارجة عن ذاته استقبلها من خارج كيانه كما ينطق بذلك حديث بدء الوحي ومشاهد أخرى»[1] .

« وانما رأى محترفو الغزو الفكرى فى (ظاهرة الوحى) : المنبع الأول للحقائق الدينية والكليات الاعتقادية ورأوا أنهم اذا استطاعوا تكدير صفاء هذا المعين الأول أمكنهم تكدير صفاء كل ما يتفرع عنه واقتحام أسباب الدس والتشويش عليه .

« من أجل هذا زعم بعضهم أن الوحى فى حياته صلى اللّه عليه وسلم انما كان نوعا من الالهام الخفى ، وزعم آخرون أن ذلك كان اشراقا روحيا معينا وأصرت جماعة أخرى على أنه كان يصاب بالصرع » .

« والعجيب الرائع حقا فى حياته صلى اللّه عليه وسلم أن أمر الوحى له قام على أسس وحقائق تصفع هذه الأوهام صفعات تلقيها فى متاهات الحمق والجنون » .

٧ - ولقد تواجه الفلسفات الغربية حقيقة النبوة وظاهرة الوحى فتصفها بأنها وصاية على الانسان الذى بلغ رشده وأصبح فى غير حاجة الى وصاية ما .

وذلك قول من الزيف المسرف فى إحسان الظن بالبشرية .

فهل استطاعت البشرية حقا بعد هذا الزمن الطويل الذى قطعته [2] أن تكون راشدة ، الواقع الذى تثبته وقائع التاريخ

---

(١) راجع كتاب قصة السيرة للدكتور محمد سعيد البوطى .

(٢) بتصرف عن بحث للأستاذ محمد المجذوب .

وأحداث الزمن أن البشرية ما زالت عاجزة عن حماية نفسها من المطامع والأهواء والحروب والمذابح والمظالم ، بل لعلها قد بلغت بفضل تقدم العلم قدرا أكبر فهى التى تمضى فى تهديد الأمم الضعيفة بقوى الذرة والتكتولوجيا ، ولم يستطع تقدمها العلمى أن يرد اليها شيئا من الايمان أو العدل أو السماحة أو الارتفاع فوق الأهواء . ولذلك فهى لا زالت فى حاجة الى رعاية رسالات السماء وفى أشد الحاجة الى الوحى والنبوة ، لقد تقدم الانسان فى مضمار السبق العلمى ، ولكنه عجز عن فهم نفسه وحماية كيانه من المطامع وما تزال أهواؤه تحول بينه وبين توجيه هذه المعطيات لخير الانسان .

ومن الحق أن يقال أن الانسان لم يزل بعد عاجزا عن أن يكون أمينا على نفسه أو جنسه ولن يستطيع ذلك الا اذا آمن بالوحى والنبوة .

٨ - في ضوء هذا كله ننظر الى تلك المحاولات التي جرت في تزييف سيرة الرسول :

أولا : بإضافة الأساطير القديمة فى (هامش السيرة) .

ثانيا : بإنكار أن الاسراء كان بالروح والجسد فى (حياة محمد) .

ثالثاً : انكار النبوة والوحى فى (محمد رسول الحرية) .

رابعا : وصف النبى بالعبقرية دون الرسالة فى (عبقرية محمد) .

ولا ريب أن أبلغ أخطاء وصف النبوة بالعبقرية انما هو فى تعميم هذه الصفة على شخصيات أخرى لم تنفرد بالنبوة مما تجعلها تبدو كأنما هى محاولة الى فرض مفهوم البشرية على الرسول الذى تفرد بالعصمة والوحى وامتاز بهما عن سائر صحابته .

ولا ريب أن العبقريات وقعت تحت سلطان الفكرالغربيالذي تشكل الكاتب فى أحضانه ثم نفذ منه الى دراسة الاسلام دون أن يقدر مدى الفارق الدقيق والعميق بين ذاتية الاسلام فى مفاهيمه ومناهجه والعوامل التى شكلت أهله ، ولم يلتفت أيضا الى تميز النبوة الوافر فالنبى فى عبقرية محمد انسان له مواهب وملكات منفصلة تماما عن وحى السماء . وحين تجرى مقارنته بنابليون أو غيره لا يلتفت تماما الى اختلاف النوع وانعدام الصلة حتى ليبدو اغفال الوحى اغفالا كاملا فى دراسته . ولم يرد اعجاب المسلمين بالرسول وحبهم له دون حدود الى الاسلام نفسه وانما رده الى شخصية الرسول .

يقول غازى التوبة فى دراسته عن العبقريات : « فلو اقتصر دخول المسلمين على اعجابهم بشخص الرسول وحبهم له وافتتانهم به لانتهت الدعوة الاسلامية بوفاة الرسول عليه الصلاة والسلام أو بعد وفاته ريثما يزول سحر الافتتان ولكن الدعوة الاسلامية استمرت قرونا طويلة وما ذلك الا لملاءمة الاسلام للفطرة البشرية التى انجذبت اليه فى زمن الرسول ثم استمر الانجذاب فى الأزمان التالية » .

٩ ـ وغاية القول أن اعتماد كتابنا العرب والمسلمين فى

النظرة الى النبوة والبطولة فى ضوء تفاسير غربية انما يحجب عنهم شيئا كثيرا من الحق .

ذلك أن الغربيين عن طريق مفاهيم عقائدهم وفكرهم لا يفرقون بين الالوهية والنبوة بينما نحن نفرق بينهما تماماً .

كذلك فهوى يرى أن الكتب المقدسة كتبها الرسل ونحن نؤمن بأن الكتاب المنزل هو وحى من اللّه وليس من عمل النبى .

كذلك فهم يعيشون فى اطار مفهوم الوثنية اليونانية القائمة على عبادة البطولة ورفع الفرد الى مصاف الآلهة وأنصاف الآلهة . بينما يقصر المسلمون العظمة كلها والعبودية كلها للّه سبحانه وتعالى .

كذلك فهم يجسدون البطولة فى تماثيل بينما لا يؤمن الاسلام بتجسيد البطولة ويركز مفهوم تقديرها فى توجيه العمل البطولى نفسه خالصا للّه .

وقد رفض رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم ما قيل من أن الشمس كسفت لموت ابنه واتخذ عمر من الهجرة مبدأ للتاريخ الاسلامى ولم يجعله شبيها بالأديان الأخرى حين اتخذوا مولد أنبيائهم .

١٠ ـ ان أخطر ما استدرج اليه الكتاب المسلمون والعرب من التبعية للمناهج الغربية فى تقدير البطولة أو تفسيرها ذلك الاتجاه نحو الوراثة والطبائع الفردية بينما يقوم منهج تفسير البطولة الاسلامى على تقدير الأثر الخطير الذى تحدثه التربية والعقيدة فى

توجيه الانسان وتحويله من حال الى حال ومن هنا يبدو خطأ الاعتماد على رأى لونبروزوا ومدرسته فى تكوين البطل أو العبقرى ومن التعسف البالغ رد عظمة أبى بكر وعمر الى ملكاتهم دون تقدير أثر الاسلام فى تغيير النفوس واعادة تشكيلها مرة أخرى .

ولا ريب أن العقيدة الاسلامية هى التى حولت هذه الشخصيات وأعادت صياغتها من جديد فى ضوء التوحيد وأخرجتها من شخصيتها القديمة وأن أى مقارنة بين حياة عمر قبل الاسلام وبعده تكشف عن ذلك بوضوح ، كذلك يبدو هذا فى نماذج أقل بطولة : يظهر ذلك فى تحول الخنساء مثلا .

ومن الحق أن يقال أن هذا الزيف فى فرض منهج أو مذهب فى تفسير النبوة على أنها بطولة أو عبقرية أو دعوة الى حرية انما هو من أعمال الأيديولوجية التلمودية التي تهدف الى تدمير قيم الوحي ورسالات السماء .

الباب الأول

التاريخ فى مفهوم الاسلام

يقارن الاستاذ ولفرد كانتول سميث فى كتابه (الاسلام فى التاريخ الحديث) بين احساس الهندى والمسيحى والماركسى تجاه التاريخ واحساس المسلم تجاه التاريخ فيقول أن الرجل الهندى لا يأبه للتاريخ ولا يحس بوجوده ، لان التاريخ هو ما سجله البشر من أعمال فى عالم المادة وعالم الحس ، والهندى مشغول دائما بعالم الروح ، عالم اللانهائية ، ومن ثم فكل شىء فى عالم الفناء المحدود لا قيمة له عنده ولا وزن ، والتاريخ بالنسبة اليه شىء ساقط من الحساب . أما المسيحى فيعيش بشخصية مزدوجة أو فى عالمين منفصلين لا يربط بينهما رباط ، فالمثل الاعلى عنده غير قابل للتطبيق والواقع البشرى المطبق فى واقع الارض منقطع عن المثل الاعلى المنشود ، ويسير هذان الخطان فى نفسه متجاورين أو متباعدين ولكن بغير اتصال ، والتاريخ فى نظره هو نقطة ضعف البشر ، وهبوطه وانحرافه ، أما التاريخ فى نظر الماركسى فهو الايمان بحتمية التاريخ بمعنى أن كل خطوة تؤدى الى الخطوة التالية بطريقة حتمية ولكن لا يؤمن الا بهذا العالم المحسوس ، بل لا يؤمن فى هذا العالم الا بالمذهب الماركسى وحده ، وكل شىء

عداه باطل ، والماركسى يتبع عجلة التاريخ ولا يوجهها ولا يقيسها بأية مقاييس خارجة عنها ، أما المسلم فانه يحس بالتاريخ احساسا جادا ، انه يؤمن بتحقيق ملكوت اللّه فى الأرض ويؤمن بأن اللّه قد وضع نظاما عمليا واقعيا يسير البشر فى الأرض على مقتضاه يحاولون دائماً أن يصوغوا واقع الأرض في اطاره ، ومن ثم فهو دائما يعيش كل عمل فردى أو جماعى ، وكل شعور فردى أو جماعى ، بمقدار قربه أو بعده من واقع الارض لانه قابل للتحقيق . والتاريخ فى نظر المسلم هو سجل المحاولة البشرية لتحقيق ملكوت اللّه في الأرض ، ومن ثم فكل عمل وكل شعور ، فرديا كان أو جماعيا ذو أهمية بالغة لان الحاضر هو نتيجة الماضى والمستقبل متوقف على الحاضر ، فالمفهوم الاسلامى واضح الايجابية ، فبينما غير المسلم يضحى بنفسه لانه لا يريد أن تمر عجلة التاريخ الخاطئة وهو حى وسامح لها بالمرور ، فهو يقف فى طريقها حتى تدوسه وتقتله ، ويكون ذلك أغلى قربان يتقدم به الى اللّه . فان المسلم حين يضحى بنفسه ، ففى حسه أن هناك نظاما الهيا يراد أن يطبق فى واقع الارض ، وفى حسه وهو يضحى أنه يدفع عجلة هذا النظام خطوة الى الامام .

هذه العبارات للكاتب الغربى تقرب من الحقيقة وتكشف عن الفارق العميق بين فهم المسلم للتاريخ وبين فهم الطوائف الاخرى ، ويتابع (اليان وايدغراى) هذا المعنى حين يقول : ان وجهة نظر المسلمين للتاريخ هى نظرة بناءة ، فهم يرون أن البشرية اذا اعتنقت تعاليم الوحى (القرآن) فان ارادتها حينئذ يتطابق وارادة اللّه ، ولا يعود يوجد من يعصى أوامره ، ويعم الاخاء بين البشر ، ومن صفات المؤمن أنه صابر ويعلم أن الامر لارادة اللّه ، وقد

قدموا أفضل فيلسوف للتاريخ ، ممثلاً بالفيلسوف ابن خلدون وكان اول فيلسوف حلل درجات تأثير المحيط والدوافع النفسية التي تعمل عملها في الحياة الانسانية ، وتسبب نشوء الحضارات وانقراضها ، ونشاهد بوجه عام تيارين يتنازعان السيطرة على اقطار فلاسفة التاريخ المسلمين : المفهوم الحركي ، والمفهوم القدري وكلها تظهر بوضوح في تقلبات القوى الاجتماعية وعلى العكس من ذلك كان الفلاسفة الهنود قد قطعوا كل صلتهم بما هو وقتي وفوري وقدموا تعاليم انهزامية وانعزالية ، والتاريخ بالنسبة للبوذية والهنود ليس الا وهماً» .

ويؤكد الاستاذ تريتون فى كتابه « الاسلام : عقيدته وعبادته » ان التفسير المادى لا يصلح لفهم تاريخ الاسلام ، يقول : اذا صح فى العقول أن التفسير المادى يمكن أن يكون صالحا فى تعليل بعض الظواهر التاريخية الكبرى وبيان أسباب قيام الدول وسقوطها ، فان هذا التفسير المادى يفشل فشلا ذريعا حين رغب فى أن يعلل وحدة العرب وغلبتهم على غيرهم ، وقيام حضارتهم واتساع رقعتهم ، وثبات أقدامهم ، فلم يبق أمام المؤرخين الا أن ينظروا فى العلة الصحيحة لهذه الظاهرة الفريدة فرأوا أنها تقع فى هذا الشيء الجديد : ألا وهو الاسلام » .

وهذا ما نريد أن نصل اليه : فى أن أى محاولة لتفسير تاريخ الاسلام بغير التفسير الاسلامى للتاريخ محاولة باطلة وأن جميع مذاهب التفسير التاريخى : المادية والاقتصادية والجغرافية والمناخية . . الخ لا تستطيع أن تستوعب مفهوم التاريخ الاسلامى ولكل أمة وعقيدة مقاييسها التى تشكل قانون تفسيرها .

وانا لنجد الآن محاولات لتفسير تاريخ الاسلام تنبعث من النظرية الغربية الليبرالية ، وهذه قاصرة ، ومن النظرية الماركسية وهذه قاصرة أيضا .

ومن النظرية المادية وهذه قاصرة أيضا ، ذلك أن الاسلام الذى يقوم منهجه على تكامل الروح والمادة ، والحياة والموت ، والدنيا والآخرة والنفس والجسد ، والثوابت والمتغيرات والكلى والجزئى ، لا يمكن أن يفسر بمنهج جزئى سواء أكان ماديا أم روحيا خالصا ، ولذلك فان هذه المحاولات كلها التى تحاول أن تضع الاسلام فى صف الديمقراطية مرة ، أو الاشتراكية مرة ، أو الحرية مرة ، كلها قاصرة فالاسلام له ذاتيته الخاصة وتكوينه الجامع المنفرد الذى قد يلتقى ثمة مع جانب من هذا أو ذلك ولكنه لن يكون الا هو وحده الذى تعجز المناهج المادية ونظريات التفسير الجزئية عن استيعابه وفهمه ولعل هؤلاء الثلاثة : كانتول وجراي وتريتون قد ردوا على هذه المحاولات وهم كتاب غربيون عرفوا حقيقة ذاتية الاسلام وطابعه المميز .

واجه التاريخ (الاسلامى) حملة ضخمة من حملات التغريب والغزو الثقافى تستهدف الى اثارة الشبهات والشكوك حوله ، بقصده وضعه موضع الازدراء والانتقاص في نظر أهله ، وحتى يفقد أهميته من حيث أنه قوة انبعاث ويقظة ، وكان هدف التغريب ينصب على (اختلاف تاريخ اسلامى منفر) عسى أن ينتزع من المسلمين ثقتهم فى ماضيهم الاسلامى وفى أنفسهم كمسلمين ، ويسلخهم من تراثهم الفكرى وتاريخهم الاسلامى فيصبحون بلا ماض ، فتضعف معنوياتهم ، وبدا تسهل السيطرة

عليهم فكريا وثقافيا ، مقدمة للسيطرة عليهم عسكريا واقتصاديا ، وقد جرت المحاولات لاحلال مناهج الغرب فى تفسير التاريخ الاسلامى بديلا للدراسات الاسلامية ، وفرضت كتب الغرب فى المدارس والجامعات ، وجعلت مناهج الغرب في دراسة التاريخ هي الجواز الى تخريج المؤرخين العرب والى صدارتهم .

وقد امتلأت هذه الدراسات بالتطاول على اعلام الاسلام وقادته وتوابعه والتشهير بهؤلاء العظماء فى كل عصر ، عن طريق تزييف طائفة من الاخبار المشكوك فيها والقصص والاعتماد على مصادر غير أصيلة أو مطعون فى صحتها لالتماس هذه الشبهات حول بطولات رجال التاريخ الاسلامى وأباح بعض المتصدرين فى الجامعات « للخيال أن يذهب مذهبه فى ابتكار الصور التى تقرب للناس حقائق التاريخ » وبذلك جرى تصيد الروايات من هنا وهناك لمحاولة دعم آراء محرفة معدة أساسا لاثارة الشبهات وما تزال هذه المحاولة تتخذ للتآمر على التاريخ الاسلامى قديما وحديثا .

فقد أشار الشيخ أبو بكر بن العربى فى كتابه (العواصم من القواصم) الى هذه المراجع المشبوهة حين قال : لتحذروا من المفسرين والمؤرخين وأهل الادب فأنتم أهل جهالة بحرمات الدين وعلى بدعة مصريين فلا تبالوا بما رووا ، ولا تنقلوا رواية الا عن أئمة الحديث » .

ولقد رسم مؤرخو المسلمين منهج البحث التاريخى على نحو علمى صحيح ، وحذروا من خطر ذوى الاعتراض وقال الامام تاج الدين السبكى : لا بد أن يكون المؤرخ عالما عدلا عارفا

بحال من يترجمه ، ليس بينه وبينه من الصداقة ما قد يحمله على التعصب له ، ولا من العداوة ما يحمله على الضغن منه وربما كان الباعث له على الضعة من أقوام مخالفة العقيدة واعتقاد أنهم على ضلال فيقع فيهم او يقصر فى الثناء عليهم (طبقات الشافعية) .

وثمة خطر آخر خطير واجه التاريخ الاسلامى فى العصر الحديث : ذلك هو مفهوم التاريخ فى الفكر الغربى فقد ظهرت عدة تفسيرات تحاول ان تفرض نفسها على فهم التاريخ منها : التفسير الجغرافى ، والتفسير البيولوجى والتفسير الاقتصادى والتفسير الاجتماعى والتفسير النفسى وقد حاول كل من الباحثين أن يؤكد تفسيره ويعليه على كل العوامل ويرى البعض أن العامل الجغرافى هو العامل الاول اعتمادا على التضاريس الارضية ومصادر الثروة وتوزيع الحياة والاحوال الجوية ، ويرى غيرهم أن أثرا الوراثة هو العامل الاوحد أو الاهم .

ويرى آخرون أن عامل البيئة هو القوة المؤثرة في حياة الناس .

ويرى ماركس : أن العامل الاقتصادى هو العامل الاساسى فى حركة التاريخ .

ويرى توينبى (التفسير الاجتماعى والحضارى) أن مواضيع التاريخ الصحيحة هما المجتمعات الانسانية ومدنياتها لا الشعوب والاقطار ويرى فرويد أن العامل الاساسى ليس سوى أزمات نفوس الأفراد التي أدت الى الانقلابات الهائلة في التاريخ ويرى أصحاب نظرية التفسير البيولوجى للتاريخ : ان التاريخ يتناول حياة الانسان

من حيث هو انسان ويبحث فى أثر الزمن فيما هو انسانى بحت ، والبيولوجيا هي البحث عن أثر الزمن في الكائنات الحية من حيث النمو والانحلال والتطور .

وهناك تفسير (هيجل) السياسى ، وكل هذه النظريات مجرد احتمالات وفروض ، ونظرات محدودة قاصرة ، ومركزة على جانب واحد ولعلها جميعا تمثل مجموع العوامل المؤثرة فى التاريخ على أقدار معينة وادوار متفاوتة ، ولقد عجزت كل نظرية من هذه النظريات فى أن تحقق الغرض أو أن تثبت سيطرتها بمفردها على تفسير التاريخ .

أما مفهوم الاسلام لتفسير التاريخ فهو لا يأخذ بعامل واحد من هذه العوامل ، ولكنه مفهوم جامع يستمد طابعه الاساسى من الفهم لارادة اللّه العليا المحيطة بالكون والاشياء ، وبالترابط الوثيق بين الحياة الدنيا والحياة الآخرة ، وبين ارادة الانسان ذات الاثر الجوهرى فى التعبير ، وبين العوامل المادية والروحية والنفسية جميعا ، فليس لعامل واحد مهما كان قدره الانفراد بالتأثير وترى النظرة الاسلامية ان العوامل المعنوية : روحية وأدبية ونفسية لها آثارها البعيدة التى تزيد كثيرا عن العوامل الاقتصادية والاجتماعية التى يركز عليها الفكر الغربى فى مرحلته المادية التى يعيشها فى هذه إلقرون الاخيرة .

يقول وليفرد كانتول سميث : ان الاسلام يرى لكل حادث دنيوى تفسيرين ، ويقيسه بمعيارين : أحدهما وقتى والآخر أبدى ، ومع أن الاسلام والماركسية يعطيان أهمية بالغة لتطور التاريخ

وحتميته فإن الاسلام رغم اعترافه بمغزى التاريخ الحاسم الا انه يرى أن هذا المغزى لا يذوب فى خضم التاريخ نفسه بل يوحد من القيم والانماط ما يعلو على مجريات التاريخ والحكم على هذه المجريات يمكن بل يجب أن يكون فى ضوء هذه القيم - والمقصود بذلك هى (القيم الروحية) التى لا وزن لها فى الماركسية .

وتختلف وجهات النظر كثيرا بين التفسير الغربى (بألوانه المختلفة) للتاريخ وصراعاته المتعددة وبين التفسير الاسلامى .

أولا : ومن وجود الاختلاف : ان النظرة الغربية المنبثة فى مختلف نظريات تفسير التاريخ (وخاصة النظرية الماركسية) يعتبر أن « تاريخ أوربا » وحده هو تاريخ العالم ، أما بقية أجزاء العالم وحضاراته وتاريخه فهى ليست موضع أى تقدير ، كذلك فهى تنظر الى (الدين) بعامة نظرة مظلمة ، موقف غربى خاص بالغرب وحده لا تشرك معه أمم الشرق أو أى أمة أخرى يرجع الى ذلك الصراع الذى وقع بين الكنيسة وبين النهضة الاوروبية الحديثة ، وقد تأثر فلاسفة التاريخ جميعا بهذين العاملين : كما تأثر ماركس وانجلز بالنظرة المادية الى التاريخ ، لارتباطهما بداروين وفورنباخ ، فقلبا فلسفة هيجل رأسا على عقب ، كما كانا لا يعتبران بالنظرة الاسلامية ، وكانا يصدران عن المعركة الاوربية فى رأيهم فى الدين بأنه أفيون الشعوب ، هذا الرأى محدود يحدد التجربة التى عاشوها ، والتفسيرات التى وجدوها فى بيئتهم .

ولعل من أسوأ الظلمات التى تحول دون فهم الحقيقة البشرية هو الرأي الذي يحمله التفسير المادي للتاريخ بأن الأفكار

والمشاعر الانسانية والبشرية ليست سوى مظهر من مظاهر العوامل المادية في المجتمع .

ثانياً : عجز التفسير التاريخي الغربي) وهو المادى المصدر) عن استيعاب حقائق التاريخ الاسلامى التى تعلو على التصور المادى فسرعة انتشار الاسلام على هذا النحو المذهل واستطاعته فى خلال فترة نقل عن قرن من الزمان أن يبسط جناحيه من حدود الصين الى حدود فرنسا ، هذا فى تقدير التفسير الغربى مشكوك فيه ذلك لان الفكر الغربى لا يؤمن بأثر : الايمان العميق القادر عن طريق الارادة الانسانية الى التغيير الواسع ،كذلك فالتفسير الغربي يعجز عن فهم واستيعاب قاعدة اسلامية أساسية هي « كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن اللّه» ذلك أن التقدير المادى يرى أن الكثرة هى الغالبة أبدا ، بينما يضع الاسلام قوة جديدة مضاعفة الى قوة العدد والعدد هى قوة الايمان ، وقد أكدت الفتوح الاسلامية هذه الظاهرة بما لا يدع مجالا للشك ، فقد ثبت فى مختلف الغزوات والمعارك التى دخلها المسلمون أن عددهم فيها كان أقل من عدد خصومهم بمراحل ، وإن عدد عدوهم كان مضاعفا أكثر من مرة بل مرات ، فالنصر هنا يرجع الى عنصر الايمان الذى لا يعتد به فى الحساب عن التفسير الغربى للتاريخ .

ثالثا : ظاهرة التعصب الواضحة فى التفسير الغربى للتاريخ الاسلامى .

وهذه الظاهرة طبيعية فهى مستمدة من الاختلاف بين الاديان ومن اختلاف وجهات النظر ، ومن الصراع القائم بين الشرق والغرب ، ومن وجهة نظر الاستعمار الذى يرى أن الغرب هو

الجنس الابيض ممدن البشرية وان بلاد الاسلام هى العناصر الملونة التى يرى أنها أقل فى الدرجة والقدرة والكفاية .

ومن خلال نظرة التعصب الغربى تجرى تفسيرات خاطئة ، فى مقدمتها الادعاء بأن « انتشار الاسلام جاء بالسيف » وهى مبطلة ، والحق أن الاسلام لم يرفع السيف الا دفاعا عن كيانه حين يتعرض وجوده للخطر ، وذلك فى مقاومة محاولات المتآمرين عليه .

* * *

وهكذا نجد أن الاسلام فى عقيدته وحركته له ذاتية خاصة تعجز عنها النظريات التى تحاول ان تطبق مفاهيمها لتفسيره .

ومن هنا فلا بد أن يكون للتاريخ الاسلامى تفسيره الاصيل .

وان كل ما يشوب النظرة الغربية من شبهات حول حركة الاسلام يسقط حين يوضع الاسلام موضع التقدير الصحيح : وهو معرفة طبيعة الاسلام وطبيعة الاسلام أنها عقيدة تجمع بين الواقع والمثال والدنيا والآخرة والقلب والعقل ، ولها مرونة واضحة وافق منطلق واطارات واسعة تجعله قادرا على مواجهة الحضارات والثقافات المختلفة على قاعدته الاساسية ، مع سماحته الواضحة فى اتاحة الفرصة لاهل البلاد فى حكم أنفسهم ، حرية العبادة دون فرض عقيدته بالقوة ، وكون الاسلام ليس دينا فحسب ، بل نظام مجتمع ومنهج حياة ، الدين بمعنى العبادة جزء منه وانه استطاع أن يستوعب حضارات الامم وثقافاتها وأن يهضم الصالح منها ويسيغه وينميه فى اطار مفهومه الاصيل : « التوحيد » وانه وفق بين العلم

والدين ، وبين الخلق والسياسة ، ومن هنا فقد كان التوحيد أبرز عوامل اندفاع التاريخ الاسلامى بأجنحته : العدل والاخاء والرحمة والكرامة والاعتزاز باللّه ، وقد بدا الطابع الانسانى والنزعة العالمية واضحة فى حركته منذ اليوم الاول .

هذا فضلا عن بقاء القرآن : وهو الوثيقة الكبرى له سليمة من الزيف ، ومع وضوح شخصية الرسول صلى اللّه عليه وسلم وحياته وتصرفاته وأقواله وأعماله على نحو يكاد يكون كاملا ، وكذلك وضوح شخصيات أبطال الاسلام ومواقفهم وتفاصيل هذا التاريخ كله ودقائقه على نحو علمى دقيق .

ولقد كان الاسلام هو الدافع الاول والباعث الاساسى الى توحيد العرب واخراجهم من شبه جزيرتهم ، وانتشارهم فى الارض ، ولم تستطع الاحداث الكبرى فى تاريخ الاسلام أن تغير الطابع الاصيل للنظم الاساسية ولكنها جددت البناء الخارجى وأعادت تشكيل الفروع وصياغتها فى اطار الاسلام لم يصاحبها روح التعصب والخضوع الاعمى وانما صاحبها اقتناع مستنير وايمان عميق .

ولما كان الاسلام نفسه يقوم على أساس النظرة الجامعة فانه لا يمكن أن يفسر تاريخه الا من خلال مفهوم جامع مترابط .

ولقد ظل التاريخ الاسلامى خلال طريقه الطويل مرتبطا بالتاريخ الانسانى ، أخذا وعطاء ، وكان له آثاره البعيدة فى التغيرات الواسعة التى عرفتها البشرية ، من حيث تحررها من عبودية الوثن وعبودية القيصر والامبراطور والفرعون ومن حيث اهداء

الاسلام لها المنهج التجريبى الذى نقل البشرية الى عصر العلم ، وتاريخ الاسلام وحدة كاملة متصلة الحلقات ، وهو مراحل متسلسلة يسلم بعضها الى بعض ذلك لانه يصدر عن قوة واحدة مؤثرة فى الاجتماع والاقتصاد والسياسة ، ولقد أشار الباحثون الى ان الاسلام لا تخبو له نهضة حتى تبدأ نهضة اخرى ، وان الاسلام أثر فى كل الاحداث العالمية منذ وجوده الى اليوم وان تأثيره سيظل مستمرا لا يتوقف فما زال الاسلام ينمو ويزداد اتساعا حتى شمل القارات الخمس الآن ، ولن يتأتى لقوة مهما عظمت أن تقضى على الاسلام ، وان كانت تستطيع ان تذيل منه وأن تؤثر فى وجوده بالازمة أو بالغزو أو بالتغريب ، ولكنه قادر على استعادة قوته ودفع الضرر عنه بالتجدد من الداخل ، ولن يستطيع أى مؤرخ منصف أن يكتب تاريخ البشرية متجاهلا تاريخ الاسلام وأثره البعيد فى مجريات الاحداث .

رابعا : كانت أخطر محاولات « التغريب » تتركز فى المنهج الذى فرضته الارساليات التبشيرية التى استوعبت الشباب المسلم فى العالم العربى فى العصر الحديث والذى يقول : انها تلقن التاريخ وتعلم طلبتها أن يبحثوا فى التاريخ كأنه علم من العلوم الطبيعية المبنية على الاستقراء أى تطبيقه على نواميس الاجتماع الجديدة .

ولا ريب أن هذا منهج فى النقد التاريخى قد انبثق من الفلسفة المادية التى ترى أن هناك قوانين جبرية تحكم تطور التاريخ الانسانى . وهى فكرة قد انكشف على مدى الزمن فسادها وتبين أن من قالوا بها قد انحازوا الى (عينات) من الوقائع

التاريخية وجوهها حسب أهوائهم ، ولكن الارساليات تجد فى هذا المنهج أهمية خاصة وسلاحا هاما لانها تستطيع به أن تضرب تاريخ الاسلام وتزيف وقائعه وتشكك فى بطولاته وهذا هو هدفها الاساسى .

ولا ريب أن النظرة الصحيحة للتاريخ يجب أن تنتفى معها الحتمية والجبرية جميعا : ذلك لان الانسان صانع التاريخ له حريته واختياره وأثره الخاص فى كل ما يقدم عليه من فكر وعمل ، فلو كان وليد الاسباب والعوامل الطبيعية فحسب ، ليس له يد فى تحويلها أو توجيهها ، لو كان كله نتيجة حتمية وليس بشكل من الاشكال فاعلا مسببا لما كان ثمة موجب لاى حكم يصدر منه بل لم يكن ثمة مصدر هذا الحكم كذلك لو كان مسيرا فى حياته كل التسيير ، مجبرا على كل عمل من أعماله لضاع معنى الحكم وما يتضمنه من ثواب وعقاب » .

ان حكم التاريخ ، بل أى حكم يتنافى مع الحتمية والجبرية المطلقة ولا يقوم الا اذا اعترف الانسان بحريته واختياره وعقيدته على تحقيق هذا أو ذاك من الامكانات الكامنة فى ذاته والمنفسحة أمامه .

فحكم التاريخ مرتبط ارتباطا محكما بهذا المعنى الانسانى : معنى الحرية ، فهذا المعنى بمقدار انكشافه وتجليه وتحقيقه يتلخص جوهر الجهد الانسانى المتمثل فى التاريخ وبهذا المعنى أيضا يستطيع الانسان أن يحكم فى التاريخ ، ويفصل بين التراث الايجابى الباقى الحافز ، والتراث السلبى الزائل .

ومعنى هذا ان الاتجاه الذي ركزت عليه الارساليات التبشيرية فاسد علميا وهو محاولة من محاولات هدم التاريخ الاسلامى وبطولاته وعبرته فى نفوس الشباب المسلم والحيلولة دون ان يؤدى هذا التاريخ دوره فى الاجيال الجديدة ليقدم لها قدرته على مواجهة الاحداث المتطورة ويكشف لها الاخطار المحيطة ويدفعها الى الطريق الصحيح لمواجهة الغزو الذى يتجمع له قوى الاستعمار والصهيونية والماركسية .

ولقد تلقفت الصهيونية العالمية محاولة تزييف التاريخ وتفسيره على نحو مسموم كما فعلت الماركسية حين أجرت عليه منهج التفسير المادى .

أما الصهيونية فقد عمدت الى الاستيلاء على عدد كبير من كراسى الجامعات الغربية ، والعمل على تبرير الغزو الصهيونى للبلاد الاسلامية والسيطرة على فلسطين ، واثارة الشبهات حول الامة العربية وتاريخها ومكانتها ، وحول دينها وعقيدتها ، باعتبارها القوة المواجهة لها فى الصراع ، واثارة الغرب على الشعوب العربية والاسلامية وذلك باعادة عرض صور من أحداث الحروب الصليبية وغيرها على نحو مضلل ، وهم الذين يحاولون الآن اثارة مخاوف أوربا والغرب نحو العرب وازدهارهم ونهضتهم كوسيلة لتعبئة الرأى العام الغربى ضدهم وهم الذين يقفون الآن من وراء تجديد الكتابة عن الفرق الاسلامية وعن الثورات التى قام بها الزنج والقرامطة والباطنية ودفعهم بعض أذنابهم من التغربيين لتصويرها بصورة أنها ثورات اسلامية ، وقد ركز مؤتمر بليتمور الصهيونى الذى عقد عام ١٩٤٢ حول هذا الاتجاه وكل ما يتردد الآن وينشر

عن الحركات الباطنة كالقرامطة والاسماعيلية والجلاح هو من صنع هذا الاتجاه فى محاولة تصوير هذه الفرق والشخصيات على أنها من دعاة العدل بينما هى من صميم دعاة الانتفاضة على الدولة الاسلامية والعمل على هدمها .

ويتضل هذا التأثير بما نراه فى كتب التاريخ المدرسية من محاولة تصوير رجال التبشير والارساليات الذين وفدوا على العالم الاسلامى فى أوائل حركة الاستعمار البرتغالى والاسبانى على أنهم أبطال الكشوف الجغرافية ، أو ما نجده من تمكين فى كتب التاريخ الاسلامي على مسائل الخلاف بين معاوية وعلى وابراز الزوايا الحادة فى المواقف والاحداث حتى يبدو التاريخ الاسلامى كله وكأنه صراع سياسيين محترفين على مغانم الحكم او انه تضارب بين الدماء والعروق ، بينما لا ترى مثل هذه للصور فى الصفحات الخاصة بتاريخ الفراعنة .

ويتصل بهذا ما تغص به دائرة المعارف الاسلامية (التى كتبها مجموعة من المستشرقين اليهود والمسيحيين المتعصبين) وكأنها مجموعة افتراءات واتهامات حاقدة على الاسلام وبنى الاسلام والقرآن وهى تحاول أن تصور الاسلام وكأنه من صنع محمد وايماءاته وتصوراته ، وما كتبه بروكلمان وغيره وكلها تحاول أن تصيب رجال الاسلام وحكوماته بالاتهام والشبهة والهوى ، وفى هذا المعنى يقول الاستاذ يوسف العشى : لقد حاول الكثيرون ان يصموا تاريخنا بكثرة الفتن والحروب والمكايد والاضطرابات وليس هنا مجال الرد عليهم ، غير أن النظرة الصحيحة الى التاريخ من خلال أعوامه العديدة تعطى البيان الواضح عن أن هذه الوصمات لا

أصل لها صحيح ، وان كل ما فى الامر ان هنـاك « تفاعـلات » فى المجتمـع الاسلامى العـربى كانت تـأخذ طـريقها ولا بـد أن تأخـذ طـريقها فى ذلـك المجتمع ، وان هـذه التفـاعـلات سنـة من سنن اللّه ، ولن تجد لسنة اللّه تبـديلا ، وهى تفـاعلات تحـدث فى كل أمة ، بل ان الامم الاخرى كانت تتلقاها بعنف أكثـر مما تلقـاها بـه المسلمون والعرب ، وتاريخ الامم دائما ممزوج بالحروب والفتن ، والاضطرابات أكثر من التاريخ العربى .

ولقد كان لهذه المحاولة الخطيرة التى ما تـزال مستمرة أثـرها البعيد فى نفس الشباب المسلم الذى ينظر الى تاريخه وزعماءه من خـلال وجهة نـظر تغريبيـة ذات هدف واضـح فى هدم المقـومـات الحقيقية للاسلام وتاريخه وعقائده .

وهناك اتجاه العنصرية فى كتابة التاريخ الاسـلامى وهو أيضـا من عمل الاستشراق وهى المحاولة التى ترمى الى تصور نـزاع حاد بين العرب الحاكمين والشعوب المحكومة .

وقد حاول فان فلوتن دولهاورند تصوير القرن الاول الهجـرى وكأنه صـراع دموي بين العـرب كسادة وحكـامه وبين سكـان البلاد المفتوحة .

وقـد تأثـر بهذا الاتجـاه مؤرخون عـرب كثيرون فحـاولـوا أن يصوروا انتفاضات بعض الوفد كالبابكية والقرامطة على انها حركات متحررة وتلك نظرة مستمـدة من الفكر السيـاسى الحديث ولم تكن من طابع ذلك العصر .

كذلك فـان هناك محـاولات ترمى الى الانتفـاض من جوهـر

الاسلام نفسه على أساس القول بأن تاريخ الاسلام هو تطبيق لهذه الاصول الاسلامية ، والواقع انه لا بد من التفرقة الواسعة بين مبادىء الاسلام الربانية الثابتة الممثلة فى القرآن الكريم والسنة النبوية الصحيحة وبين التجربة التى قام بها الحكم الاسلامى والتى تلتقى مع مبادىء الاسلام وقد نفترق فى بعض المراحل . ولا ريب ان هناك نفر ممن تولوا زمام الحكم فى الدولة الاسلامية بعد الخلافة الراشدة بعدوا عن « منهج الإسلام » فمن غير الحق ان يصور سلوك هؤلاء الحكام بأنه من مبادىء الشريعة . وأهم ما في ذلك الفهم الخاطىء من محاذير هو محاولة نسبة الاستبداد الى الإسلام ومحاولة الاستشراق تبرير الاستبداد بالاسلام نفسه حيث يقول بعضهم وهو كاذب : ان نظام الحكم في الاسلام نظام استبدادي ونسى هؤلاء أن للاسلام مبادئه الواضحة التي تنظم العلاقة بين الحاكم والمحكوم لمصلحة المحكوم نفسه .

وقد وقع فى هذا الخطأ توماس أرنولد فى كتابه الخلافة ومرجليوث ، وماكدونالد وموير ، وكلهم حاول أن يتخذ من واقع التاريخ الاسلامى ومن أخطاء بعض الولاة المسلمين مبررا لان ينسب استعداده الى الاسلام .

والانصاف يقتضى أن يقال : ان للقرآن تعاليمه الواضحة التى توجب تساوى الناس فى جميع الحقوق ، فاذا ما قامت رئاسة تتفق مع هذه التعاليم التى جاء بها القرآن فهى التى تنطبق عليها الصفة الاسلامية ولا يستطيع أى طاعن أن يطعنها حينئذ فى سموها وكفالتها لجميع الناس فاذا لم تتفق هذه الرئاسة مع تعاليم القرآن فانه لا يصح القول بأن هذه الخلافة خلافة اسلامية ، لانه اذا كانت

قد صادقت تعاليم كتاب الله الذي هو دستور الدعوة الاسلامية فهل يصح أن ينسب الى الاسلام ما هو متصادم مع دستوره (دكتور محمد رأفت عثمان) .

والخلافة فى سماتها الصحيحة ينظر اليها ايام صفائها ونقائها ولا يصح أن يتخذ الباحث أى عصر يروقه فيحكم عليها بالسمات التى يجدها فى هذا العصر وهذه المنحرفة ليست خلافة على المسلمين بل رئاسة ليست ملتزمة فى سياستها لهم بقانون الاسلام .

ان تميز التفسير الاسلامى للتاريخ ، وهو المنهج الوحيد الصالح لتطبيقه على التاريخ الاسلامى يتميز بسمات هامة : تتغاير مع مفاهيم الفكر الغربى فى الاساس ومن ثم يختلف معه فى التفسيرات : الليبرالية أو الماركسية على السواء .

أولاً : الانسان :

فالانسان فى الاسلام له ارادة حرة قادرة على العمل وهى موضع مسئوليته وهو بذلك ليس خلية فى جسم المجتمع ، وليس محكوم عليه بالحتمية او الجبرية .

وهذا الفهم يختلف مع الفكر الغربى الذى يرى فناء الفرد فى المجموع ، وان وجود الفرد كشىء منفصل قائم بذاته خداع ، ويرى الفكر الغربى أن الجنس البشرى عبارة عن حشد من مخلوقات اليه لا ارادة لها . وأن الحياة البشرية ظاهرة محدودة يحيط بها الزمن احاطة تامة . ولذا فان وجود الفرد غير ذى أهمية قط .

والاسلام يعتبر الانسان فى موضع الخلافة فى الارض .

ثانياً : ترتبط في الاسلام الأزلي بالأيدي ، والثابت بالمتغير ، والروحى بالمادى ، والدنيوى بالاخروى فنظرة الانسان الى الحياة وعمله فيها تمتد الى ما بعد الموت والى البعث والجزاء والى حياة أخرى هى الخلود بعينه .

وهذا الفهم يختلف مع الفكر الغربى الذى يرى أن الحياة لها نهاية ليس بعدها شيء وان النظرة قاصرة عند هذا الكون المحدود والزمن المحدود .

ثالثا : يؤمن المسلم بأن العالم يتحرك بارادة الله المطلقة الفعالة ، التي خلقت نواميس الكون والوجود والمجتمعات وقوانينها وان هذه الارادة الربانية قادرة على تغيير هذه النواميس وايقافها وان الانسان ارادة محدودة داخل ارادة الله ومنها وهى موضع مسئوليته ، ومنها يجيء أثره في تحريك المجتمع وتغيير التاريخ .

فالحق تبارك وتعالى قادر على التغيير بغير سبب واضح من الاسباب التى يعرفها الانسان او يقيسها من تلك القوانين واحداث التاريخ شاهدة على ذلك فى عديد من التغيرات الكبرى التى حدثت ولم يستطع الماديون تفسيرها الا بأن أطلقوا عليها اسم الصدفة أو الفجاءة .

رابعا : ينطلق التفسير الاسلامى للتاريخ من الله هو الفاعل الحقيقى لكل أحداث التاريخ عن طريق خلقه وجنوده (وما يعلم جنود ربك الا هو) والانسان واحد من هؤلاء الجنود وقد قدم

القرآن أسباب قيام الامم وتطورها وانهيارها ، وكشف عن المصدر الحقيقى للنصر والهزيمة والبقاء والزوال .

والقرآن يرد هذه العوامل أساسا الى الاخلاق والايمان بالله والتقوى ، فاذا حافظت الحضارة على هذه العوامل استطاعت ان تستمر وان خالفت سقطت .

﴿ ألم يروا كم أهلكنا من قبلهم من قرن مكناهم فى الارض ما لم نمكن لكم وأرسلنا السماء عليهم مدرارا وجعلنا الانهار تجرى من تحتهم ، فأهلكناهم بذنوبهم وأنشأنا من بعدهم قرنا آخرين ﴾ .

ومعنى هذا أن الامم اذا انحرفت الى الترف والفساد والانحلال وعزفت عن العمل الجاد القائم على الاخلاق والرحمة والتقوى ، سقطت .

هذا هو القانون الثابت الذى لا يتغير والذى يصيب الامم اذا خرجت عن جادة الحق وانحرفت عن الطريق الصحيح ، طريق بناء المجتمع الربانى ، وقد أصاب هذا القانون المسلمون أنفسهم عندما انحرفوا عنه فإذا عادوا اليه عاد اليهم مجدهم ، ولقد كان المسلمون دوما اذا ما خرجوا عن جادة الحق والخلق أصابت سنة الله التى لا تخلف فاذا عادوا الى الاستمساك بالحق والمنابع واعتصموا بالله وكتابه أعيدوا الى القوة والنماء والتمكين فى الارض ، ويدعو القرآن المسلمين الى أن يسيروا فى الارض فينظروا عاقبة الامم التى سبقت ، والتى يمشون فى مساكنهم ، كالفراعنة والرومان ، وغيرهم ، ليكون لهم عبرة من ذلك .

« قل سيروا فى الارض فانظروا كيف بدأ الخلق » .

« قد خلت من قبلكم سنن فسيروا فى الارض » .

« أفلم يسيروا فى الارض فتكون لهم قلوب يعقلون بها » .

ولعل هذا هو القانون الحتمى الذى لا سبيل الى تجاوره ، اذا فسدت الامم انهارت مجتمعاتها وحضارتها ، واذا عادت الى الحق أعيدت الى مكانتها ورسالتها وللمسلمين رسالة وامانة عالمية عليهم ان يبلغوها للبشرية كلها ولذلك فهو احق ان يلتمسوا اسباب الحياة والقوة من مصدرها الاصيل القرآن .

الباب الثاني

البطولة فى تاريخ الاسلام

فى تاريخ الاسلام تتكشف البطولة فى ثلاثة أبعاد :

* **بطولة الحرب والمقاومة ورد الغزاة .**
* **بطولة الفكر وتصحيح المفاهيم .**
* **بطولة بناة الدول فى مجال الحضارة .**

وهى بهذا تكاد تسيطر على تاريخ الاسلام كله للذى يجرى فى هذه الأبعاد الثلاثة ، والواقع أن الاسلام قد رسم أيديولوجية جديدة لها طابعها الخاص ، تتسم بالايمان باللّه وقوامها الجهاد فى سبيل كلمته واقامة حياة الفرد والجماعة على أساس العمل المتقدم البناء فى مجال الانشاء والحضارة . ومن خلال هذا المفهوم تتمثل النظرة الى الحياة والمال والموت والجزاء .

ومن هنا برزت « البطولة » التى تمثلت فى شخصيات نموذجية أهدت حياتها لتحقيق رسالة الاسلام فى الدعوة اليه والدفاع عنه وتصحيح مفاهيمه ورد عادية خصومه عن قيمه وعن أرضه . . ومن هنا كان مفهوم « الجهاد » لا يتوقف على الحرب

وحدها وانما يتسع نطاقه حتى يشمل مجال النشاط الانسانى كله ما دام هدف الحياة الانسانية الأساسى هو تحقيق رسالة الاسلام ودعوته .

هذا هو التغيير الخطير الذى أدخله على مفاهيم الأمة التى بزغ فيها ضوؤه وهى أمة مهيأة بالفطرة لتقبل رسالة عظمى كهذه الرسالة ولما كانت حركات التاريخ كلها تتمثل فى أمم وجماعات تكون بطبيعتها معدة اعدادا نفسيا وبيئيا ووراثيا لحمل رسالة معينة ، فانه من خلال هذه الجماعة تبرز بطولات الأفراد التى تخطو بالعمل خطواته المتوالية .

كذلك فان الأمة العربية بطبيعة تكوينها وبيئتها ووراثياتها ، وهى تعيش فى هذه الجزيرة الضيقة المنعزلة عن حضارة الرومان وحضارة الفرس والتى بعدت عن عبور الغزاة وحركات الغزو ومعارك القتال وتيارات الحضارة والفكر والمذاهب والأديان ، انما كانت معدة بذلك اعدادا خاصا لتلقى رسالة ضخمة انسانية عالمية تحمل لواءها بكل هذه العوامل المكونة لنفسية جماعتها وأفرادها ، وقد التقى مفهوم الاسلام بطبائع العرب . فتحقق بذلك تحول خطير فى قيم العرب وفق مقاصد الاسلام ، وقد حدث هذا التحول الخطير فى دقة ويسر . . واستطاعت أعوام لا تزيد على نيف وعشرين عاما هى حياة الرسول محمد بن عبد اللّه منذ بعثته الى وفاته ، أن تحقق هذا التحول . . فقد عرف العرب بالشهامة والكرم والقوة والعزم والمقاتلة والصبر والصمود والبذل . وتلك كلها صفات يرتضيها الاسلام . . غير أنها قبل الاسلام كانت موجهة فى سبيل الغاية الفردية . والاستطالة والثأر . والاستعلاء والظلم .

فكان أن حولها الاسلام الى مفهوم انسانى رفيع ، وجعلها فى سبيل تحقيق هدف ومن أجل غايات عليا قوامها الانسانية والتوحيد والعدل والحق والحرية ، وأحاطها بسياج متين من الضوابط ، فعدل اتجاهها وبالتالى عدل اتجاه النفس الانسانية العربية وجعل عزيمتها الصارمة قوة لا حد لها فى سبيل اذاعة كلمة اللّه فى الآفاق وتحطيم كل قوة تحول دون توسعها . دون أن تكون قوة عدوان أو تسلط أو ظلم . وانما تكون وفق مفهوم القرآن ﴿ أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا . . ﴾ .

والمسلمون يقاتلون فى سبيل غاية عليا هى تحقيق كلمة اللّه ونشر الاسلام والدفاع عنه . وهم لا يطمعون فى مغنم مادى بالدرجة الأولى . وهم فى أعمق أعماقهم قد خرجوا على مضمون واضح فى نفوسهم . . هو النصر أو الشهادة . . وفى حال الشهادة يحس المسلم أنه أحرز أكثر نصر . . فهو قد قدم روحه فى سبيل فكرة ملأت نفسه وفاضت بها روحه . ومن هنا فهو يقاتل دون أن يخشى الموت أو القتل لأنه وطد نفسه على أن يموت . فلابد أن ينصر الكلمة التى آمن بها أولا . ومن هنا فان النتيجة أن ينتصر ولا يموت ، تحقيقا لقانون صادق : « اطلب الموت توهب لك الحياة » . وليس معنى هذا أنه لم يقتل من المسلمين أحد ، فقد قتل الكثيرون ولكنهم ماتوا شهداء . . مؤمنين بأنهم قد أدوا حق اللّه فى سبيل مبدأ آمنوا به وعقيدة ملأت نفوسهم .

وقد عاش هذا المعنى فى نفوس المسلمين طويلا وما زال حيا نابضا بالحياة ، فهم يتمثلون فى كل خطوة ، ذلك المعلم الأول والقائد الأول . . ما تزال صورته الواضحة الدقيقة المتمثلة

فى كتب السنة ، وفى مختلف تصرفاته ، تواجههم وتملأ قلوبهم بالشوق الى المتابعة والتأسى . فقد كان صلى اللّه عليه وسلم هو التطبيق العملى لفكرة الاسلام ومقاصده وأهدافه .

فكان تجسيدا كاملا لتعاليم الاسلام ، والأسوة الحسنة للمسلمين ، كان خلقه القرآن . . وقد وصفه الحق بقوله : ﴿ وانك لعلى خلق عظيم ﴾ .

وقد تمثلت البطولة بعد مرحلة النبوة فى مواجهة الردة التى أصبحت الجزيرة العربية عليها ذات يوم بعد اختيار النبى للرفيق الأعلى ، وفيما عدا ثقيف وقريش فقد ارتد سائر العرب . . وكان موقف الصديق ، دائماً قوياً فقد أصر أبو بكر الخليفة الأول على المقاومة ورفض الاستسلام . . وأنفذ أحد عشر جيشاً في يوم واحد . . واستطاع أن يستأصل الردة في معارك متعددة أكبرها معركة اليمامة . .

وسرعان ما أبرزت هذه المعركة الأساسية فى ميزان بقاء الاسلام بطولات . فى مقدمتها بطولة البراء بن مالك . فقد زحف المسلمون حتى الجئوا المرتدين الى حديقة أطلق عليها من بعد « حديقة الموت) وفيها مسيلمة مدعى النبوة . فقال البراء : يا معشر المسلمين القونى عليهم فى الحديقة . فقيل للبراء : لا تفعل . . قال : واللّه لتطرحنى عليهم فيها . . فحمل الى أن أشرف على الحديقة حتى فتحها للمسلمين .

وفى مواقف متعددة وغزوات مختلفة توالت على ثرى الشام وفارس والعراق ومصر برزت معالم البطولة الاسلامية حية نابضة

بالحياة . وقد غيرت مقومات الاسلام القيم والمفاهيم لدى المرأة ، كما غيرتها لدى الرجل . فقد جاهدت المرأة فى الحرب وقاتلت . . فقدمت حليها وشعرها . . وفى معركة اليرموك قاتلت النساء فى جولة فخرجت جويرية بنت أبى سفيان ومعها زوجها فقاتلت قتالا شديدا .

وهكذا بدت بطولة الحرب والمقاومة فى صورة من أدق صورها . مستمدة قوتها من مفهوم الاسلام نفسه . واذا كانت بطولة الحرب قد توقفت فى العام ١١٤ هـ بصورة عامة ، فأنها ظلت حية تتمثل فى حركة المقاومة التى لم تتوقف فى جبهات الحدود الاسلامية البيزنطية والحدود الأندلسية الأوروبية والاسبانية وفى حدود عالم الاسلام والمشرق .

فقد امتدت معارك المقاومة متقطعة على مراحل وفترات ولكنها كانت وفق خطة لم تتغير من جانب العدو هى : الادالة من علم الاسلام أو الحيلولة بينه وبين التوسع . . . ثم برزت ثلاث معارك ضخمة . . هى الحروب الصليبية فى المشرق وحروب الفرنجة فى الأندلس والمغرب والغزو الصليبى التترى . وفى خلال هذه المعارك تجددت مفاهيم الاسلام فى المقاومة بصمودها وسماحتها فى الوقت نفسه . وبرزت نماذج جديدة من البطولة الحربية ، وتشابهت صور نور الدين محمود وصلاح الدين الأيوبى مع صور خالد ابن الوليد وسعد بن أبى وقاص . . وتلمس المسلمون على المدى الطويل أخلاق الاسلام ومفاهيمه ، يحاولون أن يكونوا على مستوى الرعيل الأول حماية للذمار ومقاومة للعدو وعدلا وسماحة .

* * *

بطولة العلم التجريبى

لا مشاحة أن العلم كان ولا يزال من اخصب جوانب الفكر الاسلامى ودعامة أساسية فى بناء الحضارة الاسلامية فقد حرض القرآن على اصطناع العقل ، ودعا الى النظر فى الكون والبحث فى أعماق الأرض ففتح الباب واسعا للمسلمين منذ اللحظة الأولى لنزوله الى النظرة العلمية العقلية القائمة على التكامل بين العقل والقلب والوسطية بين الروح والمادة وقد كانت أزهر فترات التاريخ الاسلامى هى المرحلة التى توازن فيها الفكر الاسلامى : جامعا بين الدين والدنيا وبين ثقافة القلب وثقافة العقل . .

وفى مجال العلم برز أبطال من الباحثين الدارسين لم يتوقف أمرهم عند علوم الشريعة والعقيدة والأخلاق وانما امتد الى مجال العلوم الطبيعية والرياضية فبلغوا فى مختلف مجالاتها قدرا عاليا ، وقد كانت قاعدتهم الأساسية : العلم هو علم الدنيا والآخرة معا وهو العلم الجامع بين بناء الحضارة وبناء النفس الانسانية جميعا .

هذه النظرة كانت قيمة أساسية فى مجال البحث العلمى الاسلامى . . أما انحراف هذه النظرة فى مرحلة الضعف حين غلبت (الجبرية) وحين انصرف المسلمون عن العلوم الطبيعية والرياضية فذلك انحراف لا ينسب الى الاسلام وانما ينسب الى المسلمين .

وقد بدأ المسلمون ممارسة العلم والبحث فى مختلف المجالات قبل أن يتصلوا بالفلسفات اليونانية وغيرها فلما بدأت ترجمة الآثار اليونانية أخذوا تلك المبادىء القليلة التى كانت عند

اليونان فنظروا فيها وعرضوها على مفهوم التوحيد الخالص فرفضوا منها وقبلوا ثم نموا ما قبلوه وأضافوا اليه ثم ابدعوا علوماً أخرى لم يسبقهم اليها أحد .

ولا شك أن اتجاه الفكر الاسلامى الى الانفتاح على الثقافات البشرية : فارسية ويونانية وهندية ، كان ايمانا بإنسانية الفكر الاسلامى ومرونته وحيويته وقدرته على استيعاب الثقافات البشرية وصهرها فى بوتقته ورفض ما لا يتفق مع مفاهيم الاسلام ومقوماته . واذا كان ائمة المسلمين يهدون الهدايا الى حكام بيزنطة اغراء لهم بإرسال الكتب القديمة ، بل وكانوا يجعلون هذه الكتب من الجزية المفروضة على الروم فان دلالة هذا التصرف واضحة فى فهم المسلمين للاسلام وجرأتهم فى مجال العلم والعقل والبحث .

وقد نما الفكر الاسلامى من خلال العقائد والفقه وكان تحقيق الحديث النبوى علامة ضخمة على قيام المنهج العلمى الموثق لقبول النصوص أو رفضها ، هذا المنهج الذى نما بعد ذلك فى مجال الفقه والتاريخ ، ثم كانت التفريعات والتشقيقات التى قام بها المفكرون المسلمون ازاء القضايا والأحداث والمواقف المتعددة لايجاد حلول منوعة لكل حالة من حالات المجتمع وعلاقات الناس فى مختلف البيئات والعصور .

كانت هذه الممارسة مقدمة للعمل فى مجال الفلك والكيمياء والرياضيات والطب الذى حقق مولد حدث ضخم هو (المنهج التجريبى الاسلامى) الذي رسم المفكرون المسلمون والعرب

منهاجه ووضعوا قواعده وأقاموا عليه أعمالا ضخمة وحققوا به تقدما بارعا .

هذا المنهج التجريبى الاسلامى هو آخر ما أهدت الحضارة الاسلامية لأوروبا فى القرن العاشر الهجرى والقرن السادس عشر الميلادى عن طريق الأندلس بعد أن سجل أعلام العلم التجريبى خطوات واسعة تشهد بدور المسلمين فى اقامة هذا المنهج وممارسته ، وفى مقدمة هؤلاء الرازى وابن سينا والخوارزمى والبتانى والبيرونى وعمر الخيام ، وابن زهر وابن خاتمة وابن الهيثم وابن العوام وابن البيطار وابن رشد وابن الخطيب .

وقد سجل العلامة سارطون حقيقة الدور الذى قام به المسلمون فى مجال العلم النجريبى حين قال أن أعظم الابتكارات العربية فى الرياضيات والفلك كانت شيئين : علم الحساب الجديد وعلم المثلثات الجديد ، وعنده أن العرب جمعوا بين المصدرين (اليونانى والهندى) وانهم نقحوا الآراء اليونانية بالآراء الهندية . وقال : اذا لم يكن هذا الذى فعله العرب ابتكارا فليس فى العلم ابتكار على الاطلاق ، فالابتكار العلمى فى الحقيقة انما هو حياكة الخيوط المتفرقة فى نسيج واحد .

والحق أن المسلمين لم ينقلوا المفهوم الرياضى الاغريقى بل وضعوا مفهوما جديدا ـ كما فعلوا فى الفلسفة والأخلاق والتصوف والأدب ، وكل الفنون التى كان لها وجود سابق على الاسلام . وكان مفهومهم قائما على الربط الوثيق بين مكتشفات العلم وبين مبادىء الاسلام .

وهكذا كان موقف المسلمين من العلم موقفا له طابعه الاستقلالى الابداعى ، واذا كانوا قد أخذوا من تراث الأقدمين فانهم لم يستسلموا له أو يتوهوا فيه ولم يدعوه يصوغهم بل هم الذين صاغوه وفق اطار واضح من قيمهم ومفاهيمهم ، ذلك أن القرآن قد دعاهم الى العلم وحثهم الاسلام على النظر فى الكون والبحث فى الأرض فلما تسلموا زمام العلم لم يخضعهم ، وانما أخضعوه وحرروه من زيوف الوثنيات والغموض وحاولوا دون أن يكون وسيلة للعدوان أو اباحته . فقد أعادوا صياغته فى ضوء مفهوم الاسلام خلقا جديدا مختلفا كل الاختلاف ثم أقاموا عليه بناء ضخما وأضافوا اليه اضافات كبيرة .

وقد كانت أداة العمل فى مجال العلم عند المسلمين هى :

(النظر العقلى + التجربة + الرحلة) وقد بلغ المسلمون فى ذلك غاية الغايات فحققوا النصوص القديمة ورفضوا ما لا يقبله العقل والتمسوا التجربة فى المعامل فقاموا بها على الحيوانات والحشرات ثم ذهبوا الى أطراف الأرض يبحثون عن الحقائق وقد رحل البخارى ستة عشر عاما ورحل الغزالى عشر سنوات ورحل ابن بطوطة ربع قرن كامل .

كما حفلت عواصم الحضارة الاسلامية بمعاهد العلم ومعامله ومراصد الفلك والمكتبات ، وكان فى بغداد وحدها فى عصر المقتدر بالله الخليفة العباسى ما قارب التسعمائة طبيب ممن جازوا الامتحان ليكونوا أطباء وقد نظمت صناعة الطب فكان للأطباء رؤساء وكان عليهم رقباء لاتصال أعمالهم بمصالح الناس كافة ، ومن الأطباء من كان خاصاً بالجند فهو يصحبهم في أسفارهم ولهم

رواتب ومنهم من يطبيون العامة وهم غير المرتزقين ومنهم متخصصون ومنهم الطبيب على اجماله ومنهم الجراح والفاصد ومنهم الكحال أي طبيب العيون والأسنان ومنهم من يقتصر عمله على معالجة النساء ومنهم من يطب للمجانين . وكانت جامعة بغداد تعتمد سنوياً مليوناً ونصف مليون فرنك لشراء الكتب والمخطوطات .

ولم يقف شأن العلماء التجريبيين المسلمين عند مجال الطب بل تعداه الى مختلف مجالات الفلك والجغرافية والكيمياء والفيزياء ، والنبات والزراعة والرياضة والتاريخ والرحلة والكشف .

وقد سبق الباحثون المسلمين علماء أوروبا فى (تقعيد) القواعد فابن حزم وضع أسس نظرية المعرفة التى قام بها (كانط) بعده بثمانية قرون .

وابن خلدون بسط فلسفة الاجتماع قبل منتسكيو وتادر بخمسة قرون . وبراهين الغزالى للدفاع عن الايمان سبقت نظرات القديس توماس الاكوينى بعشرة قرون .

وكان أبرز عوامل التقدم العلمى الاسلامى سماحة المسلمين فى تلقى علوم السابقين لهم وان خالفت أصول فكرهم كما كان العلماء المسلمون سمحاء مع اليهود والنصارى ، ذلك التسامح الذى لم يسمع بمثله فى العصور الوسطى ، وكانوا آية التسامح فى عرض علوم الملل والنحل ، وقد قدموا كل نتاج أبحاثهم العلمية فى الأندلس الى أوروبا بسماحة ، وكان العلماء المسلمون مطبوعين على الخلق والصدق وشمول النظرة بين العلوم العقلية

والشرعية والرياضية . والحق أن الاسلام لم يعط الغرب أساس البحث العلمى التجريبى فحسب ولكنه أعطاه مفهوم الحرية والاندفاع نحو العمل والبناء والانشاء والابتكار ، وهو ما قدمه ابن رشد للفلسفة الأوروبية من مفاهيم زلزلت القيم الجامدة القديمة ، حيث تغيرت نظرة انكار الدنيا والتشاؤم التى كانت غالبة على الفكر الأوروبي وحلت محلها نظرة إيجابية مصدرها الاسلام ، فالاسلام وهو دعوة البحث عن الحق قد حرض الناس على السعى اليه عن طريق المعرفة والدفاع عنه وقدم فى هذا المجال قانونين أساسيين :

(الأول) . . هو الشك قبل الايمان وقدم لذلك قصة ابراهيم الذى تطلع الى القمر ثم الشمس وغيرهما ثم دخل بعد الشك فى الايمان .

(الثانى) . . جعل للمجتهد أجرا اذا أخطأ ، وأجرين اذا أصاب . .

وقد أكد العلامة بريفولت دور المسلمين فى ابداع المذهب العلمى التجريبى فقال :

لا يستطيع (روجر بيكون) ولا سميه الذى جاء من بعده أن يدعيا أنهما ابتكرا الطريقة التجريبية ، تلك الطريقة التى هى من صنع العرب وحدهم ولم يسبقهم اليها باحث أو مفكر وكل ما عمله (بيكون) أنه كان تلميذا مخلصا للمسلمين تلقى أفكارهم كما تلقى عنهم الطريقة التجريبية التى ابتكروها ونقلها الى أوروبا .

وقد أرسى العلماء المسلمون قاعدة بحثهم على هذه الأسس :

١ ـ تكريم العقل .

٢ ـ احترام الشخصية الانسانية .

٣ ـ العدل والمساواة .

٤ ـ الايمان بالعلم والحقيقة .

٥ ـ الاعتماد على التجربة .

٦ ـ الاعتقاد ببقاء الروح بعد البدن .

٧ ـ الجمع بين مصالح الدنيا والآخرة .

٨ ـ القول بإله واحد قديم خلق العالم من لا شىء .

* * *

بطولة العلم والعلماء

للعلم والعلماء صفحة بطولة فى تاريخ الاسلام ، ورائعة باهرة ، ففى كل مجال من مجالات العلم نجد أسماءهم اللامعة واضافاتهم البناءة .

ففى التاريخ : الطبرى والمسعودي وابن الأثير وابن خلدون .

وفي الأدب : الجاحظ وابن قتيبة والخليل بن أحمد .

وفي الفلسفة : الكندي والفارابي وابن سينا وابن رشد .

وفى التصوف : ابن عربى وابن الفارض والشعرانى وعبد القادر الجيلانى .

وفى الكلام : واصل بن عطاء والنظام والأشعرى والماتريدى والباقلانى والجوينى .

وفى الحديث النبوى : ابن شهاب الزهرى ، وابن جريج المالكى وابن أسحق والترمذى .

وفى الفقه : مالك وابو حنيفة والشافعى وابن حنبل وأبو يوسف .

وفى العلم : الخوارزمى والبيرونى والبتانى وجابر بن حيان والرازى وابن الهيثم وثابت بن قرة .

وفى تصحيح المفاهيم : ابن حزم والغزالى وابن تيمية .

وابن سينا أعظم الأطباء والبيرونى أعظم الجغرافيين وابن الهيثم أعظم علماء البصريات وجابر بن حيان أعظم الكيمائيين وابن رشد فقيه وفيلسوف .

يقول ول ديورانت : ليس ما نعرفه من ثمار الفكر الاسلامى الا جزءا صغيرا مما بقى من تراث المسلمين وليس هذا الجزء الباقى الا قسما ضئيلا مما أثمرته قرائحهم وليس ما أثبتناه الا نقطة من تراثهم .

كان لهؤلاء العلماء رحلاتهم الطويلة من أجل البحث عن النص وتحقيق السند ، ذهب البخارى فى رحلته الطويلة بضعة وعشرين عاما فى تحقيق الحديث ، وجد سبعين ألفا وأقر منها

أربعة آلاف فقط . وعرض لذلك كله فى ذوق رفيع وأدب وخلق فلم يهاجم أحدا ، ولما عاد رفض أن يحدث الناس الا فى بيته أو فى المسجد .

وكانوا جميعا يوجهون العلم للّه خالصا ولخدمة الأمة ، ولا يتطلعون الى مال أو جائزة سنية ، كان ابن الهيثم صاحب نظرية الضوء التى قام عليها علم أوروبا كله يعتمد فى كسب قوته على نسخ الكتب وكان يقول : يكفينى قوت يوم ، وقال كلمته المشهورة عندما وصلته هدية أحد الأمراء : اعلم أنه لا أجر ولا رشوة ولا هدية فى اقامة الخير ونشر العلم . أما البيرونى فقد رد ثلاثة جمال تنوء بأحمالها من النقود وقال : « انما نخدم العلم للعلم » .

وفى مجال العلم عرفوا : « البرهان والحق » فقد دافع ابن حزم عن كروية الأرض بالعقل والدين وسبق « كانت » في نظرية المعرفة بسبعة قرون وقال : ان التقليد حرام ، ولا معجزة لنبى بعد وفاته . وكان مذهبه « لا يحل لأحد أن يأخذ بقول أحد من غير برهان » .

والفارابى فكر فى أمم متحدة منذ قرون ، ومدينته الفاضلة تضاءلت الى جانبها جمهورية أفلاطون ، فقد أقامها على العدل المطلق بين أبناء المدينة أما أفلاطون فقد رفع الأمراء وجعل عامة الشعب عبيدا . والأمة عند الفارابى جسم واحد لا يستقيم أمره الا بالتضامن والتعاون .

وقد ظهرت آراء الفارابى فيما بعد فى نظرية العقد الاجتماعى لجان جاك روسو ، ومن آراء الفارابى : ان السعادة

ممكنـة على وجه الأرض اذا تعـاون المجتمع على نيلهـا بالأعمـال الفـاضلة ، ويـرى أن النجـاح فى الأعمـال هـو تمـام ارتبـاط العلم بـالعمل وان بلوغ الغـاية يكـون بإصـلاح الانسان نفســه ثم اصلاح غيـره . والعلماء العـرب هم الذين أطلقـوا الأسماء على النجـوم ، هذه الأسماء التي ما تزال حتى اليوم تطلق عليها في عصر غزو الكـواكب ، فالشعـرى اليمانيـة والعيون والسمـك والرامـح والنسـر وقلب العقرب ، ما زالت تترجم الى اللغات الأوروبية بأسمائها العربية . وقـد كشف علماء المسلمين عن المجمـوعات الفلكيـة : مجموعة العقرب والبروج الاثنا عشر والـدب الأكبر والنجم القـطبى والفرقدان والحاوى .

« وابن رشـد » دعا الى مشـاركـة المـرأة الـرجـل فى خـدمـة المجتمع والدولة ، وعنده أن النظر البرهانى لا يؤدى الى مخالفة ما ورد به الشرع فان الحق لا يضاد الحق بـل يوافقـه ويشهد لـه . أما « الغـزالى » فقـد سبق « كـانط وهيـوم » وغيـرهمـا من الفـلاسفـة العقليين فى مسـألة قـدم العـالم والـزمـان والمكـان بمئـات السنين واهتدى فى ذلك الى آراء سبق بها فلاسفة القرن الثامن عشر .

و « الـطوسى أبو جعفـر » : له فضـل اقامـة مـرصـد مـراغـة العظيم ، وله مؤلفات رائعة فى علم التحول وانعكاسات الشعاعات قال سارذون : ان أقوال « الطوسى » مهدت للأعمـال التى قام بهـا « كـوبـرنيكس » فيمـا بعـد وبحـوثـه عن الكـرة السمـاويــة ونـظام الكـواكب . وكتابـه « شكل القـطاع » انـه كتـاب يفصـل المثلثـات ويجعلها علما مستقلا .

أما « الشاطبى » فقد توصل الى نظريـة شبيهة بمـا يسمى فى

القوانين العصرية بـ « نظرية التعسف في استعمال الحقوق » فأثبت بعد تحليل وتفصيل دقيقين أنه يجب منع الفعل المأذون فيه شرعا اذا قصد منه فاعله الاضرار بالغير . وقال « ابن حزم » زعم قوم أن الفلك والنجوم تعقل وانها ترى وتسمع ، وهذه دعوى باطلة وبلا برهان وصحة الحكم أن النجوم لا تعقل أصلا وأن حركتها أبدا على رتبة واحدة ولا تتبدل عنها ، وهذه صفة الجماد الذى لا اختيار له ، وليس للنجوم تأثير فى أعمالنا ولا لها عقل تدبرنا به ، الا اذا كان المقصود أنها تدبرنا طبيعيا كتدبير الماء والهواء ونحو أثرها فى المد والجزر ، وقال ان النجوم لا تدل على الحوادث المقبلة .

اما ابراهيم النظام فدعا الى الشك فى سبيل اليقين وقال : ان الشك سبيل الانسان الى كل يقين وان طالب العلم لا يكون كحاطب ليل ، بل ينبغى أن يتخير مما فيها ولا يسمح أن يدخل فى نفسه الا الجد المنتقى وعنده ان الكتب لا تحيى الموتى ولا تحول الأحمق عاقلا ولا البليد ذكيا ولكن طبيعة الانسان اذا كان فيها أدنى قبول فالكتب تشحذ وتفتق وترهف وتشفى .

ويقول : الشاك أقرب اليك من الجاحد ، ولم يكن يقين قط حتى صار فيه شك ولم ينتقل أحد من اعتقاد الى اعتقاد غيره حتى يكون بينهما حالة شك .

والمعروف أن النظام وواصل بن عطاء وغيرهما كان لهما دور ضخم فى الدفاع عن الاسلام فى وجه مناهج الفلسفة اليونانية التى حمل لواءها خصوم الاسلام وقد استطاع بعمق منطقه وسلامة جداله تصحيح الحقائق والعقائد في نفوس المئات .

وقد عرف علماء المسلمين « التقنين » ممثلا فى اللغة القانونية المحكمة التى كتبت بها مصنفاتهم الفقهية وفى التبويب الدقيق للمسائل مما نجده فى أوضح صورة فى المختصرات المكرسة للفقه العملى مثل كتاب الماوردى وكتاب أبى يعلى المعاصر له والحامل نفس العنوان . وقد نسقت أحكام هذه المختصرات على صورة تجعل من الميسور تصنيفها الى مواد قانونية على الشكل المتبع فى التقنين الحديث وكان ابن حجر العسقلانى واحدا من أعمدة المنهج العلمى ، يقول « البقاعى » عنه : لا يستطيع أحد ان يقسره في شيء أصلاً ، أو أن يقرب من ذلك فهو لا يقبل كلام أحد فى غيبة خصمه فهو آية فى حسن القضاء ومعرفة دسائس الناس فى كلامهم والاهتداء الى قطع الأمور . له فى المناظرة مسلك غريب قل أن يثبت له فى ذلك أحد . ويركز « الترمذى » منهجه الفكرى على الحق والعدل والصدق . يقول : انا وجدنا دين الله عز وجل مبنيا على ثلاثة أركان : على الحق والعدل والصدق ، فالحق على الجوارح والعدل على القلوب والصدق على العقول ، فاذا افتقد الحق من عمل خلفه الباطل واذا افتقد منه العدل خلفه الجور واذا افتقد منه الصدق خلفه الكذب . فهذه الثلاثة جند المعرفة وهذه الثلاثة التى هن أضدادهن جند الهوى .

والطرطوشى فى كتاب (سراج الملوك) يسبق فلاسفة السياسة وفن الحكم فى أوروبا وهو واحد من عدد من علماء الاسلام الذين عملوا فى هذا المجال : كالغزالى فى التبر المسبوك والشيرازى فى المنهج المسلوك فى سياسة الملوك وابن طباطبا فى (الفخرى) وأبرز مفاهيم الطرطوشى أنه لا يفرق بين السياسة

والأخلاق بل يراهما شيئا واحدا متفقا ، وهذا المنهج الاسلامى يخالف منهج « ميكافللى » فى كتابه الأمير .

أما « الكندي » الفيلسوف فقد درس الصلة بين الموسيقى وتحريك النفس وما يناسب أحوالها وما يبعث السرور ، ودرس علاقة ذلك بالطب وأمكنه التوصل الى امكان معالجة المرضى بالموسيقى ، وذلك بضرب الأنغام المناسبة للمريض .

وعرف المقدسى بأنه أعظم جغرافى عرفته البشرية قاطبة على حد تعبير المستشرق « أشيرنجر » فقد طاف العالم كله ما عدا الأندلس والسند وركب المخاطر فى بحر الهند والبحر الأحمر والبحر الأبيض يقول : ما بقيت خزانة ملك الا وقد لزمتها ولا مذاهب قوم الا وقد عرفتها ولا أهل زهد الا وقد خالطتهم ولم يبق شيء مما يلحق المسافرين الا وقد أخذت منه نصيبا غير الكدية « التسول » وركوب الكبية ، وقد تفقهت وتزهدت وتعبدت وفقهت وأدبت وخطبت على المنابر ودعوت فى المحافل وتكلمت فى المجالس وأكلت مع الصوفية الهرائس ، ومع الخافقائيين الثرائد ، ومع النواتى « الملاحين » العصائد ، وطردت فى الليالى من المساجد ، وسحت فى البرارى وتهت فى الصحارى .

أما « الطبرى » فقد صور منهجه فى كتابة التاريخ فى مقدمة كتابه « تاريخ الرسل والملوك » فقال : ليعلم الناظر فى كتابنا أن اعتمادى فى كل ما أحضرت ذكره منه مما شرطت أنى راسمه فيه ، انما هو على ما رويت من الأخبار التى أنا ذاكرها فيه والآثار التى أنا مسندها الى رواتها دون ما أدرك بحجج العقول واستيقظ بفكر النفوس . وابن كثير « الذى تصدى للمرويات الاسرائيلية وفصل

القول فيها وهـو يرى أن القـرآن قصد الى الاجمـال فيجب الوقـوف عنـد ما قصـد اليه والـزمخشـرى فى (الكشـاف) يحـرر فكـره من الخضوع للأهواء ويعارض العلماء ذوى الأهواء الذين جمعوا عزائم الشرع ودونوها ثم رخصوا فيها للأمراء وهونوها وقـال : «انما حفـظوا وعقلوا وصفقـوا وحلقوا ليجمعـوا المـال ويسيـروا » . والخليـل بن أحمد واضع قواعد العروض ومناهجه ، وأبو الأسود الدؤلى واضـع منـاهج الفصحى وقـواعـد النحـو والجـاحظ واضـع منـاهـج النقـد الأدبى ، والشافعى واضع مناهج الاستنباط وأصول الفقه .

والأشعرى صاحب الحملة على الانحراف الى الفكر اليونانى وابن تيميـة صـاحب الحملة الى الـطرقيـات المنحـرفـة والغـزالى صاحب الحملة على مغالاة الفقهاء .

وابن دقيق العيـد الذى قـال : « النص » هو الامـام . والرأى هو المأمـوم والمذاهب تـرد اليه . ويقـول لا يصح أن يجعـل الرأى الذى فيها للنص أصلا فيرد النص اليه بالتكليف والتحايل .

الباب الثالث

الدولة العثمانية

تكشفت فى السنوات الاخيرة حقائق كثيرة كانت خافية وأذيعت أسرار كثيرة ظلت فى طى الكتمان أعواما بل وأجيالا . وقد كان لظهور هذه الحقائق والاسرار أثرها البعيد فى مجالات مختلفة وأمور كثيرة وكان أبرز هذه الوثائق (بروتوكولات صهيون) وكانت قد أصبحت كالمسلمات مما استدعى اعادة النظر فيها ومراجعتها من جديد . وكان أبرز هذه الامور ما اعترض تاريخ الاسلام الحديث من مواقف ارتبطت بالدولة العثمانية والصهيونية العالمية ومحاولة استيلاء اليهود على فلسطين ، ففى خلال هذه الفترة من حياة الدولة العثمانية كانت المطامع المتضاربة بين الدول الغربية من ناحية والصهيونية العالمية من ناحية اخرى قد عملت على حجب كثير من الحقائق وتزييف جانب آخر منها فى محاولة عاتية لتمزيق الوحدة الاسلامية وللادالة من الخلافة الاسلامية ولفتح الطريق للقوى الصهيونية الى فلسطين واقامة الحواجز الاقليمية العميقة بين أجزاء العالم الاسلامى وخاصة بين أقطار البلاد العربية وذلك حتى تتمكن هذه القوى الجديدة من الوثوب والسيطرة باعتبارها شريكا للاستعمار الغربى وبديلا عنه من خلال مطمع

عقائدى يرتبط بأرض الميعاد وبتاريخ قديم لليهود متصل بها ومن خلال هذه المحاولات الواسعة زيف تاريخ الاسلام الحديث ووضعت خطط وكلمات ومصطلحات أصبحت بمثابة المسلمات التى رددتها كتب المدارس وأبحاث الجامعات ومقالات الصحف على أنها التصور الحقيقى للامور وكلها تقول : بالسلطان الاحمر والاستعمار التركى والاستبداد العثمانى والصراع بين العرب والترك والقومية الطورانية . ومن هنا نشأ تصور ما زال مطروحا فى أغلب كتب التاريخ والادب العربى وخاصة فى المناهج المدرسية والجامعية قوامه :

١ ـ ان السلطان عبد الحميد كان رجلا مستبدا ظالما ، وانه كان يلقى خصومه بالعشرات فى الدردنيل وكانت له قوى ضخمة تشتغل بالجاسوسية وتصادر الحريات .

٢ ـ ان الدولة العثمانية كانت دولة مستعمرة سيطرت على البلاد العربية بالقوة وجنت اليها ثمراتها وتركت تلك البلاد فقيرة ضعيفة .

٣ ـ ان الاتحاديين فى الدولة العثمانية كانوا قوة تقدمية عصرية بينما كانت القوى الاخرى قوى رجعية متخلفة .

٤ ـ ان دعوة السلطان عبد الحميد الى الوحدة الاسلامية كان قد تجاوزها الزمن وفات أوانها وان الدعوات القومية كانت هى اسلوب العصر .

منذ أن عقد مؤتمر بال فى سويسرا عام ١٨٩٧ بزعامة الصحفى اليهودى هرتزل وبعد صدور كتاب الدولة اليهودية بقلمه

كان قد انفتح مجال جديد للعمل فى مواجهة العالم الاسلامى لشق الطريق الى فلسطين لاقامة وطن قومى لليهود بها من خلال مخطط القوى الاستعمارية التى كانت قد انطلقت منذ ١٧٩٩ الى مصر تحت اسم الحملة الفرنسية ثم الى الجزائر ١٨٣٠ ثم الى مصر مرة أخرى ١٨٨٢ والى تونس قبل ذلك بعام واحد ، وفى هذه المرحلة كان الصراع قويا بين الاستعمارين الفرنسى والانجليزى فى المنطقة التى تضم الدولة العثمانية التى كانت تمثل الوحدة العربية التركية - ولكى تكتمل الصورة فان هولندا كانت قد سبقت ذلك بوقت طويل بالاستيلاء على الملايو وجاوه وما يطلق عليه الان اسم اندونيسيا وكانت بريطانيا قد احتلت الهند وكانت أجزاء من الخليج قد سقطت فى أيدى أسبانيا والبرتغال ثم ورثتها بريطانيا وكان هذا كله جزء من مخطط الاستعمار الغربى الحديث الذى تكامل فى نهاية الحرب العالمية الاولى بايقاع الصراع بين العرب والترك فى المناطق العربية (الحجاز والشام والعراق) وحلول فرنسا وانجلترا بدلا من الدولة العثمانية فى هذه المناطق بعد معركة أدارتها انجلترا بقيادة لورنس الذى وصف فى يوم من الايام بأنه ملك العرب غير المتوج .

كان المخطط معدا لان تعطى فلسطين فى هذا المسرح الذى مثلت عليه هذه الرواية كلها للصهيونية العالمية . وأن استيلاء بريطانيا على فلسطين عام ١٩٤٨ كان تمهيدا لان تقع بما فيها بيت المقدس فى أيدى اليهود .

ومراجعة الاحداث تنبىء بهذا التخطيط الواسع البعيد المدى الذى بدأ منذ وقت باكر يسبق لقاء هرتزل للسلطان عبد الحميد .

وهـو فى حقيقته صـراع بين ارادتين . الارادة الاولى : هى ارادة السلطان عبد الحميد الـذى تولى الملك فى الـدولة العثمـانية عـام ١٨٦٨ والـذى قاد حـركـة كبـرى فى سبيـل الـوحـدة فى مـواجهـة الاستعمـار تحت اسم [١] الجامعـة الاسـلاميـة لتعمـل مـع جميـع مسلمي العـالم خارج نـطاق الدولـة العثمانيـة ولتوحـد كـل القـوى والمذاهب والاقطار .

ولا ريب كـانت هـذه الحـركـة مضـادة لارادة أخـرى كـانت تستهدف تمزيق الدولة العثمانية نفسها وليس لتمكينها من أن تجمع اليها أقطار المسلمين الاخرى التى فى خارجها ولذلك كان النضـال عميقا وكان الصـراع شديـدا فقد تكـاتفت القوى الغـربية كلهـا فى سبيل السيطرة على البلاد الاسلامية وتقسيم الامبراطـورية العثمـانية بعـد أن عمدت الى انهـاكها سنـوات عدة بـالحـروب والمؤ امـرات وحين باتت لقمة سائغة جـاء السلطان عبد الحميـد ليعقد الخنـاجر على مقاومة الاستعمار ولذلك كان لا بـد من ازاحته ، كـذلك فـان اليهودية العـالمية كـانت ترى أن الـدولة العثمـانية هى مـدخلها الى فلسـطين وكانت تعـد العدة منـذ وقت بعيد فى بؤ رة خـطيرة داخـل تركيا هى سالونيك التى كانت تتجمع فيها (الدونمة) أولئـك الذين دخلوا الاسـلام تقية من يهـودى اسبانيـا الذين هـاجروا بعـد خروج الحكم الاسلامى منها ، والذين كانوا قد أنشأوا المحافل الماسـونية لاعداد خطة الانقضاض على الدولـة العثمانيـة ، والذين استـطاعوا احتواء جماعة الاتحاد والتـرقى والتغلغل فيهـا والسيطرة عليهـا ومن ثم استـطاعوا بهـا اقصاء السلطان عبـد الحميد واسقـاط مشـروعـه

---

(١) للمؤلف

والقيام على الدولة لتمزيقها والقضاء عليها ولا عجب ففى ظل حكم الاتحاديين بعد اسقاط عبد الحميد منذ عام ١٩٠٩ الى ١٩١٨ هزمت الدولة فى الحرب العالمية وسلمت طرابلس الغرب الى ايطاليا وفتحت الطريق أمام اليهود الى فلسطين .

هذه المرحلة الدقيقة الخطيرة من تاريخ الاسلام فى العصر الحديث ما زالت تشوبها الشوائب وتحول قوى كثيرة دون الكشف عن حقائقها ، وما زالت الصورة التى رسمتها الصهيونية والاستعمار لها هى الصورة الرسمية القائمة فى كتب المدارس والجامعات بالرغم من الحقائق الكثيرة التى تكشفت والتى أزاحت الظلم عن وجه الرجل الكريم السلطان عبد الحميد وعن موقفه .

والحق أنه ليست هناك شخصية فى تاريخ الاسلام الحديث هوجمت بمثل ذلك العنف والتعسف الذى هوجم به السلطان عبد الحميد حتى كشفت الوثائق في السنوات الأخيرة ليس عن براءته بل عن بطولته ومن عجب أن أبرز النصوص التي أحقت الحق ، جاءت في مذكرات هرتزل التي نشرت باللغة العربية .

ولنعد الى حقيقة الصراع بين القوى الاسلامية بقيادة عبد الحميد وبين القوى الاستعمارية واليهودية لنعرف مدى ما حققه اسقاط عبد الحميد تمهيدا لالغاء الخلافة الاسلامية .

لكى نعرف حقيقة حركة الوحدة الاسلامية الجامعة التى قام بها عبد الحميد يجب أن نتصور بوضوح واقع الدولة العثمانية والعالم كله خلال النصف الاخير من القرن التاسع عشر وقد بلغت الدولة العثمانية أشد مراحل الضعف وقد تجمعت الدول الغربية

على وضع الخطط للقضاء عليها وتمزيقها واذلالها . وقد كانت روسيا وبريطانيا وألمانيا وفرنسا جميعا بالاضافة الى البابوية تشترك في رسم هذه الخطط وفي انتزاع الاجزاء الأوروبية من الدولة واسترجاعها والاستعداد لتقسيم الأجزاء العربية في الدولة وهي الشام والعراق والجزيرة العربية .

وكانت مخططات الصهيونية العالمية تركز تركيزا شديدا على الدولة العثمانية من أجل الوصول الى فلسطين وتحقيق حلمها فى اقامة هيكل سليمان . فلما ولى السلطان عبد الحميد الحكم خليفة للمسلمين وسلطانا للدولة العثمانية واجه الموقف على نحو يختلف عما واجهه به سلاطين آل عثمان الذين سبقوه وكانت مواجهته جادة حاسمة . كان احساسه بالتبعة كبيرا وكان ذكاؤه وسعة فكره والمامه بالتيارات المختلفة بالغا ، ومن هنا فقد جرى من الاحداث فى طريقها المرسوم شوطا ثم لم يلبث أن وضع خطته المحكمة التى رأى أنها الطريق الوحيد لمواجهة الغزو الاستعمارى الزاحف والذى كان قد تشكل داخل الدولة العثمانية فى مؤسستين خطيرتين .
احداهما : المحافل الماسونية فى سالونيك وتركيا الفتاة التى سميت بعد (الاتحاد والترقى) والتى ضمت مجموعة من المثقفين ثقافة غربية ومن أصحاب الولاء الفكرى الغربى وخاصة الفرنسى ومن الذين أغروا عن طريق المستشرقين وكتاب الغرب بأنه لا سبيل أمام الدولة العثمانية لكى تصل الى التحرر والقوة الا بالتماس مناهج الغرب التماسا كاملا وطرح فكرها واسلوبها ومنهجها الاسلامى القديم والتخلص منه الى غير رجعة ، غير أن هذه الجماعة لم تستطع أن تقف وحدها فالتمست العون من المحافل الماسونية ومن ثم احتوتها الحركة الصهيونية وسيطرت عليها

ووجهتها الوجهة التى ارتضتها فى القضاء على الدولة العثمانية وكان السلطان عبد الحميد قد حدد هدفه فى مواجهة النفوذ الغربى على هذا النحو : ان الوسيلة الاساسية لمواجهة النفوذ الاستعمارى هو تجمع المسلمين فى كل مكان تحت جناح الخلافة الاسلامية الذى تحمل لواءه الدولة العثمانية الجامعة فى كيانها بين العرب والترك ، ومن هنا فقد كان على السلطان العثمانى الذى هو خليفة المسلمين أن ينادى المسلمين فى جميع أنحاء الارض أن يقفوا معه فى صف واحد فى مواجهة النفوذ الغربى ومن هنا كانت صيحته المعروفة المشهورة التى هزت الغرب كله : « يا مسلمى العالم اتحدوا » .

ومن هنا بدأ الخطر الذى واجهته الدول الاوربية والاستعمار والبابوية والصهيونية العالمية فى عنف وأخذت فى التماس كل وسائل التآمر والغدر فى سبيل تحطيم الخطة والقضاء على القائم بها . ولكن السلطان عبد الحميد استطاع ان يصمد لذلك وقتا طويلا وانه كان قد بدأ هذه الحركة عام ١٨٧٩ على وجه التقريب فقد ظل يحمل هذا اللواء فى قوة فى مواجهة عواصف السياسة الاوربية ثلاثين عاما كاملة دون أن يتزلزل أو يضعف .

لم يكن السلطان عبد الحميد يملك من القوة العسكرية ما يستطيع أن يواجه به أوربا والغرب المتجمع باسم كلمة (لا اله الا الله) وتحت لواء الخلافة قوة عارمة خشيت بأسها أوربا وحسبت لها ألف حساب ، فقد كان المسلمون الموالون للسلطان تحت النفوذ الغربى فى عديد من الاقطار التى احتلتها بريطانيا وفرنسا وخاصة قارة الهند يمثلون قوة روحية ذات أهمية خطيرة . ولقد

مضى السلطان فى تنفيذ مخططه فى قوة وسرعة ، بحيث شملت الدعوة كل الافاق الاسلامية وذاعت فى كل مكان وحملت معها عملا ايجابيا نافعا قوامه المدارس والمنشئات فى كل صقع من البلاد الاسلامية وكان قد أنشأ مدرسة للدعاة الذين سرعان ما انبثوا فى كل أطراف العالم الاسلامى الى الهند والصين وجزائر المحيط ومصر وافريقيا وتركستان وأفغانستان وبلاد العرب وأطراف المملكة العثمانية ، كما عقد مع الامراء فى شتى هذه البقاع مراسلات وعقود وعمق روابط الود والاخاء الاسلامى فيما بينهم وبين دولة الخلافة حتى قيل انه لم يبق مسلم واحد لم يعرف طرفا عن هذه الدعوة . وقد جعل السلطان عبد الحميد أمامه أمرين هامين :

(الأول) أن يكون أهل بلاد العرب هم ساقة هذه الدعوة وحملة لوائها ومن هنا فقد اتخذ في كل قطر عربي « مشيراً » له فجمع حوله علماء وامراء من الجزائر والشام ومكة ومنهم أبناء الامير عبد القادر الجزائرى وغيره من أمراء المسلمين .

(الثانى) هو انهاء الخلاف الذى اججه الاستعمار بين السنة والشيعة أو بين الاتراك والفرس وقد استخدم لذلك علامة كبيرا هو السيد جمال الدين الافغانى وأجرى صلحا مع شاه فارس وصفى أمر الخلافات القديمة كلها .

ولم يتوقف عند هذه الحركة الفكرية وحدها انما جعلها واجهة لعمله الكبير الذى بدأه فى بناء القوة الحربية والعسكرية وتقوية جيوشه واساطيله فقد استخدم بعثة المانية ولم يلبث ان انشأ معاهد عسكرية دخلها عدد كبير من الشبان الممتازين من شباب العرب من العراق وسوريا ومصر . وقد مضت الخطة الى غايتها

المرجوة فاشتد عصب المسلمين بالترابط وتوحدت فكرتهم بالعمل الجامع ، وكان دعاة الفكرة الاسلامية ينشرون ثقافة جديدة قوامها مواجهة الاستعمار الغربى الزاحف والخطر الاوربى القيصرى الصهيونى جميعا ، وتركزت الامال حول السلطان عبد الحميد خليفة المسلمين وترابطت الدول الاسلامية وأهلها حول عاصمة الخلافة على نحو بلغ غاية القوة (فكانوا يذكرون اسمه فى خطب الجمعة ويدينون له بالولاء والطاعة الروحية وباسم خلافته على المسلمين كافة) وجعلهم من رعايا دول أوربا فى الهند وجزر الهند الشرقية وشمال افريقيا ، وكان السلطان على حد تعبير محمد رفعت باشا فى كتابه التوجيه السياسى للفكرة العربية « يفاوض الدول الكبرى ويساومها بل يهددها أحيانا ملوحا بسلاح الجهاد الدينى ، واستطاع السلطان أن يجمع تحت لواء الدعوة أبرز المسلمين فى مجال الفكر والسياسة وفى مقدمتهم : خير الدين التونسى وجمال الدين الافغانى وأبو الهدى الرفاعى الصيادى وأبناء الامير عبد القادر الجزائرى .

وأقام من العرب فرقة خاصة ضمها الى الحرس السلطانى وولى كثيرا منهم مناصب رئيسية فى الدولة وفى مقدمتهم أحمد عزت العابد . وكان من أكبر أعمال السلطان في هذا الصدد : انشاء سكة حديد الحجاز التى تربط بين دمشق والمدينة وكذلك فرعها الذى يربط بين الحجاز وبغداد وقد وجد هذا العمل تقديرا بالغا من المسلمين في كل مكان وتبرعوا له بأكثر من ثلاثة ملايين من الجنيهات الذهبية ، فكان من أخطر المشروعات التى عجلت بالقضاء على السلطان فقد كان منذرا للغرب بتغيير اسلامى كبير . وقد استهدف فى الاغلب القضاء على دسائس الانجليز ومؤامراتهم

فى البحر الاحمر والجزيرة العربية وكان من أخطر مواقف الحركة الاسلامية الواحدة التي دعا اليها وحمل لواءها عبد الحميد : هو معارضة أهداف الحركة الصهيونية فى السيطرة على فلسطين ومواجهتها .

ومن هنا انطلقت الصحافة الاوربية وتابعتها الصحافة العربية التى ظهرت فى مصر والتى قاد حركتها خريجو الارساليات التبشيرية ، من امثال : سليم سركيس وفارس نمر ويعقوب صروف وفرح انطون وغيرهم الذين حملوا لواء التشهير باللواء ومعارضته واشاعة الاتهامات المختلفة حول شخصيته وتصويره بتلك الصورة الرديئة لحساب الصهيونية العالمية التى انطلقت لاشاعة روح الكراهية والانتقاص للرجل بعد موقفه الحاسم الكريم من مطالبهم وكان أعظم ما تركز عليه هذه الحملة اثارة عوامل الفتنة بين قيادة الحركة الاسلامية وبين العناصر المختلفة في الدولة العثمانية وخارجها .

وكان أقوى من هاجم حركة السلطان عبد الحميد فى مصر اللورد كرومر الذى حمل على فكرة الجامعة الاسلامية حملة ضارية ودعا الدول الاوربية فى تحريض سافر الى التجمع للوقوف فى وجه هذه الدعوة وكذلك هاجمها هانوتو الفرنسي واللورد غراى ووصفوها بأنها بؤرة التعصب الدينى وانه ليس القصد منها الا تحدى قوات الدول الغربية المسيحية . وقد حملت جريدة المقطم فى مصر لواء معارضة هذه الدعوة .

ولقد شهد كثيرون بأصالة هذه الحركة وقوتها واثرها ، يقول الدكتور توفيق برو : انها كانت كرد فعل للحركة الاستعمارية

الاوربية الطاغية وان قادتها كانوا من الدعاة المبرزين وقد أذكى نار هذا الشعور ائمة من افاضل العلماء أمثال جمال الدين ومحمد عبده ومصطفى الغلاييني ورشيد رضا الذين قاموا باستغلال هذا الشعور فى سبيل سيطرة السلطان فى الداخل وتقرير مكانة الدولة فى الخارج .

وبعد فلقد كان السلطان عبد الحميد سياسيا قديرا وقرما من أقرام السياسة الدولية ولولا ذلك ما استطاع أن يصمد فى وجه هذه الرياح العاتية وكان قادرا على التعرف على مختلف التيارات والمؤامرات وكان يفهم أبعاد الخطر الداخلى الذى يؤججه الاستعمار والصهيونية عن طريق حزب تركيا الفتاة وكيف تسيطر عليهم الماسونية العالمية وتوجههم لصالحها كما كان يعرف نقاط الضعف فى الدول الغربية وأوجه الخلاف بين بعضها البعض فيستغلها ويستفيد منها . ولست أستطيع أن أصور هذا المعنى بأعظم مما صور به جمال الدين الأفغاني : الذى التقى بالسلطان ساعات ومرات وتدارس معه شئون العالم الاسلامى ومخاطر السياسة الاوربية ومخططاتها . وذلك بعد أن قدم الى الاستانة قال : رأيته يعلم دقائق الامور السياسية ومرامى الدول الغربية وهو معد لكل هوة تطرأ على الملك مخرجا وسلما وأعظم ما أدهشنى ما أعده من خفى الوسائل وأمضى العوامل كى لا تتفق أوربا على عمل خطير فى الممالك العثمانية ويريها عيانا محسوسا ، ان تجزئة السلطنة العثمانية لا يمكن الا بخراب يعم الامم الاوربية بأسرها . وقال : ان ما رأيته من يقظة السلطان وشدة حذره واعداده العدة اللازمة لابطال مكايد أوربا وحسن نواياه واستعداده للنهوض بالدولة قد دفعني الى مد يدي له فبايعته بالخلافة والملك . ا . هـ .

ولقــد أكـد كثيــر من المؤرخين والبـاحثين فى انصــاف ان السلطان عبد الحميد كان آخر الحصون التى دافع بهـا الاسلام عن وجــوده العـالمى وبعــد انهيـاره تمت مؤامــرات الغـرب وربيبتــه الصهيـونيـة . ومن الحق أن يقـال أن الحـركـة التى حمـل لـواءهـا السلطان عبـد الحميـد فى تجميـع المسلمين تحت لـواء الخـلافـة كانت اتجاها طبيعيا وأملا يملأ كـل النفوس ، ولـذلك فقـد حققت نجـاحا كبيـراً ، ازعج الاستعمـار والصهيونيـة ازعاجـا شديـدا ممـا استـدعى العمل من جـانبهم لاجهاضـه والقضاء على حـامـل لـواء الدعوة أصلا كوسيلة للقضاء عليها وتدميرها .

فى هذا الضوء يتمثـل العمل الـذى قامت بـه الصهيونيـة من جانبين :

(أولا) من جانب الدونمة داخل الدولة العثمانية وخـاصة فى محاصرة السلطان والتآمر عليه .

(ثانيا) من ناحية الصهيونية العالمية فى التفاهم مع السلطان عبـد الحميد واليـأس منـه واصـدار القـرار الحـاسم بـالعمـل على اسقاطه .

(أولا) الدونمة : هى القـوة اليهوديـة الكامنـة داخل الـدولة العثمانية التى اختارت مدينة سالـونيك ودخلت الاسـلام بعد تـاريخ طويل معروف ، وهى التى أنشأت المحـافل المـاسونيـة فى الدولـة العثمـانية لهـذه الغايـة واتصلت بجماعـة الاتحاد والتـرقى (وحزب تركيا العتـاة) وأفسحت له فى محـافلها الفـرصة للعمـل ، وتلاقت الـرغبات على التخلص من الـوجه الاسـلامى لتركيـا ومن السلطان

عبد الحميد وكان ذلك قد بدأ يأخذ طريقه بقوة منذ أعلن السلطان عبد الحميد دعوته الى المسلمين . وكانت قوى كثيرة تشارك اليهودية العالمية فى هذا الاتجاه وقد كان السلطان عبد الحميد يعرف هذه القوى التى يواجهها فى الداخل ويعرف المؤامرة التى تدبر لفكرته وله وكان يعرف أبعاد المخطط كله : فئة المثقفين الغربيين الذين سيطرت عليهم أفكار الثورة الفرنسية ربيبة المحافل الماسونية من ناحية وحركة الارساليات الاجنبية فى لبنان وثمارها المنبثة فى مصر وسوريا والبلاد الاسلامية تحمل أحقادها على الاسلام والوحدة الاسلامية والمحافل الماسونية فى سالونيك . واذا كان السلطان قد عارض مدحت وحزب تركيا الفتاة فقد كان عالما بأنهم واقعون تحت نفوذ الماسونية العالمية أداة الصهيونية العالمية فى ذلك الوقت وان موقفه دون تمكين اليهود من فلسطين قد حرض كل هذه القوى وأمدها باشارة الانقضاض . ان تصريحات كثيرة للسلطان عبد الحميد تكشف انه كان عالما بأهداف الصهيونية فى هذا الوقت المبكر ، ولذلك فقد كان وقوفه فى وجه الاتحادين وتركيا الفتاة وعمله على تحطيم مخططاتهم ليس نابعا من كراهية لنهضة الدولة العثمانية ولكنه كان عمقا فى النظرة الى الاهداف البعيدة لتدمير هذه القوة التى كانت تحمى آمال المسلمين داخل الدولة وخارجها .

ولقد صدقت نظرة السلطان عبد الحميد على الاتحاديين بعد أن دخلوا التجربة فعلا وسيطروا على الحكم من **١٩٠٩** الى **١٩١٨** وما قاموا به من تسليم كامل للدولة وتبعية كاملة لمخططات الاستعمار والصهيونية مما كشف اصالة عبد الحميد وبعد نظره وجلال موقفه الحاسم فى وجه النفوذ الاستعماري نفسه بالدعوة الى

الوحدة الاسلامية وفى نفس الوقت بمقاومة هذه التبعية التى كانت تحمل مظهرا براقا هو الاصلاح على طريقة الغرب بينما كانت تحمل فى أعماقها ايمانا بالفناء فى الغرب كله ، ولقد خدع المسلمون والعرب بالاتحاديين وأقاموا الافراح وسرعان ما اكتشفوا انهم سلموا أنفسهم الى فك الاسد وانيابه . ان مقدرة عبد الحميد على فهم ما يحيط به كانت أكبر مما يظن كثيرون ولكنه كان فى موقف لا يستطيع معه ان يكاشف المسلمين بالاخطار التى تحيط به .

قد كان اليهود يرون فى السلطنة العثمانية شبحا مخيفا خطرا على مستقبلهم كما يقول الدكتور محمد علي الزغبى فى كتابه الماسونية فى العراء ، وكانت الدونمة بكل مؤسساتها وتداخلاتها أداة التنفيذ فى الوقت المناسب .

(ثانيا) بعد أن عقد مؤتمر بال ١٨٩٧ وكانت حركة الوحدة الاسلامية قد استحصدت ، كانت وجهة نظر اليهود هى اقتحام فلسطين ولذلك فقد تركزت الخطط حول الدولة العثمانية وحول السلطان عبد الحميد فى محاولة لاحتوائه ظنا منه أنه فى ظرف من الضعف وفي حالة من الاستدانة تجعله يخضع للاغراء، اغراء اليهود بالذهب وهم من قبل أصحاب العجل الذهبى وبدأت المحاولات منذ ذلك الوقت واتخذت وسائط كثيرة ووسائل متعددة منها وساطة الامبراطور غليوم ولقاء اليهود الثلاثة (مزراحى قراصو ـ جال ـ ليون) ولقاء هرتزل ومعه موشى ليوى حاخام اليهود فى الدولة العثمانية ولقاء السفير اليهودى غوش وهى سابقة على مقابلة اليهود الثلاثة ثم لقاء هرتزل للسلطان ولرجال قصره .

وقد عرض من خلال هذه المقابلات مشروع يرمى الى تقديم قرض للدولة العثمانية يبلغ خمسون مليونا من الجنيهات الذهبية ـ مليون جنيه لخزانة السلطان الخاصة . بناء أسطول كامل للدفاع عن أراضى الدولة العلية .

وذلك فى مقابل السماح لليهود بانشاء مستعمرة صغيرة لهم قرب القدس ينزل بها أبناء جلدتهم .

وحتى لا نطيل والتفاصيل كلها موجودة والمراجع ثابتة : ننوه بالرد النهائى للسلطان عبد الحميد : بلغوا الدكتور هرتزل الا يبذل بعد اليوم شيئا عن المحاولة فى هذا الامر (التوطن بفلسطين) فانى لست مستعدا أن أتخلى عن شبر واحد من هذه البلاد لتذهب الى الغير فالبلاد ليست ملكى بل هى ملك شعبى روى ترابها بدمائه . فليحتفظ اليهود بملايينهم من الذهب فان الدولة العلية لا يمكن أن تختبىء وراء حصون بنيت بأموال أعداء الاسلام .

لست مستعدا لان أتحمل فى التاريخ وصمة بيع بيت المقدس لليهود وخيانة الامانة التى كلفنى المسلمون بحمايتها .

ان ديون الدولة ليست عارا لان غيرها من الدول الاخرى مدين مثل فرنسا . ان بيت المقدس قد افتتحه المسلمون اول مرة بخلافة سيدنا عمر بن الخطاب رضى الله عنه ولست مستعدا أن أتحمل فى التاريخ وصمة بيعها لليهود وخيانة الامانة وقد أورد هرتزل فى مذكراته التى طبعت بالالمانية فى تل أبيب عام **١٩٢٤** قصة هذه المحاولات وقال بعد فشل المحاولة الاخيرة : ان السلطان عبد الحميد الشريف الفذ الذى أخفى عن المسلمين

والعرب منذ عام ١٩٠٩ حتى سنوات قريبة عندما ترجمت مذكرات هرتزل وكان أول من أشار الى هذا النص الاستاذ أحمد الشقيرى فى دروسه فى معهد الدراسات العربية بالقاهرة منذ عشر سنوات وقد ظل المسلمون والعرب خلال فترة لا تقل عن خمسين عاما يرمون الرجل عن قوس واحدة لان الاستعمار والصهيونية والصحف العربية التى أصدرها تلاميذ مدارس الارساليات وخاصة فى مصر (المقطم ، الاهرام ، الهلال ، المقتطف ، مجلة سركيس) وعشرات من هذه الصحف كانت تصف عبد الحميد بالسلطان الاحمر المستبد . وقد انتقلت هذه العبارات من الصحف الى كتب التاريخ وكتب تاريخ الادب العربى ، وما من كتاب أرخ هذه الفترة الا احتوى على هذه العبارات التى أصبحت مسلمات بالاضافة الى تعبير آخر سنعود له من بعد وهو « الاستعمار التركي العثماني» .

كانت هذه العبارات النارية التى وجهها السلطان عبد الحميد الى هرتزل عام ١٩٠٢ ايذانا بتلك الحملة العاتية على السلطان بعد أن تقرر ازاحته وكانت هذه الحملات التى وجهت اليه تمهيدا واعدادا للرأى العام لهذا الغرض . ولقد جرت منذ ذلك الوقت محاولات لاغتياله واسقاطه حتى وقع ذلك عام ١٩٠٨ بالانقلاب الذى قام به الاتحاديون بالاشتراك مع الماسونية ممثلة فى الدونمة .

ولا تزال عبارات عبد الحميد نبراسا مضيئا وتاجا لامعا وشرفا ما بعده شرف ، يتوج جبينه فى تاريخه المعاصر ، وعند ربه ، ويتردد عنه ومن حوله كل الاشاعات والشبهات والاضاليل . وقد تبين من بعد فى وثائق كثيرة وانكشف الستار عن مؤامرة قلب

الدولة العثمانية وانزال عبد الحميد بالذات كخطوة أولى لتنفيذ هذه الجريمة البشعة . والمؤامرة العالمية لتحطيم الوحدة الجذرية والرابطة العضوية القائمة بين العروبة والاسلام ولقد تحقق فعلا لليهود وللاستعمار باسقاط عبد الحميد كل ما كانوا يرجونه ولم تلبث الهجرة الى فلسطين أن بدأت سافرة منذ ذلك الحين وتحقق ذلك الامل الذى استعصى سنوات وسنوات ، وكان ذلك مقدمة لا شك فيها للقضاء على الخلافة الاسلامية .

ولقد كان ضروريا للباحث المتمهل المنصف أن يقف دائماً من تاريخ الدولة العثمانية فى العصر الاخير موقف العدل والصدق وأن يفرق بين عهدين : عهد السلطان عبد الحميد الذى انتهى عام ١٩٠٨ تقريبا وعهد حكم الاتحاديين الذى بدأ منذ ذلك الوقت وظل مستمرا حتى أسلم أمره الى الكماليين بعد الحرب العالمية الاولى . فهذه التفرقة واضحة وضرورية خاصة بالنسبة لنا فى المشرق : ذلك أن سوريا ولبنان والعراق قبل ذلك تعيش فى هذا الاتجاه المعارض للخلافة والسلطان بينما كانت مصر التى سقطت عنها ولاية الدولة العثمانية وسيطر عليها الاستعمار البريطانى منذ ١٨٨٢ تؤيد الخلافة والسلطان ولقد كان لموقف حكومة الاتحاد التركى من اهل سوريا ولبنان ومحاكمة رجالهم وتعليقهم على المشانق عام ١٩١٦ أثرا نفسيا بعيدا فى نظرتهم الكلية الى الدولة العثمانية والحقيقة انها يجب أن تكون قاصرة على الاتحاديين وحدهم .

ومن هنا وجب التفريق بين مرحلة السلطان عبد الحميد التى انتهت عام ١٩٠٨ وهى فترة كان موقف الدولة العثمانية فيها بالنسبة

للعرب والمسلمين موقفا كريما ، وكانت الحركة الاسلامية الواحدة من أعظم الاعمال ، أما الفترة التالية التى حكم فيها الذين اسقطوا السلطان فانها تمثل أسود صفحات الحكم التركى ولاءا للصهيونية والاستعمار وضربا للوحدة الاسلامية واعلاء للحركة الطورانية ، ومحاولة لتتريك العرب فى سوريا وتعليق زعمائهم على المشانق ، هذه الفترة وحدها هى التى يقف فيها العرب من سوريا موقف الخصومة للترك وهى ليست من حساب الدولة الاسلامية العثمانية فى الحقيقة .

كذلك نجد أنه من الضرورى أن نصحح عبارة « الاستعمار التركى » أو العثمانى . والواقع أن كلمة استعمار كلمة مستحدثة مرتبطة الى حد كبير بدول مسيطرة بقوة الحديد والنار تأخذ ثروات الامم بأبخس الاثمان لتجعلها مواداً خاما لمصانعها ثم تعيد الى هذه الامم منتوجاتها لتبيعها بأعلى الاسعار ، وهذا النظام الاستعمارى لم يكن موجودا فى هذه الفترة ولم تكن الدولة العثمانية بهذا المعنى دولة مستعمرة ، كذلك فان الاجزاء العربية التى انضمت الى الدولة العثمانية لم تكن قد انضمت باحتلال وقسر ولكنها كانت برضاء ودعوة ، فقد وجد العرب أنفسهم بعد ضعف المماليك فى حاجة الى الالتقاء تحت اسم الاسلام مع هذه الدولة الكبرى رغبة فى الوحدة ومحافظة على النفس . وبعد أن تعرضت سوريا ومصر لمحاولات غزو صليبى متجدد من الغرب ، والمعروف أن العرب فى مصر وسوريا قد رحبوا بالوحدة الاسلامية العثمانية ولم يعارضوها حيث وجدوا فى العثمانيين اخوانهم فى العقيدة والدين منتعشا جديدا للاسلام . وقد أكد المؤرخون والباحثون أن هذا الالتقاء بالعرب والترك فى ظل الدولة العثمانية قد

حمى العالم الاسلامى أكثر من أربعمائة عام من الغزو الصليبى الذى لم يلبث أن جاء بعد ضعف الدولة العثمانية .

والواقع أن الدعوة الى الوحدة الاسلامية لم يتجاوزها الزمن ولقد تبين للمسلمين اليوم بعد سنوات طويلة من الدعوات الاقليمية والقومية ان الوحدة الاسلامية هى الاصل الاصيل والوجهة الصحيحة وكل الدلائل تؤكد الان ان المسلمين سائرون الى طريق الوحدة الذى حطمته اليهودية والاستعمار باسقاط عبد الحميد والغاء الخلافة .

حاشية :

عندما عقد الملتقى الاسلامى الثامن فى ولاية بجايه من جمهورية الجزائر عام ١٩٧٤ وأثار كعادته فى كل عام عددا من القضايا والمعضلات التى تواجه الفكر الاسلامى فى العصر الحديث وقد اشترك فى الملتقى عدد كبير من الباحثين والعلماء من مختلف أنحاء العالم الاسلامى كما شارك فيه ممثلون للمسلمين فى الهند واليابان كانت أبرز القضايا التى تناولها البحث :

ـ وضع الاقليات والجاليات عموماً والاسلامية خصوصاً في كثير من بلدان القارات الخمس وواجب العلماء والمفكرين ورجال الاعلام نحوها .

وقد أشارت الدكتورة ليلى الصباغ من أساتذة التاريخ بجامعة دمشق الى الدولة العثمانية اشارة ظالمة حين قالت : انها أسلمت البلاد العربية لقمة سائغة للاستعمار الغربى . وقد تصدى لها عدد من الباحثين الجزائريين وعرضوا لوجهة نظرهم ازاء الدولة العثمانية

والـدور الكبير الـذى قامت بـه ازاء حمايـة المغـرب كله من الغـزو الأوروبي وتوالت المطالبة بمعرفة دور المشرق وقد تصدى كاتب هذه السطور لذلك فقال :

رغبة فى تغطيـة قضية الـدولة العثمـانية بـوجهة نـظر المشرق والعرب ومصر بالاضافة الى وجهة النظر المغربية الجزائرية فى هذه المسألة نقول : لقد تـأثرنـا فى مصر والمشـرق فى كتبنا المـدرسية وابحاثنا التاريخية بوجهة النظر الغربية تجاه الدولة العثمـانية ، وهى وجهة خاصة للغربيين ، نتيجة التوسع التركى عرفتها منـاطق البلقان وغيرها فى القرن التاسع عشر ، وقد نقل الاستعمـار البريـطانى فى مصر ، والفرنسى فى سوريا ، وجهـة النظر هـذه الى كتب التاريـخ التى تدرس فى مدارسنا وجامعـاتنا ، كمـا تأثـر بها بعض مؤ رخينـا متابعة للنظرة الغربية ، أو تحت تأثير الدعوات الاقليمية كالفرعـونية الفينيقية وغيرهـا غير ان هـذه النظرة تعمقت من بعـد وبلغت أقصى غاياتها فى تجاوز الحقيقة ، على أثر ظهـور الصحافـة العربيـة التى حررها وأخرجها اللبنانيون المارون ، خريجو معاهـد الارساليـات ، وأصحاب العداء الواضح للدولة العثمانية .

وزاد هذه النظرة عنفا وتعصبا : تلك المحـاولة الخـطيرة التى طرحتها الصهيونية العالمية بعد عام ١٩٠٢ لتشويه شخصية السلطان عبـد الحميد ورميـه بالاتهـامات كـأمثال السلطان الاحمـر والمستبد العثمـانى وغيره ، وكلهـا كانت محـاولات أريد بهـا تهيئـة الأذهـان للقضـاء عليه وانتـزاعه من مكـانه ، وقـد عاونت المقـطم والاهـرام والهلال والمقتطف وكلها كانت لبنانية الاصل فى هذه الحملة وكان ذلك على أثر الموقف الحاسم الذى وقفه السلطان عبـد الحميد من

المحاولات المتصلة التى جرت خلال الاعوام السابقة لعام ١٩٠٢ والذى أرسل فيه السلطان خطابه التاريخى الى الصحفى اليهودى ثيودور هرتزل صاحب كتاب الدولة اليهودية ومؤسس الصهيونية الحديثة وقد جاء فى هذا الخطاب بالنص :

قولوا للدكتور هرتزل لا يتصل بى مرة أخرى ، ان بلادى تفضل أن تظل مدينة على أن تسدد ديونها من ذهب اليهود ، ان فلسطين هى بلاد العرب ولا أستطيع أن أفرط فى شبر منها . وكان الدكتور هرتزل قد عرض على السلطان خمسين مليونا من الجنيهات الذهب لخزانة الدولة وخمسة ملايين من الجنيهات الذهب لخزانة السلطان الخاصة الى مشاريع أخرى كثيرة لدعم الدولة العثمانية اقتصاديا .

وقد سجل هرتزل فى مذكراته كيف حاول اغراء ذلك الرجل الكريم أشد اغراء ثم كشفت وثائق التاريخ من بعد كيف جرت المحاولات لقتله ثم اسقاطه وقد أغرى أشد اغراء وهدد أشد تهديد ولكنه صمد صمودا مشرفا وظل موقفه هذا محجوبا عن الصحافة وعن المدارس والجامعات وكتب التاريخ سنوات طويلة حتى ترجمت مذكرات هرتزل فى السنوات الاخيرة ، وظل اسم السلطان عبد الحميد يذكر فى كتبنا المدرسية مشفوعا بأبشع الاتهامات حتى أحق الله الحق وكشف ذلك الزيف الذي حاول به الاستعمار وحاولت الصهيونية إيقاع الفرقة والخلاف بين العرب في مصر والشام وبين الدولة العثمانية .

وللحقيقة فاننا يجب أن نفرق بين عهدين فى تاريخ علاقتنا بالدولة العثمانية : فترة السلطان عبد الحميد التى تنتهى عام ١٩٠٨

باستيلاء الاتحاديين تلاميذ حزب الاتحاد والترقى واتابع الماسونية وربائب الدونمة وبين الفترة التالية التى استمرت حتى عام ١٩١٨ وهى الفترة التى تمثل أسود صفحات العلاقة بين العرب والترك ، وهى ليست من حساب الحكم التركى الاسلامى ولكنها مرحلة متقدمة لخدمة الصهيونية العالمية ونصرها وتشكيل أول محاولة لضرب الوحدة الاسلامية العربية ، باعلاء الدعوة الطورانية ، ومحاولة تتريك العرب فى سوريا وتعليقهم على المشانق ، هذه الفترة وحدها هى التى يقف منها العرب فى سوريا موقف الخصومة للترك وهى ليست من حساب الدولة الاسلامية العثمانية فى الحقيقة .

كذلك فان النظرة الى الدولة العثمانية عام ١٩١٦ عندما انضمت الاجزاء العربية فى العراق وسوريا ومصر اليها ، فانها فى التحليل التاريخى الدقيق ليست سوى التقاء بين عنصرين مسلمين . وقد وجدت من جانب العرب تقبلا صادقا فهى ليست فى حقيقتها الا محاولة طبيعية من محاولات الالتقاء والتكامل بين أجزاء العالم الاسلامى فى مواجهة الاخطار وقد جاءت هذه الوحدة الاسلامية بين العرب والترك على أثر ضعف قوى المماليك وتعرض الاجزاء العربية وخاصة الشام ومصر لتجدد الغزو الصليبى . والمعروف أن العرب فى مصر وسوريا قد رحبوا بالوحدة الاسلامية العثمانية ولم يعارضوها ، حيث وجدوا فى العثمانيين اخوانهم فى العقيدة والدين منتعشا جديدا للاسلام وقوة شابة بدوية مقاتلة رفعت راية الاسلام خفاقة عالية . وقد أكد الباحثون أن هذا اللقاء بين العرب والاتراك قد حمى العالم الاسلامى أكثر من أربعمائة عام من الغزو الصليبى للمرة التالية .

ومن الحق أن يقال أن العثمانيين قد قاموا فى هذه المرحلة الاولى بالاخذ بمفاهيم الاسلام فى نطاق الحكم وتحركوا من خلال اطاره . ويشهد المؤرخون غير المتعصبين على الاسلام أو الناقمين على الدولة العثمانية بأن العثمانيين قد اقتفوا أثر الخلفاء الأولين في العدل والتسامح وتمثلوا أعمالهم واتخذوهم قدوة وعملوا على جمع القلوب اليهم بتقدير العلماء وانشاء المساجد والمدارس ومن هنا فقد جرت محاولات البحوث الاستعمارية على وصف العلاقة بين العرب والترك بأنها نوع من الاستعمار وهى ليست كذلك فى الحقيقة وانما هذا من النظريات المدخولة التى يحاول الغزو الفكرى والتبشير اذاعتها لاقرارها فى الاذهان .

ولقد مرت الدولة العثمانية ككل كائن حى بمرحلة القوة ثم بمرحلة الضعف ، ولكن السلطان عبد الحميد كان يعرف أساليب الاستعمار ويواجهها فى دهاء وبراعة وقد شهد جمال الدين الأفغاني حين التقى به بأن عبد الحميد يدبر لأوروبا في مواجهة كل محاولة ردا وفى مقابل كل مؤامرة أمرا . كل مؤامرة امرا .

لم يكن الخلاف اذن بين العرب والترك ولكنه كان بين العرب والاتحاديين دعاة الطورانية فلنفرق دائما بين هذه المراحل ولنعرف أنه قد نشأ فى مصر والبلاد العربية الان تيار قوى لتصحيح هذه الاخطاء على ضوء ما كشفته الوثائق من بروتوكولات صهيون أو ما نشر عن مؤامرات الماسونية على النحو الذى يعيد الحقائق الى نصابها فى طريق وحدة الفكر الاسلامى المتجه الى وحدة الفكر الاسلامى كمقدمة للوحدة الاسلامية التى هى أمل المسلمين فى مشارق الارض ومغاربها .

الباب الرابع

السلطان عبد الحميد

صفحة ناصعة من الجهاد والايمان والتصميم الصهيونية لمواجهة الاستعمار

ما نحسب أن شخصية في التاريخ الاسلامي المعاصر لقيت من الغبن والظلم والاعنات ما لقيت شخصية السلطان عبد الحميد الثانى ، ولكن هذه السحابة ما لبثت أن انجابت بعد سنوات طوال ، وتكشفت حقيقة هذا الرجل واستعلىٰ موقفه الصامد ، وجهاده الباسل ومقاومته العنيدة للمؤامرة الضخمة التى حاولت أن تستغله وتخدعه أو تغريه ، ولكنه رفض الوعد والاغراء ، وتحمل الوعيد والتآمر صابرا صامدا طوال حياته وسنوات طويلة بعد موته .

وقد ظل الغموض يحيط بموقف السلطان عبد الحميد أكثر من خمسين عاما ، ثم لم يلبث أن تكشف قليلا قليلا ، لقد تولى السلطان ١٨٧٦ ، وخلع ١٩٠٩ وتوفى ١٩١٨ .

وكانت حملات الصحف المارونية قد بدأت منذ تبين صلابة موقف الرجل ، وقد استمرت هذه الحملات حتى دخلت الى كتب

الأدب والتاريخ المقررة على المدارس فى أغلب البلاد العربية وظلت هذه الكتابات تلح على تصوير السلطان عبد الحميد بصورة الطاغية . . المتسلط فترة تزيد على خمسين عاما ، ثم بدأ ينكشف موقف السلطان جزئيا بعد ترجمة بروتوكولات حكماء صهيون التى كشفت مخطط المؤامرة على الدولة العثمانية والخلافة ، ثم تكشفت بصورة أوسع بعد ترجمة مذكرات هرتزل الذى روى بإفاضة وتوسع قصة الوساطة بينه وبين السلطان وعروضه ورد السلطان عليه .

رجل أريب :

ومن أهم ما يكشف عنه تاريخ السلطان عبد الحميد هو ذلك الفهم الوافر العميق للمؤامرة اليهودية الصهيونية ، الممتدة من الماسونية الى الدونمة الى جماعة الاتحاد والترقى بكل أبعادها وأهدافها ، هذه التى كانت خافية على ظاهر المواقف السياسية فى البلاد العربية الاسلامية فى ذلك الوقت ، وكانت غامضة على الرأى العام فى وقتها ، بينما كانت واضحة مفهومة لدى السلطان .

وكانت تصرفاته استجابة لهذه الخفايا التى كانت تدبر ، ولم تكن مكشوفة الا للقلة ، وكل ما نسب الى السلطان عبد الحميد من اتهام بالرجعية أو الجمود أو العنف ، ازاء الاتحاديين أو الدستور أو الحريات ، انما كان ينطلق من فهمه لأبعاد المؤامرة التى كان يدبرها الاتحاديون الأتراك مع اليهود الدونمة والقوى الخارجية ، لاسقاط الدولة العثمانية وعزل السلطان عبد الحميد ، وافساح المجال أمام تحقيق مؤامراتهم ، بعد أن تبين لهم رفضه الصريح للعروض اليهودية التى قدمها له هرتزل وعدد آخر من

اليهود ـ على ما فيها من اغراء ـ مادى لدولة مدينة فى ذلك الوقت ، وقد ظلت هذه الحقائق غامضة ، حتى تكشفت من بعد أسرار الماسونية ومخطط الصهيونية .

دهاء السلطان عوض عن ضعف الدولة :

ولعل أبرز ما تميز به السلطان عبد الحميد الذى حكم من (١٨٧٦ الى ١٩٠٩) هو تلك البراعة والذكاء الخارقين . حتى وصفه أعداؤه قبل أنصاره بأنه أعظم داهية فى عصره .

ويمكن القول أن هذا الرجل حين رأى الدولة العثمانية وقد فقدت التفوق فى القوة العسكرية التى يمكن بها أن تقهر أعداءها فقد فتح اللّه تبارك وتعالى له بابا من التعويض عن طريق ذلك الدهاء القوى ، فاستطاع خلال هذه الفترة الطويلة من حكمه والتى بدأت فيها تلك المؤامرة الخطيرة ، أن يواجه الأمر بحكمة أزعجت خصومه وأعجزتهم .

والمعروف أنه فى عام ١٨٩٧ اجتمع مؤتمر بال وقرر اختيار فلسطين لاقامة الوطن القومى اليهودى ، وتحدد أمر الاتصال بالسلطان والدولة العثمانية ، ومن ثم بدأت المعركة الخفية بين السلطان واليهود ، وخاصة بعد أن تبين لهم اصراره على عدم التسليم لهم بأي مطمع في فلسطين .

وكان السلطان عبد الحميد قبل ذلك قد أمضى عزيمته فى الدعوة الى الجامعة الاسلامية ، وتجميع المسلمين من خارج الدولة العثمانية تحت لواء الخلافة ، لمواجهة خطر النفوذ الاستعمارى الزاحف على العالم الاسلامى .

ولقد لقيت صيحته استجابة فى خارج الدولة العثمانية ـ بوصفه زعيما للعالم الاسلامى كله وليس للدولة العثمانية وحدها ـ والتف حوله العرب والمسلمون والفرس والترك ، لتعضيد الخلافة وللزود عنها دون قيد أو شرط .

وكان من أخطر هذه الانجازات تصفية موقف الخلاف بين تركيا وفارس وبين السنة والشيعة ، ومن كلماته فى هذا الصدد : أن السم القديم يجب ألا يسرى فى جسد آسيا القوى وعلى السنيين والشيعة أن يتحدوا لمقاومة أوروبا في محاولتها قهر العالم .

***

المؤرخون ورأيهم :

ويرى المؤرخون أن عبد الحميد لما تولى الخلافة سنة ١٨٧٦ ، وجد أن سلاح الدهاء السياسى هو السلاح الوحيد الذى يستطيع به أن يواجه مؤامرات الغرب (الاستعمار والصهيونية وروسيا القيصرية) التى كانت منذ سنوات طوال تحيك المؤامرات للقضاء على الدولة العثمانية ، برصفها ممثلة للوحدة الاسلامية القائمة بين العرب والترك ، ومن ثم أخذ يوسع دائرة هذه الوحدة لتشمل مسلمى العالم كله ، ومن ذلك كانت صيحته « يا مسلمى العالم اتحدوا » ازاء الغزو الاستعمارى .

فقد أخذ يستصرخ الأمم الاسلامية فى كل رقعة من رقاع العالم الاسلامى ، للالتفاف حول دولة الخلافة لتكوين قيادة عامة للمسلمين جميعا ، سنة وشيعة عربا وفرسا وتركا ، وقد جمع

السلطان حوله عددا كبيرا من زعماء العرب والبلاد الاسلامية ، وقد شعرت انجلترا وفرنسا وهما الدولتان اللتان كانتا تحكمان قهرا أكبر عدد من المسلمين ـ بحرج الموقف ازاء التفاف العالم الاسلامى حول الخليفة وحسبت لذلك ألف حساب ، لا سيما حينما أيدته المانيا العدوة لهذه الدول ، وحين كسر الخلاف مع الشيعة ، وبدأ بعقد صلح معهم بعد استقدام جمال الدين الأفغانى ، وحين بدأ يتخذ الأسلوب العصرى فى الوحدة بإقامة سكة حديد الحجاز ، وقد جمع لها سبعة ملايين من الدنانير ، وكذلك سكة حديد بغداد .

وقد أشارت الدكتورة الماولتن فى كتابها عنه ، أنه كان لديه أربعون ألفا من الدعاة للوحدة الاسلامية ، ممن كانوا فى القسطنطينية من طلبة المعاهد الاسلامية ، وقد وجه دعوته الى روسيا وشمال افريقيا والهند والصين ، والى المسلمين أينما وجدوا ومن أى جنس كانوا ، وقد حدث هذا فى الوقت الذى كانت الدول الاوربية تترقب بفارغ الصبر موت « دولة الرجل المريض » لتقسيم ميراثها وتوزيع إرثها فيما بينها .

***

رجل يرجح عظماء العصر :

وليس أدل على براعة السلطان عبد الحميد ، من عبارة السيد جمال الدين الأفغانى الذى قال ، بعد ان التقى بالسلطان وتعرف الى مشروعه فى الجامعة الاسلامية وأسلوبه فى العمل السياسى مع دول اوروبا : « ان السلطان عبد الحميد لو وزن مع

أربعة من نوابغ رجال العصر لرجحهم ذكاء ودهاء وسياسة » فلا عجب اذا رأيناه يذلل ما يقام لملكه من الصعاب من دول الغرب أنه يعلم دقائق الأمور السياسية ومرامى الدول الغربية ، وهو معد لكل هوة تطرأ على الملك مخرجا وسلما . وأعظم ما أدهشنى ما أعده من خفى المسائل وأمضى العوامل كى لا تتفق اوروبا على أمر خطير فى الممالك العثمانية وكان يراها عيانا محسوسا : ان تجزئة السلطنة العثمانية لا يمكن أن تقع الا بخراب الممالك الأوروبية بأسرها ، وكلما حاولت دول البلقان الخروج على الدول بحرب ، كان السلطان يسارع بدهائه العجيب لحل عقد ما ربطوه وتفريق ما جمعوه » .

وقد وصفت خطة السلطان بأنها تمثل « سياسة التوازن الدولى » التى كان من شأنها أن تبقى الدول الغربية متحاسدة متنابذة فى الأمور التى تتعلق بتركيا ومستقبلها .

* * *

ليس الخلاص فى المدنية الغربية :

وقد أشارت الدكتورة الماولتن الى أن السلطان عبد الحميد كان أول من تجرأ ـ بعد مائتى عام من الهزيمة والتقهقر ـ على تحدى العالم الغربى ، ومن ذلك قوله : « يجب ألا ندع الغرب يبهرنا فان الخلاص ليس فى المدنية الأوروبية وحدها » ، وقوله : « ان تركيا هى نافذة الاسلام التى سيشع منها النور الجديد » .

وقد وجدت دعوته أصداء واسعة وكان لتنقلات الدعاة ، والمبشرين المسلمين الى هذه المسافات البعيدة التى كان عليهم

أن يقطعوها للوصول الى الجماعات الاسلامية المتفرقة ، كان لذلك أبعد الأثر فى النتائج الحاسمة السريعة فكان يتلقى ألوف الرسائل والوثائق الرسمية من مختلف أنحاء العالم تتضمن تأييد الملايين للسلطان ايمانا بفكرته وتعلقا بحركة الجامعة الاسلامية .

وأشار تقرير سفير بريطانيا لدى الباب العالى سنة ١٩٠٧ الى هذا الخطر بقوله : « يمكننا أن نقرر أن من أهم حوادث السنوات العشر الأخيرة على الأقل (١٨٩٧ ـ ١٩٠٧) خطة السلطان الباهرة ، التى استطاع أن يظهر بها أمام ٣٠٠ مليون مسلماً فى ثوب الخليفة ـ الذى هو الرئيس الروحى فى الدين الاسلامى ـ وأن يقيم لهم البرهان على قوة شعوره الدينى وغيرته الدينية ببناء سكة حديد الحجاز ونتيجة لهذه السياسة فقد أصبح حائزا على خضوع رعاياه له خضوعا أعمى » .

* * *

عملان جليلان :

وأشار كثير من المؤرخين الى العملين الكبيرين ـ اللذين عجلا بإسقاط السلطان عبد الحميد ـ وهما :

١ ـ انهاء الخلاف بين السلطان والشاه وتصافحهما ، هذا الخلاف الذى كان منذ مدة طويلة ينخر فى عظام العالم الاسلامى .

٢ ـ قرار مد خط حديدى الى مكة المكرمة كجزء من خطة الجامعة الاسلامية لمساعدة آلاف المسلمين على آداء فريضة الحج ، وقد نهض بالمشروع فى حماسة بالغة وحشد له كل ما

استطاع من جهد مادى وبشرى ، حتى أتم انجازه بسرعة خارقة وبدون أى عون من أوروبا .

وقالت الدكتورة الماولتن : « لقد استطاع أن يقود تركيا بعيدا عن الكارثة بمناوراته السياسية البارعة ، موازنا بين مقاطعاته ودول أوروبا ، مستحثا الهمم رافعا الآمال ، موجها انتباه العالم نحو أشياء جديدة ، كلما كان التوتر يهدد بأن يصبح حادا .

وكانت خطته لاستعادة قوة تركيا ومجدها عن طريق توحيد العالم الاسلامى تقترب من النجاح» .

* * *

العنصريات والقوميات :

ومن هذه النقطة ضرب السلطان عبد الحميد ، فقد كان يواجه تيارا ضخما من المطامع للدول الأوروبية والصهيونية وروسيا فى تمزيق امبراطوريته ، وكان السلاح هو تسليط سلاح العنصرية الذى حمله رجال تركيا الفتاة والاتحاد والترقى بالدعوة الى الطورانية ، وآزرتهم الدونمة التى كانت تمهد للوصول الى فلسطين ، وواجه السلطان عبد الحميد هذا المخطط بقوة وبسالة ، وفى نفس الوقت الذى بدأ فيه هرتزل محاولته لمقابلة السلطان ، كان السلطان قد أصدر أوامره بفصل « سنجق القدس » ـ مركزى وادارى ـ عن ولاية سوريا عام ١٨٨٧ واخضاعه لادارته المباشرة ، بمجرد أن تكشفت له المرامى البعيدة وراء المخططات الصهيونية .

وعندما شرع هرتزل يفكر فى مقابلة السلطان ملتمسا مختلف الوسائل والطرق ليسترعى انتباه الباب العالى ، كان عبد الحميد

واعيا لكل المحاولات ، فقد سعى هرتزل لدى بسمارك حيث كانت ألمانيا حليفة لتركيا ، وسعى عند كثيرين من الشخصيات البارزة ، وكان هدفه أن يقنع السلطان بإعطائهم مساحة من الأرض ، مقابل استعداد اليهود لدعم مالية الدولة العثمانية والتأثير على الرأى العام الأوروبي ليقف الى جانب السلطان .

وتعددت المحاولات ، واستمع اليه السلطان حيث دار الحديث حول مشاكل الدولة العثمانية وتصفية الدين العام وعرض هرتزل خمسين مليونا من الجنيهات الذهبية للدولة ، وخمسة ملايين لخزينة السلطان الخاصة .

* * *

حسم وحزم

ولكن السلطان كان متشبثا بموقفه المعارض للهجرة اليهودية ، ولما توالت العروض حسم الموقف فى حزم .

« أنصح للدكتور هرتزل أن لا يسير أبدا فى هذا الأمر ، لا أقدر أن أبيع ولو قدما واحدا من البلاد ، لأنها ليست لى بل لشعبى ولقد حصل شعبى على هذه الامبراطورية بإراقة الدماء وقد غذاها بعد بدمائه، وسوف نغطيها بدمائنا قبل أن نسمح لأحد باغتصابها منا .

ليحتفظ اليهود بملايينهم فاذا ما قسمت الامبراطورية فقد يحصل اليهود على فلسطين بدون قتال . . اننا لن نقسم الا جثثا ، ولن أقبل بتشريح أجسادنا لاى غرض كان (يونيو ١٨٩٦) » .

ولما توالت النذر أصدر السلطان فى يونيو ١٨٩٨ أمرا بمنع اليهود الأجانب من دخول فلسطين دون تمييز بين جنسياتهم .

***

التهديد والتآمر

ولما استيأس هرتزل من السلطان بعد الاغراء بدأت مرحلة التهديد ، فاستخدم اليهود قدراتهم فى التآمر للقضاء على الدولة العثمانية ، مؤكدين مؤامراتهم على السلطان عبد الحميد بالذات ، لأنه كان العقبة الكؤود فى طريقهم ، فرموه بكل منقصة وأظهروه للأمة فى أبشع صورة .

وانطلقت أبواقهم من الصحف المارونية الموجهة من الماسونية والنفوذ الأجنبى تحمل عليه : المقطم والأهرام والمقتطف والهلال ، وكتابات جرجى زيدان وسليم سركيس وفارس نمر ، تصفه بالسلطان الأحمر ، وألف جرجى زيدان قصة الاستبداد العثمانى ورمى السلطان بعشرات من الاتهامات الباطلة تمهيدا للقضاء عليه وجرت محاولة اغتياله ثم اسقاطه .

***

ملاعب الأهواء :

وقد نجح اليهود فى اخراج جمعية الاتحاد والترقى الى ملعب أهوائهم السياسية ، وقد كانت هذه الجمعية هى القناع الخارجى الذى تقنعت به جماعة الدونمة المتظاهرين بالاسلام من يهود اسبانيا ، الذين اتخذوا من مدينة سالونيك مقاما لهم بعد

فـرارهـم من محـاكم التفتيش الاسبـانيـة ، وقـد جـاءوا بـالانقـلاب العثماني الذي بيتوا له منذ نصف قرن حتى تم على أيـدي مسلمين كانوا يهودا في الأصل فأسلموا لأجل هذه الغاية .

وقـد أسلم الانقلاب زمـام تركيـا لليهود المـاسـون الـدونمـة (طلعت وجاويد وجمال ونيازي وكمال) الذين دفعوا تركيـا بتوجيـه (وايزمان) لخوض حرب لا ناقة لهم فيها ولا جمل سلموها لليهـود الذين يتكلمون التركية .

* * *

ويقول الدكتـور الزعبي في كتـابه (المـاسونيـة في العراء) :

كـان اليهـود يـرون السلطنـة العثمـانيـة ـ وهي شبـح مخيف للخـلافـة الاسـلاميـة ـ خـطرا على مستقبلهم ، وقـد زار هـرتـزل السلطان وعـرض عليـه عـروضـا مغـريـة فـرفض ، فقـرر المحفـل المـاسوني الكـوني خلع السلطان عبد الحميـد ، وكلف « فـرسـان تركيا الحكماء المستنيرين » بتنفيذ القرار فنفذوه عام ١٩٠٩ .

يقول السيد رشيد رضا : لقد كان السلطان عبد الحميد عدوا للجمعية الماسـونية ، لاعتقـاده أنها جمعيـة سريـة وأن غرضهـا هو ازالـة السلطة الدينيـة من حكـومـات الأرض ، وقـد تنفس الـزمـان للماسون بعد الانقلاب الذي كان لهم فيه أصابع معروفة ، فأسسـوا شرقا ـ محفلا ـ عثمانيا استاذه الأعظم طلعت بك نـاظر الـداخلية ، وأركـانه جمعيـة الاتحاد والتـرقي وأنصـارهـا من اليهـود وغيـرهـم ، ولأجل هذا نرى طلعت بك لا يبالي بسخط الأمة ولا برضاها ، في

ادارته التى استغاثت منها المملكة بولاياتها الستة كلها ، ما عدا ولاية سلانيك ، وسلانيك هى مقر السلطة الحقيقية فى المملكة (المنار م ١٤ ص ٨٠) .

* * *

الخطر المحيط :

يقول جواد رفعت فى كتابه « الخطر المحيط بالاسلام » :

« ان الشخص الوحيد فى تاريخ الترك جميعه ، الذى عرف حقيقة الصهيونية « والسباتائية » وقدر اضرارهما على الترك والاسلام وخطرهما المحدق تماما وكافح معهما مدة طويلة بصورة جدية لتحديد شرورهم ، هو السلطان العثمانى : الثالث والثلاثون (عبد الحميد الثانى) فقط ، وان هذا السلطان التركى العظيم كافح هذه المنظمات الخطيرة مدة ثلاث وثلاثين سنة بذكاء وعزم وبإرادة مدهشة جدا كالأبطال » .

ويتساءل الناس : لماذا يقف السلطان عبد الحميد ضد الدستور ويتحرز من هؤلاء الأحرار وأنه كان يعرف أنهم صناعة المحافل الماسونية ، وأنهم كانوا فى مخطط الصهيونية العالمية التى قررت اسقاط عبد الحميد بأى ثمن ، بالاتفاق مع الاستعمار العالمى الذى كان يطمع فى دحر فكرة الجامعة الاسلامية أكبر خطر واجه حركة الزحف الاستعمارى الحديث على يد عبد الحميد ، لقد قاوم **٣٣** عاما تجاه شبكتهم المبثوثة فى جميع أنحاء العالم ، ومنظماتهم التى أحدثوها وأسلوب دعايتهم وافتراءاتهم الكاذبة الشنيعة » .

* * *

التنفيذ :

ويقول المؤرخون المنصفون : ان اليهود اخذوا توا فى تنفيذ المادة الخامسة من البروتوكولات : التى تنص على وجوب تلفيق الوقائع بحق الأشخاص المحترمين لدى الناس ، للحط من كرامتهم وكسر اعتبارهم ، ومن هنا بدأت حملة الكره ضد السلطان ، حيث لفقوا وقائع حياله وقضايا تحت اسم القتل والاحراق والاغراق ، ثم كانت مؤامرة اغتيال السلطان حيث انفجرت قنبلة على موكبه بعد صلاة الجمعة ، مقدمة لخطط ومؤامرات انتهت بعزله ، وسيطرة الاتحاديين الذين فتحوا الطريق لليهود الى فلسطين وسلموا طرابلس الغرب الى ايطاليا .

يقول الاستاذ طه الولي : كان غاية اليهود ازاحة عبد الحميد من طريقهم الموصل الى فلسطين ، ولذلك فقد تمكنوا من رشوة بعض رجال الدين ، وأغروهم بالخروج الى الشوارع والمناداة بتطبيق الشريعة المحمدية ، وهو ما سمى يومئذ بحركة الارتجاع قاصدين من وراء ذلك احراج السلطان بعد اعلان الدستور ودفع الاتحاديين الى الثورة عليه ، فيما بعد .

وقد أتت هذه الحركة الارتجاعية كلها بالنصر لليهود فقام الجيش بحركته الحاسمة متقدما نحو يلدز ، طالبا ازاحة العرش من تحت سلطانه ، فتقدم ثلاثة فى ٧ مارس ١٩٠٩ من أعيان الدولة : مسلم مأجور ويهودى حقود ونصرانى موتور وقدموا اليه ورقة للتنازل عن العرش .

وقبل السلطان حقنا للدماء وقد صرح بذلك فى رسالته الى الشيخ محمد أبو الشامات قال :

« اننى لم أتخل عن الخلافة الاسلامية لسبب ما سوى أننى بسبب المضايقة من رؤساء جمعية الاتحاد المعروفة باسم (جون ترك) قد أصروا وأصروا على بأن أصادق على تأسيس وطن قومى لليهود فى الأراضى المقدسة (فلسطين) ، ورغم اصرارهم فلم أقبل بصورة قطعية هذا التكليف ، وكان جوابى القطعى : أنكم لو دفعتم ملء الدنيا ذهبا ، لن أقبل تكليفكم ، وبعد جوابى القطعى اتفقوا على خلعي ، فحمدت المولى أنني لم أقبل أن ألطخ الدولة العثمانية والعالم الاسلامى بهذا العار الأبدى ، الناشىء عن تكليفها بإقامة دولة يهودية فى الأراضى المقدسة (فلسطين) » .

* * *

الصورة الزائفة :

هذه هى الصورة الصحيحة التى تجلت فى السنوات الأخيرة عن حقيقة السلطان ووجهته ، أما الصورة التى رسمها سليمان البستانى فى كتابه : « الدولة العثمانية قبل الدستور وبعده » ، وكتابات جرجى زيدان وسليم سركيس ، وهؤلاء الطغمة من أعداء الاسلام ، فانها زائفة ومضللة ، وقد طلعت عليها شمس الحقيقة وأنوار الوقائع الصحيحة الموثقة ، انها كتابات زائفة أريد بها تهوين شأن السلطان عبد الحميد تمهيدا لعزله أو قتله ، وقد كانت فى سبيل خدمة النفوذ الصهيونى أساسا .

أما المنصفون من كتاب الغرب فقد شهدوا للسلطان عبد الحميد وفى مقدمتهم « لوثروب ستوارت » فى كتابه حاضر العالم الاسلامى ، كما تكشفت الحقائق حول الوقائع الزائفة التى نسبوها

اليه ، وخاصة بالنسبة لحياته الخاصة ، وقد عرف عنه العزوف عن مظاهر الترف ، وقد اكتفى من ملبسه الرسمى بالمعطف العاطل من الزخرف وقد كان يقضى وقته كله فى دراسة التقارير المطولة التى ترد اليه من سائر جهات الامبراطورية الى ساعة متأخرة من الليل ، وقد تكشف كذب ادعاءات : الاغراق فى البوسفور والخنق وكلها اتهامات أوردها اليهود ، وليس لها سند صحيح ، وقد كشف الاستاذ سعيد الأفغانى هذا الأمر فى حديث له نشره فى مجلة الوعى الاسلامى (شباط ١٩٦٩) بعد زيارة لتركيا .

قال : فلما أخذنا ذكر الألوف من الأحرار الذين لا يحصون الذين أغرقهم السلطان عبد الحميد فى مياه البوسفور، أبدى رئيس الهيئة فى رقة ولطف طالبا تسمية عشرة فقط من هذه الألوف التى لا تحصى ، فلما أحرجنا قال : يا اخوتى لم يثبت غرق انسان واحد فى البوسفور وهى اشاعات استطارت وخدعت الكثيرين ومنهم حافظ ابراهيم الشاعر فى قصيدته : (مشبع الحوت من لحوم البرايا) .

* * *

والصورة الحقيقية

كذلك تبين كذب الادعاءات التى ادعاها كتاب اليهود ومؤلفوهم باتهامه فى شجاعته ، فان هذه الشجاعة الفائقة يدل عليها عديد من الوقائع والأحداث .

منها موقفه حيال محاولة اغتياله بعد انفجار القنبلة ، واستطار الناس فقد واجه السلطان الحادث فى شجاعة أدهشت رجال السلك السياسى الأجانب وفى حفل الاستقبال فى قصر ضلما بغشة

عام ١٩٠٤ حيث كان يستقبل ضيوفا من أنحاء العالم ، وقع زلزال شديد فتحطمت النوافذ واتسعت الأرض وتهاوت الشرفات من السقوف ، وقفز الوزراء والباشوات من النوافذ وقد استولى الذعر على كل الموجودين ما عدا عبد الحميد الذى ظل واقفا منتصبا رابط الجأش وسط الغرفة المتأرجحة .

وقد روت ذلك الدكتورة الماولتن صاحبة كتاب (عبد الحميد ظل اللّه على الأرض) .

وهناك الاتهامات التى تتصل بالرقابة فقد قيل أن للسلطان ألفا ومائتي جاسوساً ، وأنهم مبثوثون بين أهالي الآستانة ، وقد تبين أن هذه الصورة مبالغ فيها ، وقال جواد رفعت : ان السبب الذى جعل السلطان قد نظم ادارته على نحو معين ، ووسع دائرة استخباراته ، هو علمه من تقارير الصهيونية بالعمل على التخلص منه والقضاء عليه .

كذلك فقد ثبت بطلان دعوى تعصبه وقد اتخذ كبير أطبائه من المسيحيين ، وجعل وزير ماليته دولتلو أغوبيان المسيحى الأرمنى ، وعهد بكثير من مهام سلطته الى غير المسلمين .

* * *

قصة باطلة :

وتتردد كثيراً قصة مذابح الأرمن ، ومسؤولية السلطان عبد الحميد عنها ، وقد تبين براءة عبد الحميد من مسؤولية هذه المذابح ، وأن الغوغاء هم الذين تسببوا فيها ، والأرمن هم الذين بدأوا باحتلال مبنى البنك العثمانى وقتل بعض موظفيه ، ردا على

القمع الذى جوبهت به ثورتهم والتى ثبت أن الروس والانجليز دفعوهم اليها دفعا ، وليس بسبب سوء المعاملة كما قد يتوهم البعض ، وقد استغلوا روح التسامح لاحراج الدولة وكسب مزيد من الامتيازات ، شهد بهذا دجوفارا أحد كبار ساسة رومانيا ومؤرخيها .

يقول : أن من أعظم عوامل انحلال الدولة العثمانية هو مشربها فى اعطاء الحرية المذهبية والمدرسية التامتين لدعم المسيحية التى كانت خاضعة لها ، لأن هذه الأمم بواسطة هاتين الحريتين كانت تثبت دعايتها القومية وتتماسك وتنهض وتسير سيرا قاصدا فى طريق الانفصال عن السلطة العثمانية (حاضر العالم الاسلامى) .

* * *

موت الأفغانى :

كذلك فقد كذبت وقائع التاريخ الصحيحة ما أشيع عن تهمة دس السم للأفغانى ، والصحيح أن جمال الدين مات بالسرطان ، بعد أن مرض شهورا طويلة ، ولو دسوا له السم لمات بسرعة .

وقد وصف جرجى زيدان فى الهلال (اذار ١٨٩٧) كيف توفى : قال : كان قد أصيب بداء السرطان فى فكه السفلى منذ بضعة أشهر ، فقاسى آلاما مبرحة وأجريت له عمليات كثيرة حتى استؤصل الفك السفلى كله أو أكثره ، فامتد الداء الى العنق وأوغل فى الفم وعقد اللسان وضاعف الآلام ، فاشتد المرض ولبث الناس ينتظرون وقوع الأجل ، والحضرة السلطانية تواصل الالتفات

اليه ، بالانفاق من الجيب الهمايونى الخاص ، على أن ذلك لم يدفع مقدورا ولا محا مسطورا . . . الخ .

ولكن ليس هذا العرض الذى يكشف وجه الحقيقة فى أمر هذا السلطان المسلم الذى شوه تاريخه طويلا ، لا يمنع من أن يكون له وقد ولى الحكم سنوات طويلة بعض الأخطاء وقد أشير الى بعض هذا فى :

١ ـ تعاونه مع المانيا مما جر عليه خصومة انجلترا وفرنسا .

٢ ـ تردده فى أن يتخذ اللغة العربية لغة الدولة العثمانية .

٣ ـ الاتجاه الى الطرق الصوفية وليس الى التيار الاسلامى الأصيل .

٤ ـ اهمال التدريب العسكرى واهمال الأسطول .

* * *

حاشية :

وقد صدرت فى السنوات الأخيرة بحوث كثيرة تحمل طابع الاعتدال والانصاف واختفت تلك الروح الظالمة القاسية التى لم تكن قائمة على الحقيقة التاريخية ، وكانت تصدر عن الأهواء والتعصب والحقد ، بل ان بعض الكتاب الذين تورطوا فى كتاباتهم الأولى قد عادوا مرة أخرى الى الانصاف .

من هؤلاء الاستاذ محمد جميل بيهم ، وكذلك بعض أساتذة الجامعة الأمريكية أمثال الدكتور زين زين .

كذلك فقد كان نشر مذكرات السلطان عبد الحميد عاملا هاما فى الكشف عن الجوانب التى كانت غامضة .

ومن أبرز هذه الدراسات تلك الأطروحة التى قدمها اللبنانى حسان حلاق الى جامعة بيروت العربية تحت عنوان (موقف الدولة العثمانية من الحركة الصهيونية ١٨٩٧ - ١٩٠٩) .

كذلك فقد كان للتعليقات التى قدمها أحمد الراشد على مذكرات السلطان التى ترجمها الاستاذ محمد حرب عبد الحميد ، بالاضافة الى مقالاته المتصلة عن الدولة العثمانية تصحيحا لمواقف غامضة ، كل هذا كان له أثره العميق فى اعادة النظر فى هذه الصفحة التى أحاطها ضباب كثير .

وقد تحدث الدكتور أحمد عبد الرحيم مصطفى عن ضرورة فتح ملف الدولة العثمانية من جديد ، وجرت فى الملتقى الاسلامى الجزائرى سنوات ١٩٧٢ ، ١٩٧٣ أبحاث واسعة فى هذا الصدد ، صححت كثيرا من الأخطاء والشبهات حول الدولة العثمانية والسلطان عبد الحميد ، وصدرت لكاتب هذه السطور دراسة واسعة ضمنها كتابه (تاريخ الاسلام : مقدمات العلوم والمناهج) بقى أن نقدم حلقة ثالثة عن المرحلة الثالثة للسلطان عبد الحميد الاتحاديون ومصطفى كمال أتاتورك ، فإلى اللقاء .

الباب الخامس

كمال أتاتورك واسقاط الخلافة

حاولت أجهزة الدعاية الغربية والصهيونية اعطاء « مصطفى كمال » أتاتورك حجما أكبر بكثير من حجمه الطبيعى ، وذلك عن طريق عشرات المؤلفات التى طبعت ووزعت فى مختلف أنحاء العالم ، بتضخيم حجم هذا العمل التغريبى التخريبى الخطير ، الذى قام به .

ولقد حظيت اللغة العربية بعدد من هذه الكتب ، منها كتاب « كمال أتاتورك » الذى كتبه « محمد محمد توفيق » واعتمد على **٥٣** مرجعا انجليزيا وفرنسيا ، وما زال يعد فى نظر التغريبيين مرجعا أساسيا فى تقديم هذا النموذج الاول الذى هو بمثابة المثل البكر لتجربة التغريب فى العالم الاسلامى ، والتى فشل تطبيقها فى البلاد العربية وسقطت أخيرا فى ايران .

ولا يمكن فهم حقيقة كمال أتاتورك الا بالعودة الى السلطان عبد الحميد ومحاولة اسقاطه ، التى تمت عام **١٩٠٩** والتى تولى الاتحاديون بعدها زمام الحكم الى نهاية الحرب العالمية الاولى **١٩١٨** ، كمرحلة اعداد للدور الذى قام به كمال أتاتورك من بعد .

بداية مريبة :

وما ان أسقط السلطان عبد الحميد حتى تحول الامر فى الدولة العثمانية الى شيء خطير ، فقد فتحت الابواب لكل الاقطار والدعوات المعارضة للوحدة الاسلامية والخلافة الاسلامية والاسلام نفسه ، وأتيحت الفرصة لكل الغلاة وخصوم العرب والاسلام ، فى أن يذيعوا كل ما من شأنه أن يحقق للاستعمار الغربى واليهودية العالمية مطامعها وأهدافها ، وخرجت جماعات خريجى الارساليات التبشيرية والمحافل الماسونية ، لتسيطر على الرأي العام عن طريق الصحافة ، وتولت الحكم وزارة في الدولة العثمانية فيها ثلاثة وزراء من اليهود .

ثم انفتح الطريق الى فلسطين وأتيح لسماسرة بيع الاراضى العمل فى حرية كاملة ، ونشط اليهود والدونمة والماسون من ورائهم للعمل .

وأسفرت عن نفسها :

وبدأت الحركة الطورانية تشق طريقها فى تمزيق وحدة العرب والاسلام واندفعت جمعية الاتحاد والترقى الى تتريك العناصر الداخلة ضمن الامبراطورية . وكان التركيز على تتريك العرب شديدا .

وكانت أولى خطوات الاتحاديين فى الحكم : بناء منهج سياسى فكرى للدولة العثمانية ، مستمد من النظرية الغربية العلمانية ، جريا وراء الخطة التى رسمتها الماسونية للثورة الفرنسية ، والغاء المفاهيم الاسلامية واحلال مفاهيم غربية خالصة

بـدلا منها ، وسـارع الاتحاديـون بإصـدار تصريحـات تقـول بعـزل النـظام السياسى القـائم ، وقال أحـدهم : أنـه لا محـل للجـامعـة الاسلامية فى برنامج تركيا الفتية .

وقد جرت مهمة الاتحاديين فى هذه الفترة على اعداد الدولـة العثمانية لحركة التغريب فى عديد من الجهات :

١ ـ استسلامهم لبريطانيا استسلاما كاملا .

٢ ـ تسليم طرابلس الغرب لايطاليا .

٣ ـ فتح الطريق أمام اليهود الى فلسطين .

٤ ـ وضـع العقبات أمـام وحدة العـرب والتـرك بتعليق العـرب على المشانق فى الشام .

٥ ـ محاولة تتريك الاعراق البشرية الداخلة فى نطاق امبراطـوريتهم وخاصة العرب .

٦ ـ اعلان فكرة الطورانية واعلاء الجنس التركى على العالم كله .

وهكـذا فان كـل ما حـدث فى فترة السنـوات العشر السـابقة للحرب العالميـة الاولى انما كـان تمهيدا لمـا جاء بعـد ذلك . فى تركيا أو مصر أو لبنان ، وذلك فى ضوء التحول الخطيـر النـاتـج عن اسقاط الدولة العثمانية وتمزيقها ، وقد تحقق ذلك بالفعـل ، نتيجة لـدخول الاتحـاديين الحرب العـالمية فى صف الالمـان . فكـانت هزيمة الالمـان فى الحرب هـزيمة لهم ممـا أدى الى السيطرة على تـركيا واذلالـها ، وفرض نفـوذ فكرى سيـاسى غـربى عليهـا ، حتى

ينتهى هذا الوجود الاسلامى المرتبط بالخلافة والوحدة الاسلامية ، وحتى لا تكون تركيا مرة أخرى منطلقا للاسلام الى أوروبا ، أو مصدرا للخطر ، أو جرثومة لتجمع اسلامى .

نعم كانت فترة السنوات العشر للاتحاديين مقدمة لما بعد ذلك ، وتمهيدا للمخطط التغريبى العنيف ، الذى نفذه مصطفى كمال أتاتورك بقوة القانون .

* * *

مصطفى كمال والاهداف :

وقد كان مصطفى واحدا من الاتحاديين بين زملائه طلعت وجال وجاويد ، ولكنه لم يلمع تحت الاضواء فى هذه الفترة فقد استبقاه التخطيط الدقيق ليحمل لواء المرحلة التالية . وليصبح بعد الحرب امتداداً لهم . ونقطة تجمع لهذه القوى ، لتتشكل مرة أخرى على نحو آخر ، بعد أن حققت أكبر أهدافها وهي : ١

١ ـ اسقاط الدولة العثمانية وتمزيق وحدة العرب والترك التى هى مظهر وحدة العروبة والاسلام . فقد كان أتاتورك واحدا من رجال جماعة سالونيك ومحافلها الماسونية ، ومن أبرز رجال الاتحاد والترقى ، مؤمنا بتلك المبادىء والمخططات التى نفذت فلم يكن حربا عليها وإن أعلن اختلافه معها ـ فى ظاهر الامر ـ ولكنه كان يحقق مرحلة جديدة ، فيها اعادة النظر ازاء بعض الوسائل مع الاحتفاظ بالغاية الكبرى ، والوصول اليها بأساليب أشد احكاماً .

ولم تكن معارضته لفكرة الدعوة الطورانية الا من هذا القبيل ، واذا كان الاتحاديون قد حطموا الدولة العثمانية ، وفرقوا رابطة العروبة والاسلام . فان أتاتورك قد حقق عملا واحدا فى التاريخ الاسلامى أشد قسوة وخطرا من كل عمل ، وهو « الغاء الخلافة الاسلامية » وتحويل تركيا من دولة اسلامية تحمل لواء الجامعة الاسلامية والخلافة وقيادة الامم الاسلامية ، الى دولة غربية خالصة تكتب من الشمال وتطبق القانون السويسرى المسيحى .

* * *

بروتوكول لوزان :

وأبرز هذه الأعمال اقرار تلك الوثيقة الخطيرة : بروتوكول معاهدة لوزان المعقوذ بين الحلفاء والدولة التركية عام ١٩٢٣ المعروفة بشروط كروزون الأربعة وهي :

١ ـ قطع كل صلة بالاسلام .

٢ ـ الغاء الخلافة .

٣ ـ اخراج أنصار الخلافة والاسلام من البلاد .

٤ ـ اتخاذ دستور مدنى بدلا من دستور تركيا القديم المؤسس على الاسلام .

ويؤكد أرنست ا . ر أفرور . وصديقه آرنست باك ، وبمراجعة كتاب أرمسترونج « الذنب الاغبر » عن حياة مصطفى

كمال : أنه كان ماسونيا وأن المحفل الايطالى الذى ساعد الاتحاديين عام ١٩٠٨ على نجاح حركتهم كان معاونا له فى نجاح حركته . ولعله أحس بعد أن نجحت حركته أنه لا حاجة الى الجمعيات الماسونية فى بلاده ، فألغاها بعد أن تحققت كل أهدافها .

من هو مصطفى كمال :

ولا شك ان العنف الذى واجه به مصطفى كمال مؤسسات الاسلام ، وما قام به من دحر لنفوذه فى تركيا ، يكشف بوضوح عن أنه كان من أخلص رجال المحافل الماسونية ، بل يصل الى أبعد من ذلك عندما يؤكد ما ردده كثير من الباحثين من : ان مصطفى كمال نفسه من أصل يهودى من الدونمة فى سالونيك ، وأنه كان يتخفى بالمكر والخديعة فى معاركه حتى استطاع كسب قلوب المسلمين ، فأرسلوا له من التبرعات والاموال الشىء الكثير حتى اذا تمكن من امتلاك أزمة الامور سحق أنصار الاسلام سحقا .

والواضح من دراسة تاريخ حياة مصطفى كمال أمور عدة :

أولا : انه لم يكن هو قائد معركة التحرير[١] ضد القوات الاوروبية واليونانية وانما هو الذى سيطر على هذه القوات من بعد وسحب أسماء الابطال الذين بدأوا هذه المعارك . وكان لهم دور

---

(١) فى معركة الحفاظ على القسم الاوربى من تركيا وخلال الحرب مع اليونان ، كان يستغل العاطفة الاسلامية مما جعل المسلمين الدراويش ـ الفدائيون المسلمون يأمنون له ويساعدونه ، حتى اذا بلغ غايته قلب لهم ظهر المجن وانقلب على القوى الاسلامية .

كبيـر فى تحقيق النصـر وان الفضـل الاول كـان للقـائـد قـره بكيـر وغيره .

ثـانيا : ان أوربـا قد سلمت لمصـطفى كمال بـزعامـة تـركيـا وانسحبت أمامه ، بعـد أن وقع على وثيقـة رسمية دوليـة فى مؤتمر الصلح ، قـرر فيهـا ازالـة الاسـلام والخـلافـة واخــراج زعمـاء المسلمين ، والحكم بالقوانين الغربية والغـاء اللغة العـربية بعـد ان اطمأنت الى أن تركيا ـ عنصر المخافة ـ قد انتهت .

ثالثا : ان هذه البطولة التى حيكت لها أثوابها ، ووضعت فى هـذا الـطابـع من الـروعـة والبهـاء ، انمـا كـانت خـدعـة النفـوذ الاستعمارى لتأكيد وجوده وسلطانـه ، ومنحه القـوة على تدميـر كل المؤسسـات الاسلاميـة ، حتى لا يبقى منهـا شىء يخيف أوروبا أو يزعج اليهودية العالمية ، التى كانت تطمع منذ وقت بعيـد الى أحد أمرين :

القضاء على الدولة العثمانية واتخاذ الغاء الخلافـة الاسلاميـة طريقا للوصول الى فلسطين .

وظهر على حقيقته :

ولقـد دفع مصـطفى كمال تـركيا دفعـا قويـا الى العلمانيـة ، وألغى القـوانين الاسـلاميـة واضـطهـد المسلمين والاسـلام أبشـع اضطهاد ، وقتل العشرات وعلق جثثهم على أعـواد الشجر ، وأغلق المساجد ومنـع الاذان والصلاة بـاللغة العـربية . وأعـاد مسجد أيـا صوفيا كنيسة ومتحفا . واستبدل بالشريعة الاسلامية قانونـا وضعيا ،

واتخذ الحروف اللاتينية بدلاً من العربية في كتابة الأبجدية التركية[1] وألغى تدريس الاسلام في المدارس والجامعات ودعا الى قومية طورانية عرفية متصلة الأواصر بالوثنيين السابقين للاسلام .

ولقد كان منفذا أمينا للمخطط الذى رسمه الاستعمار واليهودية العالمية وهو ازالة الخلافة ، وفصل تركيا عن العالم الاسلامى والامة العربية ، وبذلك حقق مصطفى كمال ـ فى العالم الاسلامى وفى مواجهة العروبة ـ أخطر حركة استغراب ، وفرضها فرضا على الامة التركية ، ولم يحققها تدريجيا ، أو على نحو التقبل والتطور والمرونة ، فقد كان مدفوعا من القوى الاجنبية الى تنفيذ ذلك فى أقصى سرعة وأبعد مدى ، واقامة هذا النظام على أساس السلطة الحاكمة والقوانين والارهاب الدموى ، وذلك حتى لا توجد ثغرة من بعده للتفتح على الاسلام من جديد أو الترابط بين العرب والترك ، ولقد جمع الاتحاديون الشمل المشتت بعد الحرب العالمية خلف مصطفى كمال فتسموا بالقوى الكمالية ولا فارق بين الدعوة الاتحادية والدعوة الكمالية فى أبرز مخططاتها وهو اعلاء العنصرية التركية وكتابة اللغة التركية بالحروف اللاتينية وتنفيذ نظام سياسى واجتماعى غربى لا دينى منفصل عن الاسلام والشريعة والقيم والمعتقدات الاسلامية التى عرفتها الدولة العثمانية أكثر من أربعمائة عام وقبل قيام الدولة العثمانية كان الاتراك مسلمين منذ عهد العباسيين .

* * *

---

(١) كتبت الابجدية التركية بالحروف العربية منذ القرن الثانى الهجرى وبعد أحد عشر قرنا اجبر كمال الاتراك على استعمال الحروف اللاتينية .

آراء مؤرخى الغرب :

ولقد كان انتماء تركيا الى الغرب سبة فى تاريخها . فلم تسلم من قلم مؤرخ أو فيلسوف ، فما استطاعت تركيا ان تعطى الحضارة الغربية شيئا ما ، بعد أن انتمت اليها كما اعطتها شعوبها . الا أنها كانت ولا تزال ذيلا لها .

وقد أشار أرنولد توينبي الى ذلك صراحة في موسوعته وقال : ان تركيا حين تغربت لم تقدم شيئا الى الغرب أو جديدا الى الحضارة وعاشت عالة على القوانين والمنظمات الغربية .

وكما قال عبد اللّه التل : كان تخلى تركيا عن الاسلام ثمنا لتأييد دول الحلفاء لها فى حركتها التى قادها مصطفى كمال . ولقد كان الوسيط الذى أشرف على اتفاق الحلفاء مع مصطفى كمال هو الحاخام « حاييم ناحوم » الذى كان رئيسا لليهود فى تركيا قبل انتقاله الى مصر . وهو الوسيط القوى الذى أوفده مصطفى كمال الى دول الغرب فى مؤتمر لوزان فحقق لتركيا ما أراد الغرب .

دراسات جادة :

وقد ظهرت فى السنوات الاخيرة دراسات جادة تكشف حقيقة « كمال أتاتورك » منها كتاب الدكتور رضا نور ، حيث كشف جرائم أتاتورك ومخازيه وخياناته فى أكثر من الفين من الصفحات تحت عنوان « **حياتى وذكرياتى** » كما صدر كتاب « **الرجل الصنم** » لأحد الضباط المقربين من أتاتورك .

وقد هدمت هذه المؤلفات بناء الأكذوبة الاسطورية التى

خـدعت الأتـراك والمسلمين فى بعض البـلاد الى حـين وألـقت الاضواء الحقيقية على حياة المغامر الخـطير ، بل لقـد تحدثت فى جرأة شديدة عن مولده وظروف حياته الأولى .

بل ان هذه الظروف قد أوردتها كتب ناصرت أتاتـورك وأهمها كتاب « **الذنب الاغبر** » الذى يقول بالنص :

كـان بفطرتـه ثائـرا لا يحترم رئيسـا أو انسانـا ، أو وضعا من الأوضـاع ولا يقدس شيئـا على الاطـلاق ، وانـه كان يشـرب ويلهو كل ليلة حتى مطلع الفجر فى المقاهى وأوكـار الغرام . وقـد مارس جميع الرذائل وجرب كل الموبقـات ، وانغمس فيها حتى أذنيـه ثم دفع الثمن مرضا جنسيا وصحة منهارة .

ويقول أرمسترونج أيضاً : أنه كان ولوعا بـالاحاديث الخليعـة والافراط فى الشراب والمغامرات الماجنة والليالى الحمراء فى رفقة النساء .

* * *

عنف وتسلط :

وهناك جوانب أخرى يعف القلم عن ذكرها أو ترديدها .

وعندما نستعرض حياة كمال أتاتـورك منذ تـولى السلطة حتى وفاته **١٩٣٨** ، نجد صورة عاصفة من العنف والظلم والتسلط البالغ المدى فى سبيل تثبيت دعـائم هذا النـظام الوافـد وآية ذلـك الولاء المزدوج لبريطانيا وروسيا الشيوعية فى آن .

وأبرز هذه المواقف صلته بالانجليز وما تحمله الوثـائق مشيرة

الى عبارة : قيامه ببيع الوطن الى الانجليز . ومن ذلـك موقفـه أبان المرض ، عندما استدعى السفير البريطانى فى تركيـا وطلب اليه أن يتولى منصب رئيس جمهورية تركيا وفزعت بريطانيا لذلك .

ولقد استطاع أن يحقق للصهيونية العالمية خطتها فى السيطرة بـإلغاء الخـلافة والـوجهة الاسـلامية والحـروف العربيـة والشـريعـة والـمواريث والأوقاف والتعليم الديني .

* * *

اسقاط الخلافة الاسلامية :

واذا كانت تركيا تحاول أن تعود اليوم الى طـابعها الاسـلامى الاصيـل فان محـاذير كثيـرة تعمل لتصـدها عن تحقيق هـذه الغايـة ولكن اللّه غالب على أمره[١] ولكن التجربة كلها تثبت أن مجاوزة الفطرة ومحاربة الدين هي محـاولة بـاطلة لا يمكن ان تستمر ولا بـد ان يحـطمهـا الـزمن لمجـافـاتهـا لسنن الامم والحضـارات والتاريخ .

واذا أردنا أن نتحدث عن كمال أتاتورك فى كلمة ، قلنا : ان تـاريخه قـد ارتبط بأخـطر حدث فى تـاريخ الإسـلام ، وهـو الغـاء الخلافة الاسلامية بعد أن ظلت قائمة أربعة عشـر قرنـا ، فقد كـان الغاء الخلافة الاسلامية بعد تدمير الدولة العثمانية أكبر مركـز تجمع لـلامة الاسـلامية وهـو آخر المـراحـل التى تـطلع اليهـا الاستعمـار

---

(١) من الواضح أن الانقلاب العسكرى الجـديد فى الحكم التـركى ، موجـه أصلا ضـد العودة الاسلامية .

واليهودية العالمية من أجل تمزيق وحدة الاسلام والعروبة والقضاء على آخر صرح جامع للعرب والترك يحمل لواء الجامعة الاسلامية ويتنادى بالمسلمين فى كل بقاع الارض .

لقد كان اسقاط الخلافة عام ١٩٢٤ من أخطر الاحداث فى العالم كله وسيظل من الاعمال الكبرى ضد الاسلام وسيحمل لاسم مصطفى كمال أكبر التبعات فى حكم التاريخ . فقد فتح الباب واسعاً أمام صراع الاقليميات والقوميات التي تتحرك في فراغ دون أن ترتبط بدائرة أساسية هى دائرة الفكر الاسلامى أو الوحدة الاسلامية للجامعة فى مجال الجغرافيا أو فى مجال الفكر .

غير أن الغاء الخلافة الاسلامية لم يحقق ما توقعه الاستعمار واليهودية العالمية من تمزق الاسلام أو اضطراب المسلمين والعرب ، الذين أغرقوا على التو فى آتون الاجناس والعصبيات والعنصرية ، بقصد تعميق عوامل الخلاف ودعمها ، والحيلولة دون قيام وحدة فكرية أو اجتماعية بينهم لقد ركزت هذه الدعوات التغريبية على الازدراء بالخلافة العثمانية والجامعة الاسلامية . وعلى اثارة الصراع بين الاسلام والعروبة وبين القومية والوطنية وبين الاقليمية والقومية وبين العناصر المختلفة وبين الاديان والمذاهب ، وذلك كله لاذابة كل هدف سليم واضح تطرحه حركة اليقظة الاسلامية فى الطريق الصحيح الى معرفة الحقيقة ، والى اتخاذ الاسلوب الاصيل لمواجهة الاخطار ونتيجة للضعف السياسى الذى كان يمر بالعالم الاسلامى .

فقد عجز قادة المسلمين عن اعادة بناء الخلافة الاسلامية مرة أخرى بعد ان أسقطها مصطفى كمال ، وان ظلت عنصرا أساسيا

فى مناهج الدعوات الاسلامية وخطة واضحة فى برنامج حركة اليقظة العربية الاسلامية . وما زال المسلمون يبحثون عن صيغة جديدة تحمل لواء الوحدة ، بديلا من الخلافة أو مقدمة لها . ولقد كانت مكة وجامعتها فى أيام الحج ، وكان الازهر ، من القوى التى ساندت حركة اليقظة الاسلامية بعد سقوط الخلافة ، وكان انتعاش السلفية الجديدة فى الجزيرة العربية واليقظة الاسلامية فى مصر وباكستان وغيرها ، من علامات التعويض السريع ثم جاءت بعد ذلك مؤتمرات التضامن الاسلامي وما زالت تخطو خطوات بطيئة ولكنها ثابتة .

* * *

آثار الغاء الخلافة :

وقد صور الدكتور عبد الوهاب عزام الآثار التى ترتبت على الغاء الخلافة فى العالم الاسلامى فقال : ان عمل الكماليين من بعد ، دل على أن الغاء الخلافة لم يكن نزوة عابرة ، بل كان الحلقة الأولى فى سلسلة مصنوعة والخطوة الأولى من خطة موضوعة : خطة أملاها عليهم الروس والانجليز وأوروبا .

لقد كان الغاء الخلافة من هذه الخطوب المكفهرة لحل رباط حزمة من التعصب فى ريح عاصف بلغت من المسلمين أسوأ مبلغ ، وبلغت بأعدائهم أبعد غاية . ولا ينكر هذا الا جاهل بطبائع الامم . وأحسب أن الانجليز كان يهون عليهم أن يبذلوا ملايين الجنيهات ليبلغوا الغاية التى بلغهم اياها الكماليون بغير بذل ولا كد .

* * *

أمر مقرر ؟؟

وهناك من الدلائل ما يؤكد أن الغاء الخلافة الاسلامية كان أمرا مقررا منذ اليوم الأول للانقلاب العثمانى ، الذى قام باسقاط السلطان عبد الحميد عام ١٩٠٩ ، ولكنه نفذ على مراحل واتخذت اجراءاته واحدة بعد أخرى ، حتى تم تنفيذه على يد مصطفى كمال عام ١٩٢٤ بعد أن أسقط الخلافة الزمنية ، وأقام بدلا منها خلافة منفصلة عن السلطنة توطئة للاجهاز عليها ، جملة .

وسيظل تاريخ مصطفى كمال أتاتورك مرتبطا بإسقاط الخلافة الاسلامية الى أن تعود بإذن اللّه تبارك وتعالى خلال القرن الخامس عشر .

الباب السادس

عودة الخلافة الاسلامية

عندما أسقطت الخلافة الاسلامية عام ١٩٢٤ ، كان مخططا خطيرا قوامه النفوذ الاجنبى والصهيونية والشيوعية الذى كان قد بدأ فى اعداد هذا العمل سرا منذ أكثر من مائة عام ، من خلال جماعة الدونمة . (اليهود الذين هاجروا من الأندلس عام ١٤٩٢ وأقاموا فى سالونيك ودخلوا فى الاسلام تقية) التى عملت بالاشتراك مع جماعة الاتحاد والترقى وتركيا الفتاة والمحافل الماسونية ، على تنفيذ هذا المخطط تحت شعار « القضاء على دولة الرجل المريض » ، خاصة بعد أن حمل (السلطان عبد الحميد) لواء الدعوة الى « الجامعة الاسلامية » بمعنى أن ينضوى تحت لواء الخلافة الاسلامية جميع المسلمين فى العالم - وليس فقط العرب والترك - .

ومن هنا كانت خطواته الى القضاء على الفرقة التى عمقها الاستعمار بين الترك والفرس ، وكانت الدعوة الى الجامعة الاسلامية فى ظل الخلافة العثمانية الاسلامية ، أمرا بالغ الخطورة ، جوبه فى الغرب من القوى الثلاث بمؤامرات ضخمة ،

امتـدت قرنـا كامـلا ، على النحو الـذى صـوره بهـا وزيـر ايـطالى منصف : تحت عنوان « مائة مؤامرة على الدولة العثمانية » .

ومن هنا يتبين أن (الخلافـة الاسلاميـة) لم تسقط بجرة قلم عام **١٩٢٤** عندما ألغاهـا مصطفى كمـال أتاتـورك ، وانما يمكن أن يقـال أن هذه كـانت آخر خـطوة فى مؤامرة ضخمـة واسعة النـطاق امتـدت سنوات طـويلة وشاركت فيهـا قوى كثيـرة ذات مصلحة فى تمزيق العالم الاسلامى ، مثل انجلترا وفرنسا ، ومنها ما كان يهدف الى الـوصول الى فلسـطين وقلب القدس كـالصهيونيـة العـالميـة ، وليس أدل على ذلك من مساعدة الشيوعية الروسية فى تلك المعونة الضخمة التى قدمتها لحكام تركيا بعد اسقاط الخلافة .

ولنعلم أن المحــاولات التى جـرت عــام **١٩٠٨** لإسقــاط السلطان عبـد الحميـد كــانت هى المقـدمــات الحقيقيـة لإلغــاء الخـلافة ، فقـد كانت فكـرة عبد الحميـد كما ذكـرنا أن يمتـد نفوذ الخـلافة فيشمـل عالم الاسـلام كله ولا يتوقف عنـد حدود الـدولـة العثمـانية ، وقـد أخذ عبـد الحميد بهـذه الفكـرة كخـطة حـاسمـة لمواجهة محاولات الغرب .

* * *

قوة تواجه زحف الطامعين :

ومنذ تولى عبد الحميد ، ورأى انتفاض البلقان على الدولة ، ركز على دولة اسلامية جامعة تحمل لواء الوحدة الاسلامية ، وتضم مختلف المسلمين ، الـذين هم خـارج نـطاقهـا السيـاسى اليهـا ، باعتبارها قوة تـواجه الـزحف الغربى الـطامع الى تمـزيق أديم عالم

الاسلام والسيطرة عليه . ولما نجحت الخطة وكادت تؤتى أكلها ، والتقى شيعة ايران مع سنة تركيا لأول مرة ، بعد أن حفر الاستعمار بينهما خندقا عميقا منذ ثلاثة قرون أو تزيد ، عجل الاستعمار والصهيونية بالقضاء على عبد الحميد خاصة ، لموقفه الحاسم فى الحيلولة دون وصول اليهود الى فلسطين .

والمعروف أنه لما ظهرت حركة الاتحاد والترقى داعية لتغريب تركيا ، احتضنتها المحافل الماسونية ، وحولتها من خطة اصلاح عثمانية داخل الدولة الاسلامية الكبرى الى خطة تغريبية عنصرية ، تحمل لواء (الطورانية) وتدعو الى تتريك العرب ودفعهم الى التماس مفهوم الماسونية فى الثورة الفرنسية والاستجابة له .

وبذلك كانوا جمعا غريبى الفكر ، وكانت مفاهيم القوميات والاقليميات والطورانية والعنصرية ، قد سيطرت على فكرهم واستهدفت الانفصال عن المفهوم الاسلامى والكيان الاسلامى . وقد ظلت الفكرة فى حضانة الدونمة والماسونية منذ بدأت ، حتى استطاعت أن تصرع الوحدة الاسلامية الجامعة بانتزاع عبد الحميد من مكان القيادة ـ باعتباره صاحب مبدأ الوحدة الاسلامية ـ .

ثم جاء الاتحاديون فأقاموا عهدا أسود فى تركيا منذ ١٩٠٨ حتى نهاية الحرب العالمية الاولى ، ثم لبسوا ثوبا جديدا اسموه (الكمالية) وهو امتداد لهم أشد خطرا وأعمق أثرا ، جاء بعد أن كسبوا ما كسبوه من نصر باسم الاسلام ، ثم استداروا عليه استدارة كاملة بعد أن كان هو الورقة التى حققوا بها النصر .

* * *

وجه كالح صريح :

وقد وردت فى المواثيق التى كشف أمرها أخيرا موافقتهم على خلع الاسلام واللغة العربية والمحاكم الشرعية وملابس الاسلام وشريعته ثمنا لتخليصهم من الاحتلال البريطانى واليونانى ، وكان اعلان تركيا دولة علمانية كفيلا بأن يحقق لها رضاء الغرب وتسليمه وتحريره .

فقد انفصلت تركيا عن الامة الاسلامية واندمجت كليا فى الغرب العلمانى ، وسرعان ما حققت الامل الذى طالما طاف بأحلام الغرب ـ روسية وانجليزية وفرنسية ويهودية ـ وهو أن يقضى مسلم بيده على خلافة الاسلام .

ولكن أتاتورك لم يكن مسلما فى حقيقته وانما كان من الدونمة ـ التى تخفت تحت صورة الاسلام لتحقيق كل ما استطاعت ان تحققه فى تركيا ، وكان همه الاكبر « اسقاط الخلافة » وفى سنوات قليلة من ١٩١٨ـ **١٩٢٤** تحولت تركيا ـ دولة الخلافة العثمانية وتاج العالم الاسلامى ـ الى دولة غربية علمانية تحكم بقانون نابليون ، وتزيح بكلتا يديها ذلك التراث العظيم ـ تراث الاسلام ـ وتقاوم رجاله ودعاته ومؤسساته .

وهكذا سقطت الخلافة بمؤامرة مشتركة بين اليهود الدونمة والاتحاديين الكماليين ، والقوى الاستعمارية العربية وروسيا .

* * *

وما اسقطت الخلافة بأسلوب الاقناع والتغيير النفسى والفكرى ، ولكن بأسلوب من العنف والقتل والاستبداد والظلم ، الذى قامت به (ثلة) أعدت لها وخططت لذلك فى مرحلتين طويلتين منذ ١٩٠٩ الى ١٩١٨ م باسم الاتحاديين ، ومن بعدها الى عام ١٩٢٤ باسم الكماليين ، وهما ـ فى الحقيقة ـ شىء واحد استطاع فى أول الامر أن يفتح الباب للصهيونية العالمية الى فلسطين ، بعد أن استعصى ذلك عليها طويلا أيام السلطان عبد الحميد ، وأسلمت طرابلس الغرب للايطاليين ، ودفعت الدولة العثمانية الى أن تكون وقودا فى الحرب العظمى دون داع ، حتى تنفصل عنها الشام والعراق وحتى تسلم فلسطين لليهود .

وحاولت الصحف الموالية للتغريب تصوير المسألة بصورة كاذبة مضللة وأن تجعل ذلك الاتجاه عنوانا على التقدم ، حتى خشى شيخ الاسلام ـ الذى أخرجوه وأقام فى مصر آنذاك ـ من هذا التحول المحاط بهالة كاذبة من التكريم حين قال سماحة الشيخ مصطفى صبرى : اننى أخاف أن تسعد بلاد تركيا وترقى بهذه الادارة الحديثة اللادينية رقياً دنيويا ـ وان كان ذلك فى غاية البعد والاستحالة ـ فيفتتن بها المسلمون الذين قلما سلموا من أن يعجبوا بها وهى توغل فى سبيل الافلاس والاندراس .

وانما نقول للشيخ من وراء القبر : اطمئن فان تركيا لم تسعد وان التجربة لم تحقق أى نجاح ، ولم تتقدم تركيا عن الدول الاخرى بل لعلها ما زالت تقاسى من جرائرها وان جيلا جديدا نشأ على الاسلام ويجاهد فى سبيله .

حملة ظالمة :

ان أكبر ما غذيت به حملة اسقاط الخلافة كانت تلك التصورات الباطلة التى نسبت الى السلطان عبد الحميد الظلم والاستبداد ، بينما كان كل ما يحاول عبد الحميد قمعه والحيلولة دونه هو سقوط الدولة العثمانية فى براثن القوى الصهيونية والاستعمارية ، التى كانت تريد التهامها وتقسيمها ، وتسليم فلسطين لليهود ومن أجل ذلك استحق الخلع واستحقت الخلافة الازالة ، بأيدى من تسموا بأسماء المسلمين ، وفى مقدمتهم مصطفى كمال الذى كان يدعى أنه مسلم ، ويدعو المسلمين الى الدعاء له بالنصر ، حتى اذا ما وجد فرصته ضرب ضربته وسط دهشة العالم الاسلامى كله وعجبه .

وفى الحقيقة ان الخلافة لم تكن مصدر انحطاط تركيا ولا العالم الاسلامى ، ولم يكن أسلوب تعديلها هو ازالتها أو فصل السلطة عن الخلافة كما فعلوا أولا ليخدعوا الناس يومئذ ، ان كان ذلك مقدمة للقضاء النهائى عليها .

وقد كانت هناك مشروعات كثيرة للاصلاح لو خلصت النيات وحسن الاتجاه الى الابقاء على وحدة العالم الاسلامى وقيام خلافته .

واذا كانت هناك قياسات لما وصف به عبد الحميد من تسلط واستبداد فأين منه ما قام به الاتحاديون والكماليون . . الذين باعوا آخرتهم بدنياهم . . ؟؟؟ ، وهو ما لم يفعله الخلفاء قط ، وبينما وقف الاعزل عبد الحميد أمام قوى الصهيونية العالمية ، وهى تغريه

بالملايين وهى تعرف مؤامراتها وتقودها ، وقد وقف صامدا لا يلين .

تمزيق الوحدة الاسلامية :

ولقد كان من وراء اسقاط الخلافة الاسلامية أهداف كثيرة ، كان أكبرها تمزيق هذا الشمل الذى جمعته الوحدة الاسلامية بين مسلمى العالم ، وتفريق هذا الجمع الذى ربطته الدولة العثمانية ليسهل توزيعه واحتواؤه ، وتقديم فلسطين والقدس لقمة سائغة للصهيونية التى كانت وراء الربا العالمى منذ عصور بعيدة ، عاملة على تقريب المسافات الى تحقيق الغاية ، من وراء الاستعمار الغربى .

ومن أهدافها محاولة حجب حقيقة الاسلام الجامعة بين الدين والدولة والقائمة على أساس أن الاسلام « دين ونظام مجتمع » واثارة الشبهة حوله بتصويره دينا لاهوتيا ـ على النحو الذى صوره به الكماليون فى تركيا وعلى عبد الرازق وجماعة اللادينيين فى البلاد العربية .

خيبة الأمل فى تمزيق المسلمين :

واذا كان الهدف الاول قد تحقق لانه داخل فى نطاق مرحلة الضعف التى أرخت قبضة المسلمين عن حقوقهم وممتلكاتهم وسلطاتهم ، فان الهدف الثانى لم يتحقق بعد ، لان المسلمين سرعان ما تنادوا الى الوحدة فى محاولة لاحتواء الخطر ، وذلك بالرغم مما طرحه التغريبيون من مفهوم غير أصيل عن أن الاسلام دين عبادى ، وان الخلافة والحكم لم تكن من أسس الاسلام .

بل ان عددا كبيرا من المستشرقين الغربيين اعترف بأن الاسلام ليس دينا فحسب بل هو نظام سياسى واجتماعى أيضا .

يقول فيتزجرالد فى كتابه قانون المحمديين (١) : على الرغم من أنه قد ظهر فى العهد الاخير ، بعض أفراد من المسلمين ممن يصفون أنفسهم أنهم عصريون ، يحاولون ان يفصلوا بين الناحيتين ، فان صرح الفكر الاسلامى كله قد بنى على أساس أن الجانبين متلازمان ولا يمكن فصل أحدهما عن الآخر .

وشهد بذلك (تلينو) الذى قال أن محمدا ـ صلى اللّه عليه وسلم ـ أسس فى وقت ما دينا ودولة . وكانت حدودهما متطابقة طوال حياته .

وذلك ما عبر عنه (شاخت) حين قال : على ان الاسلام يعنى أكثر من دين ، انه يمثل أبدا نظريات قانونية سياسية وجملة القول أنه نظام كامل يشمل الدين والدولة معا .

وهو ما أشار اليه (جب) حين قال : لقد صار واضحا ان الاسلام ، لم يكن مجرد عقائد دينية فردية ، وانما استوجب اقامة مجتمع مستقل . له أسلوبه المعين فى الحكم ، وله قوانينه ونظمه الخاصة به .

هذا من ناحية (الفكرة) أما من ناحية التطبيق فان (الفرد كانتول سميث) فى كتابه عن « الاسلام فى العصر الحديث » كتب تحت عنوان « الاسلام والدنيوية التركية » ما يفهم منه أن سقوط الخلافة والغاء نظام الاسلام فى تركيا ، ليس الا عملا قامت به جماعة حاكمة ، ولكنه لا يمثل شعور الامة ، ولا يطابق سلوكها .

يقول : ان القول بأن الاتراك بإيثارهم الدنيوية قد تخلوا عن الاسلام لا يحظى بتأييد من الباحثين فى الشرق أو الغرب وانما هو مجرد احساس شائع بين الاوربيين والمسلمين فى الاقطار الاخرى والمسألة فى حقيقتها لا تعدو الهيئة الحاكمة .

كما يردد الببغاء :

ولذلك فانه من المؤسف أن يجرى بعض الكتاب العرب والمسلمين وراء مفاهيم غربية من خصوم الاسلام والدولة العثمانية ، ويرددون كلماتهم ويلوكون عباراتهم ويعادون منطق الاشياء الحقيقى ، فيخرجون بذلك عن دينهم وأصالتهم دون أن يقدروا النتائج التى تجىء من بعد ، والتى هى أكبر من تقديرهم وادراكهم ، فنجد مثلا الدكتور الخربوطلى الذى يقول فى كتابه عن « الخلافة الاسلامية » هذه العبارة المريرة : « فأفلت شمس الخلافة الاسلامية الى الابد » وكيف يمكن لباحث أو مؤرخ أن يتنبأ بأن الخلافة قد أفلت شمسها الى الابد ، وهل يملك من الادلة على ذلك دليلا واحدا أو نصف دليل وهو قول لم يقله أكثر الغربيين تعصبا ضد الاسلام .

واليوم يرى هؤلاء انهم كانوا من قصر النظر ، بحيث جهلوا أن الحديث عن الخلافة الاسلامية لم يتوقف يوما واحدا منذ ذلك اليوم ، جرى فى مناهج الدعوات والحركات والجماعات الاسلامية فى العالم الاسلامى كله ، كغاية كبرى لابد من ملاحقتها ، وجرت حركات التجمع لتذكر دوما بهذا الحق ، الذى لا تطويه الايام ولا تخفيه الاحداث ، مهما تغلف الحديث عنه بالضباب .

وما زلنا نسمع صيحات الدعوة الى اعادة الخلافة عالية وقوية من مسؤولين ومفكرين متعددين ولا يزال المؤتمر الاسلامى الذى يضم أكثر من أربعين دولة اسلامية يضع هذه الحقيقة أمامه .

* * *

الوحدة الوجدانية ثم وحدة الفكر :

نعم ان المسلمين بعد اسقاط الخلافة عن طريق المؤامرة لم يستكينوا الى الهزيمة التى فرضت عليهم ، ودبرت من وراء ارادتهم الحرة ، ولكنهم فكروا وقدروا ، وعملوا لمواجهة هذا الفراغ ، فأقاموا روابط كثيرة ومؤتمرات متعددة ، واذا كانت القوى الاستعمارية قد حالت دون تحقيق الوحدة السياسية فإنهم حققوا وحدة اجتماعية ووجدانية لا تزال تنمو قوية وقادرة على أن تحقق فى مطالع القرن الخامس عشر (وحدة الفكر) التى هى الاساس المكين بعودة الخلافة الاسلامية ولقد كانت الازمات دائما قادرة على تجميع المسلمين ووحدتهم ازاء الاحداث والاخطار .

ولم يكن عمل عبد الحميد فى سبيل هذا التجمع الا قمة الايمان بالخطر وبالمسؤولية ازاء هذا الخطر ، واذا كانت حركته الى الوحدة الجامعة قد أجهضت فليس لانها فشلت ، بل لانها نجحت نجاحا مذهلا مما دفع القوى الاستعمارية والصهيونية الى القضاء عليها بإسقاطه قبل ان يتمكن من وضع القواعد التى يمكن ان تسير عليها موضع التنفيذ ، ثم جرى العمل على الاجهاز على القاعدة نفسها . واذا كان العرب بعد سقوط الوحدة الاسلامية قد تجمعوا حول وحدتهم، فانهم لم يكونوا في ذلك عاملين على اعلاء

شأن العناصر والدماء ، ولكنهم كانوا يرون فى الوحدة العربية حلقة وخطوة الى عودة الوحدة الاسلامية الكبرى ، ولم يكونوا يفهمون من العروبة ما فهمه الغرب من القومية ، ذلك لان العروبة انما نشأت فى أحضان الاسلام سمحة مؤمنة بالاخاء الاسلامى الاكبر ، بعيدة عن العنصرية والتعصب والصراع ، وقائمة على وحدة قرآنية بالشريعة والايمان ، ولكن القوى الخصيمة هى التى أفسدت مفهوم العروبة وقطعته عن صلته بالوحدة الاسلامية .

* * *

عزل العروبة عن الاسلام :

لقد ضربت القوى الغاصبة هذا الاتجاه وعزلته عن جذوره ، كما ضربت من قبل الخيوط التى تجمعت فى يد السلطان عبد الحميد ، وهكذا فان اسقاط الخلافة لم يكن وفق سنة طبيعية أو قانون اجتماعى صحيح ، ولكنها كانت عملية اجهاض زيفت لها مبررات خادعة استطاعت أن تضلل البعض ولذلك فان الخلافة الشرعية ستظل فى فقه المسلمين وشريعة الاسلام وقلوب المؤمنين وعلى أقلام كتاب الاسلام عامودا أساسيا . فهى جزء لا يتجزأ من الاسلام ، ولعلها سقطت لتسقط معها خلافة عجزت عن تطبيق الاسلام تطبيقا حقيقيا ، ليعود من بعد على مفهومها الاصيل وهو ما تتطلع اليه قلوب المسلمين وتهفو وتعده من آمال القرن الخامس عشر .

* * *

حقيقة مؤكدة :

والحقيقة التى يؤكدها الباحثون المنصفون : ان المسلمين لم يناموا على الضيم منذ اسقطت الخلافة الاسلامية وهم لا يستنيمون أو يفرطون أو يغيب عليهم مدى خطرها وجلال شأنها والآثار البعيدة التى ترتبت على حجبها .

ومنذ ذلك الوقت والى اليوم فان الخلافة الاسلامية مبثوثة فى كل أعمال التضامن الاسلامى والرابطة الاسلامية والاخوة الاسلامية الجامعة .

وقد أحس المسلمون اليوم بأن محاولات التجمع الوطنى والقومى لم تنجح لانها ليست هى الوجهة الحقة الصادرة من أعماق الفطرة ، وان المنهج الصحيح هو اجتماع كلمة المسلمين وقيام ذلك الرباط القوى بينهم مرة أخرى ، بعد ان تراخى فى السنوات الماضية تحت تأثير الدعوات الاقليمية والقومية ، غير أن هذه السنوات قد شهدت عشرات المؤتمرات والابحاث والمشروعات والدعوات التى تفتح الطريق الى وحدة المسلمين وتحقيق الغاية الكبرى .

ومن هذا العرض التاريخى فإننا نصل الى حقيقتين :

الاولى : أن الخلافة هى بؤرة الجامعة الاسلامية وأن الجامعة الاسلامية يمكن أن تقوم أولا ثم تنبثق منها الخلافة ، وأن حركات التحرر والوحدة والتقارب التى تجرى اليوم فى عالم الاسلام يمكن أن تحقق ترابطا ثقافيا واجتماعيا قبل أن يصبح سياسيا وعسكريا .

الثانية : ان المسلمين بعد الغاء الخلافة لم يتفرقوا أيدى سبأ ، وان الهدف الذى كان يطمع فيه النفوذ الاستعمارى قد فشل تماما . وان العالم الاسلامى قد تلاقى على مستويات كبيرة ومتعددة : اجتماعية وثقافية واقتصادية وأن الفكر الاسلامى ما زال هو المصدر الاول للثقافات العربية والفارسية والتركية والهندية الاسلامية .

واذا كانت الخلافة قد سقطت بعمل سياسى استعمارى دفين أخفى أمره طويلاً وبدقة ، وراء غلالات ، فإن المسلمين قد بدت أمامهم الحقائق سافرة اليوم ، وتنبهوا لما يراد بهم فسارعوا الى اتخاذ وسائل أخرى ، تمهد للوحدة فاندغمت رابطتهم فى مؤتمر الحج السنوى ، وفى الاتجاه الى الجامعات الاسلامية العلمية ، التى لا شك ستوحد الفكر والثقافة والتعليم ، وزاد من قوة هذه الروابط تحرر دولتين كبيرتين بعد الحرب العالمية الثانية هما الباكستان واندونيسيا وعشرات الدول ذات الاغلبية المسلمة فى جنوب شرق آسيا وافريقيا ، وبدأت لقاءات واسعة بين العناصر المختلفة من العرب والبربر والسنة والشيعة والاكراد ، وتوثقت الصلات وزادت عمقا وخفت حدة الخصومات والخلافات ، التى أججها الاستعمار والنفوذ الغربي حرصا على استبقاء التمزق والخلاف ، كما كشفت الوقائع حقائق كثيرة كانت مطمورة عن الصهيونية والماركسية وعلاقتهما وفشلت دعوات الاقليمية والقومية جمعا كما فشلت النظم السياسية الواحدة سواء الليبرالية منها أم الاشتراكية ولم يعد أمام المسلمين فى مطلع القرن الخامس عشر بد من أن يقيموا مجتمعهم على أساس الشريعة الاسلامية ،

ونظامهم السياسى على أساس الوحدة الاسلامية ، وسوف تنقشع السحب التى تحجب الضوء ويجد المسلمون أنفسهم مضطرين الى الالتقاء ازاء الخطر الزاحف وهذا هو المنطلق الحقيقى لعودة الخلافة الاسلامية خلال هذا القرن الجديد .

الباب السابع

يقظة الاسلام فى تركيا المسلمة

يقظة الاسلام فى تركيا

صدرت فى الفترة الاخيرة دراستين منفصلتين : احداهما عن مصطفى كمال أتاتورك تحت اسم الرجل الصنم .

وكما صدرت دراسة عن المجاهد المسلم بديع الزمان سعيد النورسى للكاتبة الغربية المسلمة مريم جميلة .

كذلك فقد قدمت أطروحة من طالب لبنانى فى جامعة بيروت العربية تحت عنوان موقف الدولة العثمانية من الحركة الصهيونية ١٨٩٧ ـ ١٩٠٩ وفى نفس الوقت نشرت مذكرات السلطان عبد الحميد التى كانت مختفية خلال أكثر من سبعين عاما على صفحات الجرائد التركية والمجلات الاسلامية العربية فاذا أضفنا الى ذلك ما كشفت عنه مذكرات هرتزل عن موقف السلطان عبد الحميد من الصهيونية العالمية عرفنا الى أى حد تضع الوثائق بين أيدينا تلك الحقائق الضخمة التى تغير مفهوم التاريخ وتكشف زيف ما ظلت الكتب المدرسية والجامعية والثقافية في البلاد العربية خلال

هذه الفترة الطويلة نقدمه من شبهات لصالح الاستعمار والصهيونية العالمية . فاذا أضفنا الى هذا كله تلك النهضة الاسلامية الجديدة فى تركيا والتى يقودها حزب السلامة الوطنى بقيادة الدكتور نجم الدين أرباقان (أستاذ الميكانيكا فى الجامعة التكنيكية فى استانبول) عرفنا الى أى حد يمكن القول بأن تركيا قد عادت الى الاصالة الاسلامية بعد أن انحرفت عنها عن طريق تلك المحاولة الخطيرة التى جرت لتغريبها عن أيدى جماعة الدونمة والاتحاديين والكماليين على طوال فترة امتدت خلال حكم السلطان عبد الحميد وبعد اسقاطه وخلال الفترة من ١٩٠٩ الى الحرب العالمية الاولى حيث دخلت تركيا الحرب فى صف المانيا وحاقت بها الهزيمة ، وحيث سلم حزب الاتحاديين الحاكم طرابلس الغرب لايطاليا وقبل معاهدة لوزان بتسليم الشام بأجزائه الاربعة الى فرنسا وانجلترا وفلسطين الى اليهودية العالمية .

السلطان عبد الحميد

كان السلطان عبد الحميد قد عرف خطة الصهيونية العالمية فى الاستيلاء على بيت المقدس واقامة هيكل سليمان نتيجة للمخططات التى كان يجرى تنفيذها فى الامبراطورية العثمانية تحت ستار التنظيمات الماسونية التى نشرتها قوى اليهودية فى مختلف أنحاء بلاد الخلافة ، وكانت ركيزتهم الاساسية هى جماعة الدونمة فى سالونيك ، هؤلاء اليهود الذين كانوا قد هاجروا من الاندلس بعد سقوطها فى يد الفرنجة وانتهاء الحكم الاسلامى فيها ، فقد قصدوا الى تركيا ليستظلوا بظل المسلمين بها ، وفى سالونيك كانت خطتهم لاقامة المحافل الماسونية واستقطاب

الاتحاديين لخدمة أهدافهم ، حتى استطاعوا اسقاط السلطان عبد الحميد حين عجزوا عن اغرائه أو احتوائه وكان للاتحاديين دورهم الخطير فى هذه المؤامرة .

كان هرتزل قد حاول اغراء السلطان ليسمح لهم بالهجرة الى فلسطين ورفض العروض التى قدمت له فوضعهم أمام قرار التخلص منه : وقد وضح هذا فى مذكرات هرتزل ، كما أشار اليه السلطان فى الوثيقة المعروفة التى نشرت أخيرا :

« اننى كأمانة فى ذمة التاريخ لم أتخل عن الخلافة الاسلامية لسبب ما سوى اننى بسبب المضايقة من رؤساء جمعية الاتحاد والترقى المعروفة باسم (جون ترك) وتهديدهم اضطررت وأجبرت على ترك الخلافة . ان هؤلاء الاتحاديين قد أصروا بأن أصادق على تأسيس وطن قومي لليهود فى الاراضى المقدسة ورغم اصرارهم فلم أقبل بصورة قطعية هذا التكليف وأخيرا وعدوا بتقديم مائة وخمسين مليون ليرة ذهبية انجليزية فرفضت هذا التكليف بصورة قطعية ايضا ، واجبتهم بالجواب القطعى ، انه لو دفعتم ملء الدنيا ذهبا فلن أقبل تكليفكم ، لقد خدمت الملة الاسلامية والامة المحمدية ما يزيد على ثلاثين سنة فكيف أسود صحائف المسلمين آبائى وأجدادى من السلاطين والخلفاء العثمانيين ، لهذا لن أقبل تكليفكم بوجه قطعى وبعد جوابى اتفقوا على خلعى فقبلت التكليف وحمدت المولى اننى لم ألطخ وجه الدولة العثمانية والعالم الاسلامى بهذا العار الابدى » .

وهكذا دفع السلطان عبد الحميد ثمن موقفه الحاسم من الصهيونية العالمية وكان للنفوذ الاجنبى مشاركة ضخمة فى هذا

الامـر ، ذلـك لان اللواء الـذى رفعـه تحت اسم « الجـامعـة الاسـلامية » : خـارج نطاق الـدولة العثمـانية : يـا مسلمى العـالم اتحـدوا قد هـز الدوائـر الاستعمـاريـة هـزا شـديـدا ومن ثم كـانت المؤامرة ذات شقين :

١ ـ اسقـاط السلطان عبـد الحميـد : وهـذه كـانت مهمـة الاتحاديين .

٢ ـ اسقاط الخلافة العثمانية : وهذه مهمة الكماليين .

ولم يكن الكمـاليون والاتحـاديـون الا فـرع دوحـه واحـدة : تقـاسمت العمـل على مـرحلتين لـلاجهـاز على الـدولـة العثمـانيـة والخلافة وفتح الطريق أمام الصهيونية العالمية لتصل الى فلسطين ، ولتمزق العرب والتـرك ولتمكن للاستعمـار البريـطانى والفرنسى من اقتسام تركة ما كان يطلق عليه « الرجل المريض » .

ولقد كان السلطان عبد الحميد يعـرف دخائـل هذا المخـطط كله : بفروعه وخلفياته ، فيما يتصل بالدونمة والمحافـل الماسـونية ومخططات الاتحاديين (تركيا الفتاة) وفى مقدمتهم مـدحت وأحمد رضا . ويعرف الاهداف الخطيرة التى يدور حـولها تـآمر الصهيـونية مع بريطانيا وغيرها من دول أوربا ، ولكنه بعد كل الـوساطـات التى بذلها هرتزل أرسل اليه كلمته الواضحة الحاسمة الصريحة :

«انصحوا الدكتور هرتـزل ألا يتخذ خـطوات جديـدة فى هذا المـوضوع . انى لا أستـطيع أن أتخلى عن شبـر واحـد من الارض فهى ليست ملك يمينى بـل هى ملك شعبى . لقد قـاتل شعبى فى سبيـل هذه الارض ورواهـا بدمـه فليحتفظ اليهـود بمـلايينهم . اذا

مزقت امبراطوريتى فلعلهم يستطيعون آنذاك أن يأخذوا فلسطين بلا ثمن ولكن يجب أن يبدأ ذلك التمزيق اولا فى جثتنا . وانى لا أستطيع الموافقة على تشريح أجسادنا ونحن على قيد الحياة » .

كان هذا الرد الحاسم هو منطلق الحملة العاصفة التى شنتها الصهيونية والاستعمار على السلطان عبد الحميد عن طريق الصحف العربية التى كان يصدرها المارون اللبنانيون خصماء الاسلام والخلافة الاسلامية وهم الذين حملوا على السلطان تلك الحملات الضخمة (المقطم ـ المقتطف ـ الهلال) .

أمثال : جرجى زيدان ، فارس نمر ، صروف مكاريوس ، سليم سركيس ، لويس صابونجى ، وما أطلق عليه من اسم السلطان الاحمر ، وما ذهبوا يلفقونه من اتهامات كاذبة عن الدردنيل ومن يلقى فيه وعن السجون والاحكام مما ثبت من بعد أنه وهم باطل حتى لقد قال أحدهم لجماعة من السوريين زاروا تركيا وركبوا فى الدردنيل مركبا : قولوا لنا اسم رجل واحد ألقاه السلطان أو أمر بالقائه فى الدردنيل !

ولكنها كانت المحاولة لتدمير السلطان وسمعته وهدم مواقفه الكريمة قبل التآمر عليه ولقد عاشت الصحف ودراسات المدارس والمؤرخين تحمل هذه الاكاذيب سنوات وسنوات حتى تكشف فى الاخير فساد هذه الاباطيل والادعاءات .

يقول حسان حلاق فى أطروحته « فى الوقت الذى كانت المؤامرات تحاك فى الخارج ضد الدولة العثمانية ، كانت مؤامرات تحاك فى الداخل تضم مجموعات تركية ويهودية بتشجيع

من الدول الاستعمارية وكانت تهدف الى قلب نظام الحكم وخلع السلطان عبد الحميد الثانى عن العرش ، ذلك لان السلطان كان العقبة التى تقف فى طريق الصهيونية الى فلسطين ويؤكد القنصل البريطانى الجديد فى القدس ـ بلش ـ عام ١٩٠٨ المصاعب التى وضعها السلطان عبد الحميد الثانى فى مواجهة الاستيطان اليهودى فى فلسطين ويمكن القول أن اليهود لعبوا دورا فعالا فى انقلاب عام ١٩٠٨ .

ويؤكد ستيون واتسون هذه الحقيقة بقوله : « ان أصحاب العقول المحركة لحركة الانقلاب والترقى عام ١٩٠٨ كانوا يهودا ومن الدونمة اما المساعدات المالية فانما كانت تصلهم عن طريق الدونمة ويهود سالونيك المتمولين . وتقول صحيفة المشرق : (بأن الكل يعلم أن مركز الانقلاب انما كان فى سالونيك واليهود فيها نيف وسبعون ألفا) وهناك معلومات تؤكد أن الحقيقة الظاهرة فى تكوين جمعية الاتحاد والترقى انها غير اسلامية وغير تركية فمنذ نشأتها لم يظهر بين قادتها وزعمائها عضو واحد من أصل تركى خالص .

كان جاوين يهوديا من الدونمة وقارصوه من اليهود الاسبان وطلعت بلغاريا اما أحمد رضا فقد كان نصفه شركسيا والنصف الآخر مجريا ، اما نسيم روسو ونسيم مازلياح فقد كانا يهوديين . ويقول : ويبرز دور اليهود ثانية فى حادثة خلع السلطان عبد الحميد الثانى عندما مارس الاتحاديون الضغوط على مفتى الاسلام محمد ضياء الدين باصدار فتوى الخلع ثم أوفدوا هيئة مكونة من عارف حكمت وأسعد طوبتاني وغالب باشا ومن زعماء اليهود قراصوه

رئيس المحفل الماسوني في سالـونيك وشلمـون ابران ووصلوا الى يلذ لابلاغ السلطان نبأ الخلع .

وكانت مشاعر التأثر والانزعـاج باديـة عليه فقـال بغضب : ما هو عمل هذا اليهودي . (يقصد قراصوه) في مقام الخلافة . بـأي قصد جئتم بهذا الرجل أمامي . ويذكـر النقيب التركي (ديبـريلي) بأن السلطان عبد الحميد حدثه عندما كان مسجوناً في سلانيك عن آخر اجتماع له مع الزعيم الصهيونى هـرتزل ورئيس الحـاخامين في تركيا فقال :

«تصور ان هذين اليهـوديين مثلا امـامى ليقـدمـا الى سلطنتنـا رشوة . صرخت فى وجههما قائلا : ان أخرجا من هنا ، ان الـوطن لا يبـاع بالنقـود . طلبت الى رجال القصـر أن يقـودهمـا حـالا الى خارج القصر . وبعد ذلك أصبح اليهود أعـدائى فما ألاقيـه هنا فى سـلانيـك من عـذاب الاعتقـال ليس سـوى جـزائي منهم حيث لـم أرض أن أقتطع لهم أرضا لدولتهم المزعومة » .

ويذكر السلطان نفسه فى وثيقة على قـدر من الاهمية مـوقف الاتحاديين والصهيونية من سياسته .

فيقول: «أن هؤلاء الاتحاديين اصـروا عليّ بأن أصـادق على تأسيس وطن قومى لليهود فى الارض المقدسة ـ فلسطين ـ ووعـدوا بتقـديم مائـة وخمسين مليـون ليـرة انجليـزيـة ذهبـا فـرفضت هـذا التكليـف بصـورة قطعيـة وبعـد جـوابى القـطعى اتفقـوا على خلعى وابلغونى أنهم سيعيدوننى الى سلانيك » .

والمعـروف أن السلطان عبد الحميـد أقام اقـامـة جبـريـة فى

سالونيك (مقر الدونمة اليهود) منذ عزل عام ١٩٠٩ الى عام ١٩١٦ حيث توفى الى رحمة اللّه فى اقامة مجهدة سيئة .

ولا ريب أن مذكرات السلطان عبد الحميد التى نشرت أخيرا باللغة العربية قد كشفت كثيرا من الحقائق وجلت موقف هذا الرجل المسلم العظيم ، ودحضت تلك الصور الزائفة التى حشدها فى تاريخه الظالمون من الدونمة واليهود والاستعماريين والموارنة فى تلك الكتب التى سبق أن ترجمت الى العربية من مثل كتاب (عبد الحميد ظل اللّه على الارض) أو قصة الانقلاب العثمانى لجرجى زيدان وغيرها ، لقد عاشت هذه الحقائق مدفونة فى الاضابير أكثر من خمسين عاما حتى أذن اللّه لها بأن تكشف وأن توضع الحقائق فى مكانها الحق وان تصحح وقائع التاريخ .

لقد كشفت المذكرات كيف كان السلطان عبد الحميد ضحية مؤامرات صهيونية واستعمارية غاشمة كانت تهدف الى تقويض دعائم الخلافة وتفكيك أوصال الدولة العثمانية وان الخليفة واجه الاغراء والتآمر جميعا بإباء وشمم اسلامى وكان يعرف مصيره ، ولكنه آثر رضاء اللّه على رضاء اليهود ومطامع الدنيا .

وقد أشار السلطان فى مذكراته الى ما ظل منشورا أكثر من خمسين عاما من كذب وبهتان حين قال : «ان الامة تنسى بسرعة ، اقولها مستميحا العذر للذين يجادلوننى سياسيا دون تبصر بما يدور من وراء الستار من ألاعيب وما تهيئه الدول الكبرى من مؤامرات عدوانية . لقد اتهمونى بالخور لاننى لم أشترك بالحركات القومية قلبا وقالبا . لعلهم ينسون المآسى التى جابهتها » .

لقد تحدث السلطان عن الدسائس الاجنبية والفساد فى

أجهزة الحكم والحملات الصليبية على الدولة وتحدث عن ثروته ومخصصاته وكيفية انفاقها وما ترتب عليه من التزامات وواجبات .

مصطفى كمال

لقد كان القضاء على السلطان عبد الحميد مقدمة للقضاء على الخلافة الاسلامية ، وكان بطل هذه المرحلة مصطفى كمال : الذى أطلق على نفسه زورا وبهتانا (أتاتورك) أى أبى الشعب التركى . ولقد الفت فى تمجيد أتاتورك وتكريمه مئات الكتب بلا مبالغة استهدفت خلق هالة متوهجة كاذبة لهذا الرجل الذى حطم طابع الاسلام فى دولة الخلافة ونقلها من أقصى مكان فى خدمة الاسلام الى أقصى مكان فى خصومه الاسلام ومعارضته ويكفى أن يراجع المثقف المسلم رءوس الموضوعات التالية :

- ألغى الحروف العربية وفرض الحروف اللاتينية حتى فى طبع المصحف الشريف .

- ألغى الشريعة الاسلامية وفرض قوانين الأحوال الشخصية .

- حرم تعدد الزوجات وجعل القضاء وحده هو الفصل في طلب الطلاق .

- عدل قوانين المواريث الاسلامية فسوى بين الابن والبنت .

- أباح للمرأة الخروج والرقص والسفور ودفعها دفعا الى مجالات الهوى والفساد .

- أباح للمرأة المسلمة أن تتزوج بمن تشاء من أى دين .

ـ قرر الغاء الأوقاف الاسلامية .

ـ جعل للدولة علمانية وقرر أن الدين قضية شخصية لكل فرد .

ـ ألغى الخلافة الاسلامية والمحاكم الشرعية وقوانين الشريعة الاسلامية وقرر العمل بالقانون المدنى السويسرى والجنائى الايطالى والتجارى الالمانى .

منع التعليم الدينى ومنع الاذان بالعربية وحطم الاساس الدينى وغير وجهة الشعب التركى .

ولقد خدع مصطفى كمال المسلمين فى المرحلة الاولى من حياته ولكنه ما أن تمكن من امتلاك ارادة الحكم حتى كشف القناع عن عداء سافر للاسلام حتى وصف بأنه واحدا من ثلاثة اما من طائفة الدونمة او من الماسونية وقع فى حبائل اليهودية العالمية او من فلاة الطورانية التركية .

وقد كانت حياته الشخصية مثالا رديئا للحاكم المسلم فقد عرف باسرافه فى الخمر وعلاقات الفساد والاعتداء والسطو والقتل بالظنة ، وكشفت تصرفاته عن تعرضه للدين عامة وللاسلام بصفة خاصة ، ويرجع ذلك الى انه كان تلميذا اصيلا لتعاليم ضياء كوك الب ، داعية الطورانية وعودة الأتراك الى أجدادهم القدماء والتنكر لتاريخهم الاسلامى .

ولقد كان أشد قسوة بالنسبة لرجال الاسلام الذين عارضوه ودفعوا الناس الى مقاومته والتخلص منه .

وقد كشف الضابط التركى السابق فى كتابه (الرجل الصنم)

كمـال أتاتـورك الذى تـرجمه الاستـاذ عبد اللّه عبـد الـرحمن هـذه الجوانب المظلمة والغامضة والسوداء من حياة هذا الرجل على نحو واضح صريح ، وكانت آية الآيات فى حياته هو ذلك الولاء المزدوج لبريطانيا وروسيا الشيـوعية فى آن ، ولقـد تكشف أن هناك معـاهدة سـرية أقـرها مصـطفى كمال وبهـا أعطى حق الحكم والسلطان فى تركيا يتضمن عدة مبادىء أهمها :

ـ الحكم بالنظام الفردى واسقاط الشريعة الاسـلامية وتـطبيق القانون الوضعى .

ـ القضاء على علماء الاسلام واخراجهم من البلاد .

ـ القضاء على الخلافة الاسلامية .

ـ القضاء على القرآن واللغة العربية .

والمراجع لحياة كمال أتاتورك يبين له بوضـوح أنه قـام بتنفيذ هذه المعاهدة السريـة التى قيل انهـا كانت مـرفقة بمعـاهدة لـوزان تنفيذا صحيحا .

ان هذا الكتاب يقدم مجموعـة ضخمة من الـوثائق عن حيـاة مصطفى كمال لا يستـطيع البـاحث المنصف ان يتجاوزهـا دون أن يسجل بعض الخيوط العامة .

أولا : عن صلته بالانجليـز : وما تحمله الـوثائق مشيـرا الى عبـارة : قيامـه ببيع الـوطن الى الانجليـز (ص ٤٧٣) وان البـطل الحقيقى لمعارك أزمير هو (قره بكير) وليس مصطفى كمـال . وانه كان يعمل ديكتاتورا ويدير الدولة مثلما تدار مزرعة ، وانه كان يقـوم بفرض رأيه على كل عمل وتقول (ص ٤٨١) بعد أن حصـل على

منصب القائد العام بالحيل والطرق الملتوية لم يدع هذا المنصب يخرج أبدا من يديه وقد قام بواسطة رجاله الفدائيين من تهديد معارضيه والقضاء عليهم ولم يظهر فى الجيش العثمانى عسكرى ظالم وحريص على المنصب الى هذه الدرجة مثله . استولى على مساعدات العالم الاسلامى (ص ٤٨٩) نفذ كل ما طلبه منه الانجليز :

١ ـ ترك الموصل .
٢ ـ ترك الجزر لليونانيين .
٣ ـ تنازل عن كل الحقوق حول مصر وقبرص .
٤ ـ تنازل عن طلب التعويضات من اليونان .
٥ ـ عدم تحصين المضايق أو وضع جند حولها وتجريد المنطقة الممتدة من مضيق البحر الاسود حتى مضيق (خبه قلعة) .
٦ ـ ألغى الخلافة .
٧ ـ ألغى العلمانية (ص ٤٩٠) .

كذلك كشفت هذه الوثائق عن أنه ماسونى (أورد ذلك فالح رفقى أثارى) مؤلف كتاب (جانقايا) يقول : (لو لم يكن مصطفى كمال ماسونيا فمن كان يتطاول الى الانتساب الى مثل هذه الجمعية السرية فى عهده . (ص ٤٩٢) كذلك أشارت الوثائق الى موضوع الاتصال بالنساء وطالبات المدارس ، مما كان حديث المجالس .

ويشير الكاتب الى أخطر موقف فى حياة مصطفى كمال وهو الغاء الخلافة : يقول الكاتب انه عندما عرض الامر على الهيئة المكونة لبحث الامر تردد الاعضاء فوقف يقول :

«ان هذا أمر محتم ، انى أرى أن من المستحسن أن يوافق المجتمعون هنا وأعضاء المجلس وكل واحد ولكن اذا حدث العكس فان هذا الامر سينفذ وفى اطار المجرى الطبيعى ولكن من المحتمل أن بعض الرءوس ستقطع » .

سعيد النورنسى

ولكن هذه السنوات المظلمة لم تمر دون مقاومة ، فقد ظهر كثير من دعاة الحق يكشفون زيف اتجاه مصطفى كمال وكان أبرزهم الشيخ بديع الزمان سعيد النورنسى ، الذى كان قد حضر الى استانبول من شرقى تركيا فى عهد السلطان عبد الحميد يطلب فتح المدارس وانشاء جامعة فى ديار بكر وتطوع للقتال وأسره الروس ونفوه الى سيبيريا ولكنه تمكن من الفرار والعودة الى تركيا فانضم الى حركة مصطفى كمال التى كانت تستهدف تحرير الوطن ثم اختلف مع أتاتورك حين ظهر الانحراف فنفته السلطة الى غرب البلاد فظل بين نفى وسجن وتحديد اقامة من ١٩٢٨ الى ١٩٥٠ ألف خلالها ألف ومائة وثلاثين كتاب سماها (رسائل النور) شرح فيها الاسلام بأسلوب استهوى الشباب فتناقل الناس هذه الرسائل نسخا باليد وأصبح قراء هذه الرسائل يسمون طلاب رسائل النور أو جماعة نور جو وبلغ عددهم ثلاثة ملايين شاب تركى وقد أصبحت هذه الجماعة القوة الحقيقية فى الجامعات التى سحقت حزب الشعب (حزب أتاتورك) وعزلت عصمت اينونو خليفة أتاتورك من الحكم .

والواقع أن سعيد النورنسى كما تقول مريم جميلة فى كتابها

عنه كان رجلا عالى الايمان مقتدرا فى فهم الاسلام تقول : « كانت روحانيته العالية فوق المحن والامتحان » ولذلك فانه ما كاد يدخل السجن حتى أصبح سجانوه من تلاميذه ومن أحسن الناس تدينا وغيرة على العقيدة ، فقد تهافت زواره فى عزلته على استنساخ ما تنتجه عبقريته المؤمنة بحيث لم يمر وقت قصير حتى كانت عشرات الآلاف من مخطوطات هذا التفسير تتناقلها الايدى وتدرس فى المدن والقرى والمدارس وحتى الوزارات : يقول بديع الزمان النورنسى : لقد أتاحت لى آلام المنفى والسجن والاعتقال فترة هدوء وصفاء أتاحت لى التأمل فى الحقيقة القرآنية الخالدة .

غير ان السلطات لم تدعه يعمل ، فعمدت الى تلفيق تهمة ضده وضد مائة وعشرين من أتباعه ومريديه ساقتهم الى محكمة الجرائم فأخذ يدلى بدفاعه أمامها فقال : الحق اننى لا أنوى بأى حال من الاحوال الاستيلاء على زمام الحكم ، وكل ما أسعى اليه هو أن أهدى قومى الى الصراط المستقيم صراط اللّه العزيز الحكيم . نحن لا ننتمى لاية نحلة من النحل ولا ندعو لعصبية ولا لفرقة ولكننا أنصار متحمسون للحقيقة : اللّه غايتنا والرسول قائدنا والشرع الشريف دستورنا . اننا لا نملك أي تنظيم خاص ونحن بمعزل عن السياسة وكتابنا رسالة النور مدرسة بدون مدارس ولا مناهج ولا أموال ، انها مدرسة روحية كتابها القرآن المنزل .

ثم أضاف يقول : لقد أكد وكيل الاتهام بأنه بلغ من مدى ذيوع (رسالة النور) أن قرأها عام ١٩٤٧ ستمائة ألف شخص منتشرين عبر اقليم الاناضول من أساتذة وعمال وفلاحين وطلبة وموظفين ، وماذا فى ذلك ؟ فقد أدت تلك القراءة بواحد منهم الى

اهمال واجباته أو الانقطاع عن نشاطه ، وهل قام واحد منهم بتهديد الامن العـام أو خرق دستـور البـلاد ، اذا فكيف تبيحـون لانفسكم غلق هـذه المدرسـة التى تنبع أصـولها من قلوب مثـل هـذا العـدد العـظيم من المواطنين الاتـراك .

ان البعض يأخذ باعتمادي طربوشا على رأسى ويرى عدم خلعى له اهانة لمجلسكم الموقر . تذكروا أنهم قلة أولئك الذين استبدلوا عن طـواعية ورضـا عمائمهم بغـطاء الرأس الأوروبي واذكروا ان الملايين من الأتراك أكرهـوا على ذلك الاستبـدال اكـراهاً ويجـري ذلك في الـوقت الذي يتـاح فيه للمـاسونيين وأشيـاعهم من أن يسخروا ـ بكـل حريـة وفي جرأة ووقـاحة ـ بـالاسلام وأن يمتـدحوا ويمجـدوا ملذات الخمور وان يـزينـوا الـزنى وان يشوقـوا الناس الى القمـر ، فى حين يحـرم عليّ وعلى أتباعى أن نذيـع وننشر رسـالة القـرآن المجيد وأن نـدعو الى اللّه ، أنكم تتهمـونى بـأننى رجعى شـريـر وأنتم تعلمـون اننى من أبـطال الوطنية منذ نعومة أظفارى وانى أخص النمل بجانب راتب من قوتى اعجابا منى بتنظيمها الديمقراطى ، وأنكم لتـزعمون اننى أدعـو الى ضرب من التصوف .

وأنـا أؤكد لكم أن الجنـة ليست للمتصوفـة وحدهم ، ولكن من المؤكد أنه من المستحيل أن يدخل الجنة من لا يؤمن باللّه ولا يلتـزم بشرعـه فى ظرف عشـرين سنـة تعـاقبت أثنـاءهـا على دست الحكم ثلاث حكومات من لدن أتاتورك حتى الآن وفى خـلال هذه الفترة مثلت أمام محكمتين ولكن أية منهما لـم يتوفر لديها أى دليـل على ادانتي ، بله تلك القرية التى تزعم اننى عدو لتركيا واذا كان الامر كذلك فاتركونى لاداء رسالتى .

ثم لم يلبثوا أن أحالوه مرة أخرى الى المحاكمة . قال : «أتفترضون أيها الحكام اننى أعمل لغاية نفعية . ها أنذا أمامكم شيخ يحمل على كتفيه أثقال الثمانين ، رجله فى القبر ، فقير لا يملك شيئا من متاع الدنيا لا مالا ولا عقارا فماذا تروننى صانعا وأنا فى هذا السن بمتع الحياة الدنيا ، لقد قضيت حياتى فوق ساحات الوعى ، كما عانيت الاعتقال فى محتشدات الاسرى ، وعشت طريدا فى المنافى والسجون ، لقد طاردتمونى من مكان لآخر ، وابعدتمونى من مدينة لغيرها كأننى متشرد منبوذ من المجتمع .

ولم تتورعوا حتى من حرمانى من الاتصال بأهلى وأقاربى وأصدقائى ولو لم يكن ايمانى واحتسابى يعصماننى من الوقوع فى وهدة اليأس لاستطبت الموت وفضلته على مثل هذه الحياة المنغصة ولكن هذه الحياة على غصصها وآلامها أتاحت لى أن أكتب « رسالة النور » التى بفضلها أتيحت السلامة من العذاب الدائم لما يزيد عن النصف مليون من الناس ، فاللّه أحمد ألف مرة واياه أشكر أن وفقنى للتضحية من أجل شعبى . ان عذاب النار أو نعيم الجنان عندى سيان اذا ما حجة القرآن فى هذه الدنيا لاننى وان أكن منعما فى الجنة فاننى لاشعر بدبيب الالم يمشى فى أعماق نفسى اذا ما حصل ذلك . بيد أننى لاشعر بسعادة عارمة تملأ على نفسى اذا سلمت العقيدة فى وطنى تركيا . ولو كنت أعذب فى أعماق الجحيم » .

وهكذا قيض اللّه لتركيا رجلا حفته رحمة اللّه من أن يشنق أو يقتل حتى أدى رسالته فمن سعير هذا الجحيم ، نشأ وكتب ، وحفظ اللّه له ما كتب فوصل الى كل مكان وانتفعت به الملايين ،

وحرر الفكر الاسلامى التركى من التبعية .

وكـان النورنسي عـالما بكـل أساليب الاتحـاد والتـرقى والكماليين ، مؤمنا بأن دعوة القرآن هى المنطلق الوحيد لـلاصلاح ولانقـاذ المسلمين . « لم ينفك يـدعو الشعب بحـرارة وايمـان الى التمسـك بأهـداف القرآن الكـريم كما لم ينفـك يحذر مـواطنيه من الوقوع فى حبائل الغرب مبينا لهم أن البـديل الـوحيد لـلاسلام هـو العبودية للغرب وأن المسير فى ركـاب الغرب يؤدى حتمـا الى فناء الذاتية وذوبان الشخصية » .

ولقد كانت عباراته أمام محاكميه مليئة بالايمان والقوة :

« لـو كنت أملك ألف روح ، لضحيت بهن الـواحـدة تـلو الاخرى طائعـا مختارا فى سبيـل الذود عن الاسـلام ، ان أى عمل يتنـاقض مع الاسـلام ما هـو الا باطـل فى اعتقادى واننى فى هـذه اللحـظة لاضع قـدمى على أبواب البـرزخ فى انتـظار الـرقـدة التى ستقـودنى الى العالم الآخـر ، وأنا مـطمئن ومستعد كـل الاستعداد للرحيـل الى الدار البـاقية ، لالحق بـاخـوانى الـذى أنقـذهم قـرار محكمتكم الجـائـر من حيـاة الـطغيـان والعلو فى الارض بغيـر الحق » .

وفى كـل مكان كـان يـدافـع عن الحق : « لـو أن المسلمين أخلصـوا لعقيدتهم ودافعـوا عنها بكـل قوة وايمـان لامكن أن تحـل الحضـارة الاسلاميـة محل الحضـارة الغربيـة التى ينخـرهـا سـوس الاطماع الخسيسة والشقاق بالاضافة الى أنها خاويـة من كل اتجـاه روحى » .

وتعرض للموت أكثر من مرة ، عندما حكموا عليه بالاعدام ثم أطلقوا سراحه وعندما أسره الروس فى الحرب العالمية الثانية وحكموا عليه بالاعدام ثم عفى عنه .

ولقد كان يهز الناس كلما تكلم حتى أعضاء برلمان أتاتورك حين وجه اليهم مذكرة من عشر نقاط قال فى مقدمتها :

اتقوا يوما تقفون فيه أمام اللّه سبحانه ولايغرنكم انتصاركم بالامس على العدو لتفسدوا هذا النصر بسلوك فخر ، انكم ان تختاروا تقليد الاوربيين فانكم ستفقدون عطف ومؤازرة العالم الاسلامى الذى سيتحول عنكم الى جهة أخرى » فكان من أثرها أن التزم مائة وستون نائبا على الالتزام بشعائر الاسلام فى حياتهم وسلوكهم .

وقد حاول مصطفى كمال أن يستدرجه لموالاة نظامه عن طريق الاغراء المادى ، فعرض عليه أن يكون الامام الاكبر لاقليم الاناضول ، ولكن بديع الزمان كان فوق كل اغراء ، وفضل الانزواء والبعد عن ضجيج المدن ، حيث نصب نفسه داعية الى اللّه فاجتمعت اليه هذه البذرة التى نمت من بعد وسرعان ما التفت الفئة الحاكمة الى هذا النشاط وعملت على تعطيله وأبعدته الى منطقة نائية فى أعماق تركيا ظل مبعدا بها ثمانية أعوام محروما من الاتصال بأفراد أسرته وأهله .

ومات أتاتورك عام ١٩٣٨ وعاش النورنسى الى ١٩٦٨ ، وثلاثون عاما بعد أتاتورك أفسح اللّه فيها العمل لدعوة الحق ، ومات ليلة السابع والعشرين من رمضان ليلة القدر عن ست وثمانين

سنة ، بعد أن تترك ذلك التراث الطيب وتلك الجماعة المؤمنة التى هى عماد النهضة الاسلامية فى تركيا اليوم .

نجم الدين أرياقان

ومن نقطة (رسائل النور) بدا التحول فى تركيا الاسلامية مرة أخرى عودة الى المنابع ، ويرى المؤرخون أن انتخابات عام ١٩٥٠ يعتبر نقطة التحول فى تاريخ تركيا الحديث ، كانت بدأ سقوط ذلك الفكر العلمانى الفاسد الذى سيطر على تركيا وهزيمة حزب الشعب : حزب أتاتورك ، فقد كان حزب عدنان مندريس (الحزب الديمقراطى) قد قدم برنامجا ضخما يتضمن عودة الاذان بالعربية ، والسماح للاتراك بالحج ، واعادة تدريس الدين بالمدارس واعادة أيا صوفيا مسجدا ، ومن ثم فقد حصل على ثلاثمائة وثمانية عشر مقعدا وسقط حزب أتاتورك الذى حصل على (٣٢ مقعدا) وكان من مطالع التحول الجديد :

ان عقد عدنان مندريس أول جلسة لمجلس الوزراء فى غرة رمضان واعاد الاذان باللغة العربية وبدأ تعمير المساجد واستعادت الحكومة المساجد التى باعها أتاتورك وتقرر تدريس الدين بالمدارس ، وفتحت مدرستان للائمة وفتح خمس وثلاثين ألف مدرسة لتحفيظ القرآن .

ومن قلب هذه الاحداث نشأ حزب السلامة الوطنى الذى اقترن اسمه باسم الدكتور نجم الدين أرياقان أستاذ الميكانيكا فى الجامعة التكنيكية باستانبول .

وبذلك برز فى تركيا فى وضوح اتجاه اسلامى واضح وعميق

من خلال التحرك السياسى .

وكان حزب السلامة علامة على الفكر الوطنى الاصيل الذى يستمد جذوره من الاسلام ، وسطا بين حزب الفكر الحر الليبرالى (حزب العدالة) والفكر اليسارى (حزب الشعب الجمهورى) .

وبذلك أصبح حزب السلامة عامل الموازنة فى الحياة السياسية التركية . وقد كانت بيانات حزب السلامة تعلن دائما أنها تهدف بالوصول بالامة التركية الى أن تنهض معنويا وماديا ، وأن الشعور الوطنى للامة كل لا يتجزأ ، والشعب التركى مرتبط بماضيه يحترم تراثه وعرقه ويحافظ عليهم وهو بعيد عن كل تقليد مدرك تمام الادراك لشخصيته الاصيلة .

ويقرر حزب السلامة : ضرورة الغاء الربا بكل حزم والقضاء على الاسراف . وقد أعلن برنامجا طويلا للتصنيع ومنها المصانع الحربية بدلا من الخضوع للدولة الاجنبية .

ويقول نجم الدين : نريد ان تكون تركيا دولة رائدة ، وليست تابعة تدور فى فلك الآخرين .

وقد قام الحزب خلال اشتراكه فى الحكم بتخصيص ٤٠ مليون ليرة تركية لمشروع جامع القرية ، وتخصيص ميزانية جديدة لكادر الائمة والمؤذنين ومدارس تحفيظ القرآن ، ووجه الحزب عناية واضحة لمدارس الائمة والخطباء .

كذلك حمل الحزب على المطبوعات المخلة بالآداب ، أقام أكاديمية للعلوم الاسلامية واعد لها قانونا بالفعل وضاعف عدد المعاهد الاسلامية العالية .

وكشف نجم الدين عن فساد الفكر الوافد سواء الاشتراكى منه او الرأسمالى : فقال عن الاول انه فكر يهدد الحريات ويضر بالكيان القومى ويركز على مصادر أجنبية اما الفكر الرأسمالى فهو فكر يقوم على الربا ومصدره أجنبى ايضا اما حزب السلامة فيمضى فى طريقه رافعا راية الاخلاق والاصالة وقال ان النظام الرأسمالى والنظام الاشتراكى لا يقتصران على ميدان الاقتصاد وانما يمتد تأثيرها الى الميدانين الاجتماعى والمعنوى ورغم اختلاف النظامين فى الظاهر فكلاهما مادى وكلاهما نفعى كلاهما يريد ربط الامم الاخرى به ثقافيا وكلاهما يعمل على النهوض بالجانب المادى فى مقابل انحطاط فى الاخلاق والمعنويات وكلاهما يزداد ارتفاعا ماديا مع هبوط فى الثقافة والاخلاق .

وفى مختلف ميادين السياسة الدولية قدم نجم الدين مفاهيم اسلامية أصيلة : وقد لخصت جريدة انزيجر الالمانية هذا التحول الخطير بقولها : «أن عودة الاسلام لتركيا ومخالفتها بذلك لاسس الدولة العلمانية التى أرسى أتاتورك دعائمها لمثار تفكير من قبل جهات عدة ، ان المستفيد من هذا كله حزب السلامة الذى هو ضد عضوية تركيا فى حلف شمال الاطلنطى ودخول تركيا عضوا فى السوق الاوربية المشتركة .

ولقد دعا نجم الدين الى ضرورة تطوير علاقات تركيا بالعالم الاسلامى من جميع الوجوه وان لا تظل هذه العلاقات صورية وانما يجب أن تكون علاقات فعلية متطورة ، حيث أن فى العالم مايقرب من خمسين دولة اسلامية يبلغ سكانها مليارا وهذه الدول الاسلامية سوق طبيعية قوية لانتاجنا » .

وهكذا حدث تحول كبير فى تركيا بعد أن ظل حزب الشعب الذى أنشأه مصطفى كمال أتاتورك ١٩٢٣ ـ ١٩٥٠ حزبا علمانيا وعندما مات أتاتورك ١٩٣٨ خلفه عصمت اينونو فى رئاسة الحزب ، ومنذ عام ١٩٥٠ لم يستطع هذا الحزب ان يحكم بمفرده وان دخل أحيانا الوزارة فى ائتلاف مع احزاب أخرى ، ويعبر حزب السلامة رسميا عن اتجاهاته بعبارات الاخلاق والمعنويات والعودة الى التراث والمحافظة على المقدسات ، وقد كان من أثر ذلك انه عندما مات خليفة اينونو رفض الشعب الاشتراك فى الجنازة ولما حملوه الى احد المساجد رفض الامام ان يصلى على جثمانه .

وترك المسجد وظلوا يتنقلون به من مسجد الى آخر حتى عثروا على شيخ يقوم بهذه المهمة وما كاد الشعب يعرف ذلك حتى حاصر المسجد وهم بخطف الجثمان ولم تتم الصلاة على جثمانه الا فى حماية الجيش .

ولم تكسب تركيا من التجربة شيئا ، قال اقبال : «انكم أيها الاتراك أخذتم جوار اوربا وصحبتها مع انكم كنتم بفضل الاسلام على مقربة من النجوم والكواكب » ويقول أرنولد توينبى ان تركيا عندما تغربت أصبحت عالة على التكنولوجيا الغربية ولم تستطع ان تقدم شيئا ، وقد ظلت تركيا حتى يومنا هذا متخلفة بمقاييس التقدم والحضارة لم يعترف بها الغرب كدولة أوربية وما علاقتها بالغرب الا علاقة الاحلاف والتبعية .

ولقد كان من أبرز عوامل التقارب مع العالم الاسلامى : انعقاد مؤتمر السيرة النبوية بتركيا عام ١٩٧٧ فقد أحدث شعورا طيبا بتعميق هذا الاتجاه الاصيل .

ولقـد كـان من أبـرز أحـداث هـذا المؤتمـر ، ان تم بين المؤتمرين الى عقد اتفـاق يجدد واجبـاتهم نحو عقيـدتهم وبلادهم وقد حرر الاتفاق على صيغة تعهد التزم به المسئولون عن الصحافـة الاسـلاميـة التى شـاركت فى المؤتمـر . ركـز الميثـاق القـول بـأن الاسـلام يدعـو الى تثبيت الاخوة الاسـلاميـة ومحـاربـة كـل فكـرة عنصرية او سلالية ولـذلك فـان الصحافـة الاسلاميـة تلتزم بـالعمل لتثبيت فكرة الاخوة بين مختلف الشعوب الاسلامية .

وهكذا تزحف تركيا مرة اخرى بقـوة الى استعادة مكـانتها فى عـالم الاصالـة والقيم وحضارة الاسـلام وتحطم مـا عـاقهـا خـلال خمسين عاما عن أداء دورها المرموق .

الباب الثامن

الدرة المغتصبة بعد ثلاثين عاما

هناك وقفة مستأنية تحتاج الى دراسة ومراجعة للنفس المسلمة والعربية بمناسبة مرور ثلاثين عاما على احتلال فلسطين وما تزال الخطط قاصرة عن استيعاب هذه القضية الكبرى وهذا الحدث الخطير وقد تكشفت فى السنوات الاخيرة حقائق كثيرة : أبرزها ان وراء قيام اسرائيل مخطط يهودى استعمارى عالمى يستهدف قيام امبراطورية الربا وتنفيذ مخططات بروتوكولات صهيون التى تستهدف السيطرة الاقتصادية والاجتماعية والسياسية على العالم كله عام ١٩٩٨ .

وان المرحلة التى يمر بها المخطط اليوم هو محاولة احتواء عالم الاسلام وفكره وعقيدته بعد أن استطاعت التلمودية الصهيونية احتواء عالم الغرب .

وان الخطة مرت فى عدة مراحل : أولاها محاولة احتواء الدولة العثمانية والسيطرة على السلطان عبد الحميد وفشل هذه المحاولة والتخطيط لتمزيق الدولة واسقاط السلطان وقيام الدونمة بهذه الخطة من خلال المحافل الماسونية وحزب الاتحاد والترقى

الـذى احتوتـه الصهيونيـة ومنذ أسقط السلطان عبـد الحميد ١٩٠٩ فقد انفتح الطريق الى فلسطين عن طـريق الاتحاديين حكـام تركيـا الـذى أسلموهـا الى الهزيمـة فى الحـرب العـالميـة الاولى ، كمـا سلموا طرابلس الغرب للاحتلال الايطالى وكان ذلك مقدمة لاسقاط الخلافة الاسلامية عام ١٩٢٤ ولوعـد بلفور ١٩١٨ وتـوسع الهجـرة اليهودية الى الحد الذى مكن من اتمام مؤامرة قيام اسرائيـل ١٩٤٨ ثم احتلال القدس ١٩٦٧ وقد كشفت الوثائق خلال هـذه الفترة عن خـطة ترمى الى تهجيـر يهود العـالم الى اسرائيـل واقامـة اسرائيـل الكبرى من النيل الى الفرات وكانت أبرز الظواهر فى الفترة الاخيرة هجرة اليهود السوفييت بأعداد ضخمة الى اسرائيل .

وان كان ايضا من الظواهر الواضحة ارتفـاع عدد المهـاجرين الى خـارج اسرائيـل وكذلـك كشفت التصريحـات التى جرت على ألسنة قادة اسرائيل هدف تدمير الحضارة العـربية الاسـلامية واقـامة الحضارة العبرية على أساسهـا ، كما كشفت عن هـدف اعادة بنـاء هيكل سليمان فوق أرض المسجد الاقصى .

وحيث يوجد اليوم فى فلسطين المحتلة حـوالى ثلاثـة ملايين نسمـة ، فـان فى العـالم مـا يتـراوح بين ١٣ و ١٨ مليـون يهـودى يقيمون بين امريكـا الشماليـة والاتحاد السوفييتي وتستهدف الخـطة جمع هؤلاء تحت راية اسرائيل ولـذلك فـان فكرة التـوسع هى من العوامل المقدمة فى النظرة اليهوديـة على مسألـة الامن وذلك جـريا وراء مخـطط امتلاك القـوة الاقتصـاديـة التى تحـاول السيـطرة على مقدرات البلاد العربية .

ولا ريب أن هـذا المخطط فـاسد من أسـاسه لانـه يقوم على

الاعتماد على معونة الدول الغربية وانه بعد ثلاثين عاما لم تستطع اسرائيل أن توجد لها كيانا اقتصاديا ذاتيا يمكنها من القيام بنفسها فضلا عن ذلك الشتات المنوع المتضارب المجموع من مختلف بلاد العالم والذى لا يمثل روح أمة أو وطن ، فضلا عن تلك التفرقة العميقة بين يهود المشرق ويهود الغرب كل هذه العوامل فضلا عن الوجود غير الطبيعى على الارض العربية من شأنه ان يكشف عن فساد قاعدة الاستمرار او البقاء ويجعل الفناء محتوماً ، لا سيما وان القوة العسكرية العربية تنمو يوما بعد يوم بالاضافة الى مقدرات الثروة والطاقة والتفوق البشرى .

ولقد تعالت أصوات دعاة الاسلام الى تعديل أسلوب العمل بجعله اسلاميا واتخاذ منهج الاسلام بالجهاد طريقا الى تحقيق الغاية وتقريب موعد النصر ولقد كانت تجربة (رمضان) وما تزال علامة على الطريق .

ان هناك محاولة ضخمة لتسميم عقول المسلمين والعرب بعد التحول التاريخى الذى اتجه اليه المسلمون والعرب حين التمسوا منهجهم الاصيل فى العاشر من رمضان :

هذه المحاولة تستهدف فرض تفسير زائف للتاريخ الاسلامى الحديث يحاول أن يجعل من (اسرائيل) وجودا .

أقامته أوربا والغرب وكأنه ليس وجودا قائما بذاته من وراء مطامع الصهيونية العالمية وبروتوكولات صهيون ولا ريب ان المروجين لهذه السموم هم الماركسيون والتقدميون واليساريون ، الذين كانت الماركسية فى أيديهم ولا تزال خادمة للصهيونية

العالمية وهى من صنعها أصلا أن الهدف هو هذه المنطقة الفريدة فى العالم « منطقة دعوة الاسلام ومقدرات المسلمين الضخمة التى تستهدف بالاحتواء والسيطرة والغزو والتى سوف تظل دائما قادرة على المقاومة ساهرة على حراسه مقدراتها ، مرابطة فى سبيل الحفاظ على كيانها ووجودها ، وسوف لا يضحى المسلمون والعرب بعقيدتهم وتراثهم فى سبيل ما يسمى العلم والتكنولوجيا وانهم لقادرون على امتلاك هذه القوة وقد أخذوا بها فعلا فلم يبق هذا ما يسمى بالصراع الحضارى : ذلك ان الوجود الاسرائيلى هو فى طبيعته وجود غير قائم بذاته لا يعتمد على أمة صحيحة وليس يهود اسرائيل هم يهود التوراة أو أبناء يعقوب وليس لدى اسرائيل ما لدى العرب من الطاقة والتفوق البشرى والقوة الاقتصادية وان هذا المجتمع المهلهل المجمع من شذاذ الآفاق لا يمكن أن يكون اقوى على الحياة من أهل هذه الأرض ، فأين اذن التفوق الحياة من أهل هذه الأرض ، فأين اذن التفوق الحضاري وأين يقوم الصراع الحضارى واسرائيل تعيش على المساعدات الخارجية ولم يتمكن بعد ثلاثين عاما اليوم من ان تعيش على مواردها وان تكون قادرة بمفردها للدفاع عن وجودها ، ذلك لانها بطبيعة تركيبها العدوانى لا تستطيع ان تمثل مجتمعا حقيقيا ولا وجودا صحيحا . ولولا دورها الذى تقوم به فى خدمة النفوذ الاجنبى على هيئة كلب الحراسة لسقطت من اليوم الاول لوجودها . ومن هنا فان تلك الاكاذيب والشبهات التى يحاول دعاة التقدم والماركسية واليسار وغيرهم اذاعتها لن تؤثر شيئا فى النفس العربية الاسلامية التى أخذت فى امتلاك ارادتها وعرفت طريقها الصحيح . ولقد كانت هذه المنطقة منذ تسلمها المسلمون امانة فى أيديهم للاديان الثلاث

وقد آمنت كل القوى بأصالتهم وأحقيتهم للقيام بهذا الدور وسوف تعجز الصهيونية عما عجزت عنه الحروب الصليبية من انتزاع القدس من أيدى المسلمين الحماة الامناء .

يقول المؤرخ ريفمان : ان المسلمين لم يقروا بوجود هذه الدولة الاجنبية الدخيلة فى ارض يعتبرونها ملكا لهم . نعم هذا هو الحق ومن الحق ايضا ان المسلمين انتصروا تحت اسم « مدرسة التسلح الخلقى » على كل الخلافات واستطاعوا ان يتجمعوا لمواجهة الخطر وكان دور الشعب الاسلامى اقوى من دور الحكومات . يقول ريفمان : أخذ العرب يلتمسون الوجهة بمجرد ادراكهم لمغزى قيام الدولة العدوة بينهم غير أن هذا التطور كان بطيئا غاية البطء . وبقى الصليبيون مدة طويلة وهم قادرون على مهاجمة اى من الاقطار المجاورة لهم ، واستطاع الصليبيون أن يصلوا الى حدود مصر وضواحى دمشق وان يتوغلوا فى حوران ، غير أن نجاح صلاح الدين فى توحيد مصر وسوريا واليمن تحت حكمه قضى على كل امل للصليبيين فى التوسع ، وبالرغم من الاعداد القادمة من اوربا فقد بقى الصليبيون معتمدين على العالم المسيحى فى الرجال والمال واستمروا ما بقى العالم المسيحى يمدهم وذبلوا عندما انتهى هذا الاهتمام .

ونحن نجد أن المواجهة العربية الاسلامية للغزوة الصهيونية تسير فى طريق أكثر قوة وعمقا بالرغم من بطئها فى المراحل الاولى فهى تدخل فى مرحلة الحسم والاقتناع الصحيح بالطريق الاصيل للمواجهة : المواجهة بأسلوب الاسلام ، العقيدة والشريعة والتربية الاسلامية والجهاد .

ولن تخدعنا كتابات التلموديين وسموم التقدميين ومراوغة الماركسيين من أن تعرف الحقيقة التى بدأت يوم عمدت الصحافة التى كان يمسك بقيادتها المارونيين اللبنانيين فى مهاجمة السلطان عبد الحميد والدولة العثمانية والخلافة الاسلامية تمهيدا لفتح طريق الصهيونية الى القدس ولقد أشارت مؤرخة يهودية منذ وقت مبكر الى ان دخول اللورد اللنبى لمدينة القدس كان بمثابة الخطوة الاولى لتسلم اليهود اياها (دخلها اللنبى ١٩١٧ وتسلمها اليهود ١٩٦٧) .

ان الكتب التى صدرت فى العام الاخير وخاصة ما كتبه جولدمان تحت عنوان (المأزق الصهيونى) يكشف وتكشف عن مجموعة من الحقائق يجب على العرب والمسلمين أن يعوها تماما والا يخدعوا ببريق الكلام :

١ ـ ان الصهيونية تقسم نفسها الى معتدلين ومتطرفين . وتترك لمجموعة المعتدلين أمثال البير برجر وجولدمان وغيرهم من الذين يحاولون أن يضعوا أنفسهم فى صف الراغبين الى تفهم المواقف والاعتدال .

٢ ـ ان الاحداث الاخيرة قد كشفت عن أن الصهيونية طامعة فى تنفيذ برنامجها فى التوسع وأن دعواها فى السلام كافية .

٣ ـ ان ما يعبر عنه سكان اسرائيل لا أهمية له فى الحقيقة أزاء المخططات التى يرسمها عتاة الصهيونية وهم لا يعبأون بها .

ذلك ان الهدف من المخططات كلها هو اقامة امبراطورية الربا بكل وسائل الخداع والغدر وتخدير العرب والحيلولة بينهم

وبين امتلاك ادارة القوة والتآمر على مقدراتهم من الطاقة والثروة والتفوق البشرى فهم دعاة تحديد النسل لانقاص عدد العرب والمسلمين تحت شعار الانفجار السكانى وهم أصحاب مشروع السيطرة على موارد النفط وهم من وراء توجيه الأموال العربية وجهة الاستهلاك حتى لا يتمكن العرب من بناء قوتهم الذاتية .

ولا ريب أن (الربا) هو المدخل الحقيقى للسيطرة التلمودية الصهيونية على العالمين الرأسمالى والشيوعى ويعد المذهب الذى يحتكره اليهود أقوى الاسلحة لاثارة الرأى العام وافساد المجتمعات والقضاء على الضمائر والاديان والقوميات ونظام الاسر وعن طريق المال يسيطر اليهود على الاعلام والفكر فى عديد من بلدان الغرب حيث يملك اليهود البيوت التجارية والاسواق ولهم نفوذ قوى ومؤثر على الصحافة والتليفزيون .

ولقد أشار اليهود في كل وثائقهم الى سيطرتهم على الذهب في العالم وقيامهم بامتلاك مصادر الاقتصاد والمال . وهم أنفسهم أصحاب القوة الرأسمالية والسيطرة الاقتصادية الذين صنعوا الماركسية والاشتراكية التى تبدو ظاهرا معارضة للرأسمالية لقد استطاعوا احتواء كل المحاولات التى استهدفت معارضة الرأسمالية وضربوا كل القوى ليضعوا أيديهم على كلا النظامين اللذين ينتظمان العالم توطئة للسيطرة عليه حسبما جاء فى بروتوكولات صهيون .

ولقد قصدت الدعوة الماركسية أساسا الى هدم الدين نفسه ولم تكن قاصرة على معالجة مشكلة عدالة التوزيع . وكان أول مكاسب اليهودية الصهيونية هى هدم المسيحية وادامة السيطرة على

مقدرات الامم كذلك فان قيام نظام ماركسى يعنى أول ما يعنى وضع جميع مقدرات الامة فى يد المجموعة الحاكمة واخراجه من أيدى عشرات الاغنياء والموسرين شريطة أن يكونوا من غير اليهود .

ومعنى هذا أن تسليم الثروات الى هذه النخبة تمكنها من أن تفعل فى طريق تحقيق الهدف اليهودى أكثر مما يعمل الرأسماليون أنفسهم كذلك فان النظام الماركسى نفسه يحل فى العالم روح الشر والقتل والابادة ويحقق هدفه عن طريق الانقلابات التي تقتل وتحطم وليس عن طريق التطور والتدرج والاقناع وقد ظهر أن أغلب أحداث المؤامرات والانقلابات كانت نتاجا يهوديا يستهدف تحقيق الغاية التى يقصد اليها أصحاب امبراطورية الربا .

كذلك تكشف الكتابات الاخيرة ان وجود اسرائيل لم يحل المسألة اليهودية بل زادها تعقيدا ، قال بذلك البير كامى وميشيل رشيلان ، وقال غيرهم أن الصهيونية هى محاولة ارجاع تاريخ اليهود المعاصر الى الوراء وانه بمثابة نظرة جاهلية لانها لا تأخذ فى الاعتبار العنصر الحاسم للتقدم فى التاريخ . ويقول الحاخام منسفيلد : ان الصهيونية انفجار شاذ لعاطفة منحرفة .

ويقول رشيلان : ان اليهودى لن يشعر بالامان فى أى مكان فى العالم لانه يخلط بين اليهود فى العالم وسكان اسرائيل .

ولقد أقامت الصهيونية تأييد الغرب لها على محاولة خادعة لئيمة : وذلك هو فرضها مفاهيم العهد القديم والتلمود على المسيحيين فى المدرسة والجامعة بما يوحى بأن دعوة الصهيونية

الى التوسع فى فلسطين هى من صميم العقيدة الدينية ، وكذلك فعلت الصهيونية فى أمريكا وبريطانيا والمانيا .

ولقد كذبت الوقائع التاريخية الصحيحة ما ادعاه اليهود من أن وعد ابراهيم كان لاسرائيل او لاحفاد اسحاق وحدهم ، ذلك أن وعد اللّه لابراهيم كان لاسماعيل واسحاق ولاحفادهم جميعا ، وللصالحين منهم وحدهم .

﴿ وإذا ابتلى ابراهيم ربه بكلمات فأتمهن * قال اني جاعلك للناس اماماً * قال ومن ذريتي * قال لا ينال عهدي الظالمين ﴾ .

وكذلك يكذب اليهود فى أن يقصروا الوعد على أنفسهم ويعتبرون أنهم شعب اللّه المختار مع ان الوعد كان لكل خلفاء اسماعيل واسحاق وهم العرب والمسلمون وقد تحقق الوعد فعلا لسيطرة الاسلام على هذه المناطق كلها والمسلمون هم أحفاد اسماعيل .

ويتعالى اليوم أصداء هذه المؤامرة الزائفة التى بدأت تنكشف أمام العقل البشرى اليوم على نحو أكثر وضوحا مما كانت قبل ثلاثين عاما فيقول المؤلف اليهودى الروسى (افرانيم سيفيلا) فى كتابه : (وداعا اسرائيل) : Farewell Israel :

ان اسرائيل هى الدولة المسخ التى تأكل أبنائها .

ويكشف فى وضوح زيف الكيان الصهيونى فى فلسطين المحتلة ، ويعرى الاساليب الاجرامية التى اتبعها زعماء الصهيونية لإقامة هذا الكيان الزائف ، ولابتزاز الاموال منها بحجة جمع شمل

اليهود لاجتذاب اليهود من أرجاء العالم بطرق مغرية .

ويقول : انه بعد أن مرما يربو على ربع قرن منذ انشاء هذه المؤسسة اليهودية فوق جزء من الارض الفلسطينية لم تتحقق تكهنات زعماء الصهيونية بأن تصبح اسرائيل مغناطيسا ليهود العالم ، حيث لم تستطع اسرائيل أن تجمع فوق الارض الفلسطينية سوى خمس اليهود . ففى نيويورك وحدها يعيش عدد من اليهود أكبر مما يوجد فى اسرائيل بأكملها . وفى باريس يوجد من اليهود أكثر مما فى تل أبيب . وفى لندن أكثر مما فى القدس . لقد تبين انه من الصعب لا بل من المستحيل صيغ كافة اليهود بفكرة الصهيونية حيث طلب اليهم استبدال أماكنهم بحياة أقل أمنا فى مناخ حار وغير مألوف لديهم وبعيدة كل البعد عن حسن الحال الجسمانى والمادى على السواء . على الاسف ان انشاء المؤسسة اليهودية الجديدة لم يكن ليقذف دما جديدا فى العروق القديمة بل بالعكس حط من مكانة اليهودى فى العالم وعمل بشكل ما سوى على الاسراع فى تذويب اليهود فى القوميات الاخرى . لقد تعرضت الجاليات اليهودية للخراب الكلى بعد قيام دولة اسرائيل .

ولكننا بعد أن لجأنا الى اسرائيل : الملاذ الاخير لجاليات اليهودية ، ربما كنا قد أنقذنا أنفسنا من الاندماج فى القوميات الاخرى لكننا من ناحية أخرى حكمنا على أطفالنا وعلى انفسنا بالانقراض الطبيعى .

لقد بدأت الجاليات اليهودية تنهار الواحدة بعد الاخرى ، واصبحت صفوفها مبعثرة وهزيلة حدث هذا بسبب الهروب العاجل من اليهودية نحو الاندماج فى الديانات والقوميات الاخرى هربا من

كـافة عـوامل الضغط والاضـطهاد . ان اكثـر التحليـلات سـطحيـة للاحداث منذ عام ١٩٤٧ تؤكد مباشرة هذا الـواقع الحتمى . لقـد دمـرت أكبر الجـاليات اليهـودية واكثـرها ازدهـارا وهى التى كـانت تعيش فى الاتحاد السوفييتي . لم يظهر التفكك السريع لهذه الجالية وبروز شتاتها وخرابها الا بعد ظهور اسرائيل . وكذلـك الامر بشـأن الجاليات اليهودية فى الشرق الاوسط وشمال افريقيا الاسلامية كـان هناك ما يربو على المليون نسمة من اليهود الذين يعيشون فى العالم العربى فى جاليات كثيفة مزدهرة جنبا الى جنب مع السكـان العرب وكانوا يتمتعون بكل حرية من ناحية الدين والتقاليـد اليهوديـة ، من كل من الدار البيضاء ومراكش وطنجة والرباط والجزائر ووهران وتونس وطرابلس والقاهرة والاسكندرية وبغداد وبيروت ودمشق الى ان جاء عام ١٩٤٧ الذى جعل من العرب وكـافة المسلمـين بضربـة واحدة أعـداء لدودين لليهـود نتيجة احتـلال الارض الفلسطينيـة وممـا زاد الطين بلة تدفق اللاجئين الفلسطينيين هـرباً من ميـادين الحرب الى البلدان العـربيـة المجـاورة الامـر الـذى زاد من التعصب الـوطنى والدينى بين العرب واليهـود ، وينطبق الامـر نفسه على يهود أوروبا الشرقية الذين لم يتعرضوااللاسلامية سوى بعد انشاء الدولة اليهوديـة وذلك بعد معاداة أنظمة الحكم الأوروبية الشرقية للصهيـونية المتمثلة فى الـدولة اليهـودية الجـديدة وهكـذا تعرضت الجـاليات اليهـودية للخراب الكلى بعد قيام دولة اسرائيل .

ويقـول الكاتب فى النهـاية : ان اسـرائيل محكـوم عليهـا الا تعيش غير عقد آخر من الزمـان ومن غير المحتمـل أن تتجاوز هـذا الحد المقرر واعتقـد انه فى عـام ١٩٨٥ لن يكون لاسـرائيل وجـود

على خارطة العالم بل يتم ابتلاعها بلا شفقة .

هـذا ما يقـوله يهـودى منهم اما نحن فنعـرف ان اليهود كـانوا خادعين لكل الشعوب والامم بما زيفوا من دوائر المعارف العالميـة وأدخلوا اليها هذه السموم وقد كانوا أصحاب الاثر الكبير فى تزييف (دائرة المعارف الاسلامية) .

وكـان لهم دورهم فى السيـطرة على دراسـات التـاريـخ ومقارنات الاديان فى مختلف جامعات أوروبا وامريكا حيث بثـوا فيها سمومهم وشبهاتهم ازاء الاسلام ورسوله وكتابه وتاريخه ولغته .

بـل ان الصهيونيـة العالميـة استخدمت منـظمات المـاسونيـة والشيـوعيـة والبهـائيـة لنفس الغـرض فـدخلوا هـذه المحـافـل واستخدموهـا ، كما سيـطروا على منظمـات الليونـز والروتـارى فى العصر الحديث وعن طريقها ينقلون الاخبـار والاشاعـات ويذيعـون الاكاذيب فى الامم التى تقوم بها هذه المنظمات .

ويكشف أحد حكماء صهيون : جولـدمان زيف هـذا الواقـع المضلل المنهـار حين يقول : لست أستـطيـع ان أتصـور أن تنتهى آلاف من سنى العـذاب والاضطهـاد والمقاومـة بدولـة صغيرة مثـل عشرات الدول الاخرى تعيش فى خطر وتتعرض للابادة مما يفـرض عليهـا البقاء فى حـالة تعبئـة وتسليح كـل شبـر من أرضهـا وتـركيـز جهودها الـرئيسية على الـوجود المـادى . اننى لست متأكـدا من ان حمـاس وولاء الشعب اليهودى خـارج اسرائيـل سيـظل وفيـا لهـذه الدولة الى الابد .

وهكذا تبدو روح التشاؤم واضحة على رأس ثلاثين عامـا من

قيام هذا الكيان الزائف ويجمع الحكماء على ان وجود اسرائيـل لم يحـل القضية ولا يمكن ان يـدوم كيان الـدرة على الغصب والـظلم والغـدر مهما جـرت المحاولات لأن يستمـر . وسـوف تعـود الـدرة المغتصبة الى أصحابها ان عاجلاً وان آجلاً .

الباب التاسع

فساد نظرية الجنس السامى واللغة السامية

أبعاد خطة تزييف تاريخ العرب والمسلمين لحساب الصهيونية والتلمودية

ما تزال خطة تزييف تاريخ العرب والمسلمين لحساب الصهيونية التلمودية من الأعمال الضخمة التى قام بها الاستشراق المسيحى واليهودى والتى لم تكتشف بعد أبعادها الواسعة . وفى كل يوم نجد خيطا جديدا يضاف الى سابقه فتبدو الصورة أشد خطرا مما كان متصورا من قبل ، ولا ريب أن المثقفين المسلمين فى حاجة الى متابعة الكشف عن هذه الخيوط والأبعاد حتى يعرفوا ما يراد بهم ، ومدى خطة الاحتواء ، ومدى زيف تلك الشبهات والسموم التى أصبحت كالمسلمات ، بينما هى من افتراءات الاسرائيليات الجديدة التى جددت الاسرائيليات القديمة .

ولكى يكون البحث علميا وقائما على أصوله الأصيلة فإني أضع أمام الباحثين هذه المصادر لنبنى عليها الحقائق التى وصلنا اليها :

١ ـ تاريخ الجنس العربى للاستاذ محمد عزة دروزة .

٢ ـ الاسرائيليات والغزو الفكرى للدكتورة بنت الشاطىء .

٣ ـ محمد رسول الله والذين معه للاستاذ عبد الحميد جودة السحار .

٤ ـ مقدمة كتاب شمس الله على الغرب للدكتور فؤاد حسنين على .

ومنطلق البحث انه قبل ابراز فكرة الصهيونية فى العصر الحديث (لمخطط متجدد ومبتعث عن « التوراة » التي كتبها حكماء اليهود ابان السبى البابلى و « التلمود » التى جاء بعد تدمير الرومان للقدس) . هذا المخطط هو بروتوكولات صهيون التى عرفت لأول مرة عام ١٨٩٧ وفى خلال اعداد هذا المخطط كانت هناك محاولات جبارة تعمل على وضع مفهوم الصهيونية التلمودية فى داخل كتب التاريخ والموسوعات العالمية وادخالها فى مناهج المدارس والجامعات الغربية ومعاهد الارساليات فى العالم الاسلامى .

وقد تمت هذه المحاولة الخطيرة بواسطة مجموعة ضخمة من المفكرين الغربيين الذين احتوتهم الصهيونية : (شلوسر ، بروكلمان ، رينان ، دوركايم ، دوزى . . . الخ) .

وذلك بالاضافة الى الاستشراق اليهودى الصهيونى : (مارجليوث ، جولدسيهر ، برنارد لويس . . . الخ) .

وقد حاولت هذه الخطة تحقيق عدة أهداف :

أولا : ابتكار فكرة « السامية » التى نسبت اليها كل أمجاد

التاريخ العربى القديمة وسلبه من أصحابه الحقيقيين وخاصة اسماعيل بن ابراهيم وأبناءه وأحفاده وأضافت هذا كله الى مصدر غامض ليس له سند علمى ويستمد مصدره الأساسى من التوراة التى كتبها اليهود بأيديهم وليست التوراة الحقيقية المنزلة على موسى عليه السلام . وذلك بهدف اشراك اليهود مع العرب فى هذه الأمجاد بينما لا يوجد لليهود أى اتصال بإنشاء هذه الحضارة .

ويستتبع هذا الخطر : ايجاد صلة ما بين العربية والعبرية على النحو الذى حاوله الكتاب الذين كتبوا ما أسموه « تاريخ اللغات السامية » وقاموا بتدريسه فى الجامعات وهم : اسرائيل ولفنسون ، وشاخت ، ثم الدكتور مراد كامل .

ثانيا : محاولة التشكيك فى رحلة ابراهيم عليه السلام الى الحجاز واقامة ابنه اسماعيل وزوجته هاجر بمكة . وهذا يبدو واضحا من تجاهل التوراة لهذه الواقعة التاريخية ومحاولة اثارة الشبهات فيها ، وقد ردد الدكتور طه حسين هذا القول فى كتابه « فى الشعر الجاهلى » .

ثالثا : محاولة اعتبار التوراة مرجعا للبحث العلمى مع أن شهادات كل علماء الغرب تؤكد أن التوراة الموجودة الآن كتبها علماء اليهود . منها ما كتب أيام المملكة الاسرائيلية ومنها ما كتب فى المنفى بين النهرين ومنها ما كتب قبل الميلاد بنحو ثلاثة قرون .

رابعا : محاولة خلق تصور زائف بأثر اليهود فى الجزيرة العربية وفى الأدب العربى .

خامسا : محاولة ايجاد ترابط بين العرب واليهود والقول بأنهما أبناء عمومة وذلك كله يستهدف التمهيد للدعوة الى اقامة وطن قومى لليهود فى فلسطين .

سادسا : اعلاء شأن اسحاق على اسماعيل وهما ابنا ابراهيم عليه السلام ، وأكبرهما اسماعيل الذى هاجر به وأمه الى مكة والذى أقام معه القواعد من البيت الحرام ، والذى امتحن بذبحه وجاءه الفداء من السماء .

والهدف هو اخراج أبناء اسماعيل من حقوق الوعد الذى تلقاه ابراهيم من ربه وقصر الوعد على أبناء اسحاق تحت اسم أسطورة « شعب اللّه المختار » .

* * *

هذه هي : أهم أطراف المؤامرة الخطيرة لتزييف تاريخ الاسلام والعرب قبل الاسلام لحساب الصهيونية التلمودية : وقد جرى تطعيم دوائر المعارف وكتب التاريخ ومناهج المدارس والجامعات بهذه المفاهيم واستكتاب عشرات الكتاب لبحوث متعددة منوعة تدور حول هذه الشبهات لخلق أدلة مضللة لتثبتها فى الأذهان .

وتكاد تكون فكرة « السامية » أخطر هذه الشبهات .

وهى عبارة أو مصطلح لم يرد مطلقا فى كتابات العرب والمسلمين على مدى التاريخ ، وقد استمد أساسا من نص من نصوص التوراة المكتوبة بأيدى الأحبار ، وفى ظل تقسيم وهمى

للاجناس البشرية مستمد من أسماء أبناء آدم أبى البشر : « سام وحام ويافث » .

وقد برز هذا المعنى فى ظل تقسيم مستحدث ظهر فى أوروبا ابان استعلاء نزعة العنصرية الأوروبية التى قسمت العالم الى ساميين وآريين لتضع العرب والمسلمين فى قائمة موازية للجنس الآرى صانع الحضارة الذى وصف بكل أوصاف العبقرية والعظمة والاستعلاء على البشر وخضوع الأجناس الاخرى اليه .

وكان هذا التنظير الذى ألبس ثوب العلم انما يستهدف اعطاء الاستعمار « مبررا » علميا لسيطرته على الأمم الملونة غير الآرية الأوروبية .

غير أن المحاولة التى حاولت أن تضع عبارة « السامى » والسامية بديلا للابراهيمية الحنيفية وللعرب والعربية كانت محاولة ماكرة خطيرة استهدفت حجب أمجاد التاريخ القديم عن العرب ونسبتها الى اسم قديم لا يعرف التاريخ الصحيح له مصدرا واضحا .

والغربيون يعرفون أن التوراة التى بين أيدى الناس اليوم ، هى توراة مكتوبة بأيدى الأحبار وأن صلتها بالتوراة الصحيحة مشكوك فيها ولذلك فان الاعتماد عليها فى اقامة نظرية تعطى كل هذا القدر من التوسع والنمو والسيطرة فى دوائر الثقافة والعلم والجامعات هو أمر لا أساس له من منهج العلم الصحيح . ولقد كانت اليهودية الصهيونية من وراء هذه النظرية فى سبيل طمس التاريخ العربى السابق للاسلام وتزييفه بفرض دور وهمى لليهود فى

الحضارة وفى الجزيرة العربية قبل الاسلام واحياء اللغة العبرية واعطائها رصيدا زائفا من الصلة باللغة العربية هو أكبر بكثير من حجمها الطبيعى .

وفكرة السامية تدور حول القول بأن هناك أصلا واحدا مشتركا للعرب واليهود ومحاولة اعطاء العربية أثرا ومكانة غير صحيحة فى حضارات الشرق القديم .

وقد كان « شلوسر » هو أول كاتب غربى استعمل مصطلح السامية فى النصف الثانى من القرن الثامن عشر واعتمد فى هذه التسمية على نص من التوراة . وقد كانت الصهيونية وراء هذه الفكرة ومن ثم فقد اتسع نطاق هذه المقولة وأقام عليها الكتاب الموالون للصهيونية والاستعمار ما أطلق عليه اسم « علم الأجناس » ولغياب الفكر الاسلامى فى هذه المرحلة فقد اتسع نطاق الفكرة الاسرائيلية وسيطرت على مناهج الجامعات ودراسات الثقافة جميعا .

وفى كلية الآداب بالجامعة المصرية تقررت دراسات اللغات السامية وقام على هذه الدراسات مستشرقون يهود : فى مقدمتهم يوسف شاخت واسرائيل ولفنسون اللذان أخذا يخدعون شباب المسلمين والعرب بقولهم أن العربية ليست سوى عبرية مقلوبة ، وأن العرب انما اتخذوا اسمهم من « عربة » التى هى فى العبرية بمعنى الصحراء ، وكان الهدف هو خلق مفهوم زائف للصلة بين العرب واليهود من ناحية وبإعطاء اليهود مكانا زائفا فى مجال الآداب والعلوم .

ومن ذلك القول بأن اليهود هم الذين وضعوا شريعة

حمورابى ابان نفيهم فى بابل وكل وثائق التاريخ تكذب ذلك وتثبت أن اليهود ابان المنفى كانوا يبحثون فى حضارات الأمم عن خيوط يضمونها الى نسيجهم المهلهل ليتمكنوا من القول بأن لهم فلسفة معينة ، وقد كانت فلسفتهم ومنهجهم الفكرى جماع الفلسفة البابلية القديمة والهيلينية ، ومدرسة الأفلاطونية المحدثة وبقايا المجوسية والغنوصية الشرقية وذلك بعد أن فقدوا أصلهم الأصيل وهو توراة موسى . كذلك فقد كان هدف هذه المحاولات هوالقول بأن اليهود والعرب أبناء عمومة تربطهم أواصر الرحم والقربى وتاريخ اليهود بعد الاسلام في المدينة يكشف عن هذه الرحم والقربى في محاولاتهم وجرأتهم وغدرهم ، الذي امتد طوال تاريخهم . ولقد حاول دوزى ومرجليوث ادعاء هذه الصلات واختلاق مشابه بين قريش واليهود ، والقول بأن موطن اليهود هو بلاد اليمن اعتمادا على ألفاظ ملتقطة من لغة سبأ البائدة تشبه ألفاظا عبرية .

ولقد اتسع نطاق هذه الكتابات فى الفكر الغربى فى هذه الفترة المبكرة تمهيدا للفكرة الصهيونية وان كان بعض العلماء الغربيين لم تخدعهم هذه التلفيقات فكشف زيفها أمثال : جوستاف لوبون الذى قال : « لا جرم أن الشبه قليل بين العربى أيام حضارته واليهودى الذى عرف منذ قرون بالنفاق والبخل والجبن وان من الاهانة للعربى أن يقاس باليهودى ، ولا ننسى أن طرق الحياة الخاصة التى خضع اليهود لحكمها منذ قرون كثيرة هى التى أنشأت فيهم عرفا ذليلاً غير محترم ، وعندى أن كل أمة تكون عرضة لمثل ما أصاب اليهود ولا يعرف عمل لها غير التجارة والربا وتحتقر في كل مكان تنتقل اليها تلك الغرائز المنحطة بالوراثة المتتابعة مدة

عشرين قـرناً وأكثر فتتأصل فيها وتصير الى ما صار اليه اليهود لا محالة » .

ولقد كانت مؤامـرة « الساميـة » هذه مـوضع نـظر البـاحثين العرب والمسلمين منذ وقت طويل ، فلم تفتهم تلك الخطة الماكرة التى استهدفت اعتبارها منهجا من مناهج الدراسة الجامعية واعـطاء شبهاتها صيغة المسلمات .

وقد جاء ذلك فى الوقت الذى حمل فيـه الدكتـور طه حسين لواء الدعوة الى تجديد دراسة الأدب وفق المناهج الحديثة والبحث فى الشعر الجاهلى فقد كان الهـدف من ذلك هـو القول بـأن اللغة العربية لم تكن لغـة واحدة فى الجـزيرة العـربية وأن هنـاك لغة فى الجنوب ولغة فى الشمـال وهى محاولـة مضللة تستهدف التشكيـك فى وحدة اللغة العربية ، قبل الاسلام واثارة الشبهات حـول نموهـا واتجاهها الى اتخـاذ مكانهـا الذى أهلهـا لتكون لغـة القرآن ولسـان الاسلام .

كـذلـك فـان الـدكتـور طـه حسين قـد هـيأ لشـاب يهـودى استقدمه من فرنسا لاعداد دراستين : احداهما عن اليهود فى جزيرة العرب والأخرى عن تاريخ اللغـات الساميـة ليحشد فيهمـا كل تلك المخططات التى أعدتها الصهيونية لتزييف التاريخ الاسلامى ، وقد قـدمت احدى هـذه الدراسـات على أنها اطـروحة دكتـوراه قـدمهـا « اسـرائيـل ولفنسـون » وكـان ذلـك مقـدمـة لتكـون هـذه السمـوم « مسلمات » تدرس فى الجامعات المصرية والعربية وما تزال .

وبذلك استطاعت الصهيونية العالمية أن تدخـل نظريتهـا الى

قلب الفكر الاسلامى والأدب العربى لتضرب به ذلك المفهوم الأصيل الذى عرفه المسلمون واستوعبته آثارهم وتراثهم .

كذلك فقد عاش الدكتور طه حسين حياته كلها يحاول اقناع المسلمين والعرب بأن لليهود فضلا على أدبهم وتاريخهم وتراثهم ، فهو يعرض لليهود واليهودية كلما عرض للغة العربية وأدبها .

ولقد عمل باكرا لتحقيق هذا الهدف حين أعلن بأن وجود ابراهيم واسماعيل لا تثبته المصادر العلمية والتاريخية وأنكر أن ورود اسمهما فى القرآن يعد سندا صحيحا ، ومن العجب أن تتخذ نظرية السامية هذا الاتساع والشهرة والاستمرار وهى تعتمد على نص من التوراة التى كتبها أحبار اليهود ويقرها طه حسين على ذلك ولكنه لا يقر القرآن على وجود ابراهيم واسماعيل والقرآن هو النص الموثق الذى نزل من السماء والذى لم يصبه أى تحريف .

كذلك فقد تحدث الدكتور طه عما أسماه أثر اليهود فى الحياة العربية والأدب العربى (ومحاضراته متعددة فى هذا الصدد وأهمها محاضرته التى سجلتها له مجلة الجامعة المصرية فى عددها الأول فى سنتها الثالثة ١٩٢٥) والتى خلص منها الى ثلاث نتائج خطيرة من أثر اليهود :

أولا : ان اليهود أثروا فى الأدب العربى أثرا كبيرا جنى على ظهوره ما كان بين العرب واليهود .

ثانيا : أن اليهود قالوا كثيرا من الشعر فى الدين وهجاء العرب وقد أضاعه مؤلفو العرب .

ثالثا : أن اليهود انتحلوا شعرا لاثبات سابقتهم فى الجاهلية على لسان شعرائهم وشعراء العرب .

وفى مقدمة كتاب اسرائيل ولفنسون (الذى يشرف الآن على البعوث الاسرائيلية فى أفريقيا) يقول الدكتور طه حسين :

« ليس من شك أن المستعمرات اليهودية قد أثرت تأثيرا قويا فى الحياة العقلية والأدبية للجاهليين من أهل الحجاز ، وليس من شك فى أن الخصومة كانت عنيفة أشد العنف بين الاسلام ويهودية هؤلاء اليهود وفى أنها قد استحالت من المحاجة والمحاولة الى حرب بالسيف انتهت بإجلاء اليهود عن البلاد العربية » ويعلن الدكتور طه اغتباطه الى أن اسرائيل ولفنسون : « قد وفق الى تحقيق أشياء كثيرة لم تكن قد حققت من قبل » ولكن هل هذه هى الحقيقة ، ان الدكتور فؤاد حسنين على أكبر المتخصصين فى مصر فى اللغة العبرية وتاريخ اليهود يقول : ان هذا البحث حلقة من حلقات كتب الدعاية الصهيونية التى كانت الشعبة الثقافية للمؤتمر الصهيونى بإشراف « مارتن بوبر » تدعو الى نشرها ، وما نقله اسرائيل ولفنسون فى رسالته من آراء كان القصد منه اطلاع اليهود الشرقيين وقراء العربية على ما جاء فى المصادر الأجنبية . وان هذه الرسالة ـ التى ما زالت فى أيدى المثقفين والباحثين ـ مشحونة بالأخطاء ، وهى بعيدة عن المراجع العبرية التى أشير اليها ، وان الدكتور طه حسين لا يعرف العبرية وقد أخذ بالنتائج التى وصل اليها الباحث دون التحقق منها ببعض الذين يجيدون هذا النوع من الدراسات والأمانة العلمية كانت تقتضى غير هذا . ذلك أن البحث العلمى يجب ألا يصبغ بصبغة القومية المتعصبة كما لا يتخذ وسيلة

من وسائل الدعاية السياسية أو الكسب المادى الرخيص » .

ولا ريب أن هذا مقتل من مقاتل طه حسين الكثيرة التى غابت عن صديقنا الدكتور محمد رجب البيومى .

والى قيمة تراث اليهود وصلته بالتراث الاسلامى يقول الدكتور فؤاد حسنين : « فى مصر بزغ فجر الضمير ومنها أخذ اليهود ما أخذوا وفى بابل وأشور شريعة حمورابى وفيها الشىء الكثير من هذا التراث الذى نقله واضعو سفر التثنية ولما عاد اليهود من السبى نقلوا معهم عن العرب البابليين الشىء الكثير مما نجده فى كتابهم المقدس وعند المعينيين السبئيين العمارة وهندسة الرى والتجارة . وقصة ملكة سبأ والدور الذى تلعبه فى تاريخ الاسرائيليين وحياتهم الاقتصادية لا يخفى على أحد .

ويشير الدكتور فؤاد حسنين الى آثار اليهودية والمسيحية والاسلام : وما استتبعه ذلك من تفتق العقل البشرى فأنتج أدبا وشعرا ونثرا وقصصا وفلسفة وحكما وأمثالا . وكان من نتائج هذه الثورات العربية العقلية والروحية أن رمت العروبة ببعض أبنائها شعوب العالم القديم من شرقيين وغربيين فحطموا مخلفاتهم العفنة البالية وأقاموا على أنقاضها هذه الدول الفتية التى جاءت بالمعجزات ، فالعرب لا اليونان أو اليهود هم الذين بعثوا العالم من حالة الجمود الى حياة أفضل مكنته من التحكم فى مصائر الكون فأطلق العربى الأفكار من عقالها وحررها من جمود رجال المعبد اليهودى والكنيسة المسيحية فظهرت طائفة القرائين حيث أنكر هؤلاء التلمود وتعاليمه كما انكمش سلطان الكنيسة وتوارت وراء البخور وقد مهد هذا التطور بدوره الى ظهور حركة الاصلاح الدينى

وبعث النهضة العلمية . وكما عاون العرب على الاضطلاع بهذه الرسالة تسامحهم ومبادئهم الانسانية التى أزالت الفوارق بين الشرق والغرب كما أنهم لم يمكنوا اللون من أن يكون عاملا من عوامل التفرقة والتمييز العنصرى والحط من القيم الانسانية . والدين الاسلامى هو الذى ثبت مبادىء الحقوق الانسانية ولذلك نجح العربى فى تحقيق ما عجز عنه اليونانى والفلسفة اليونانية .

ومذهب الانسانية لم يقو ولم ينتصر الا بفضل العرب ولم تعرفه أوروبا الا فى العصور الوسطى ، وعلى يد العرب وبعد أن تتلمذت أوروبا على العرب فى العصر الاسلامى » ويصل الدكتور فؤاد حسنين الى القول بأن الحانقين على العرب والاسلام والناسبين التراث العربى الى اليونان واليهود يضللون أنفسهم وغيرهم والعكس هو الصحيح والعرب هم أصحاب الفضل على اليونان واليهود . والتاريخ اليهودى يحدثنا أن العرب أحسنوا معاملة اليهود عندما كانوا يهربون من وجه الطغاة من حكامهم فى فلسطين أو فزعا من اضطهاد اليونان والرومان ، فقد نزل أولئك اليهود الجزيرة العربية فوجدوا أهلا وسهلا ، فهذه القبائل اليهودية التى كانت تنزل يثرب وخيبر ووادى القرى ، وفد أفرادها على العرب بعد أن أفقدتهم القرون التى مرت بهم منذ زوال دولتهم ولغتهم المقدسة ، تذوق اللغة العبرية وتجديدها حتى أصبح من المألوف لدى اليهودى أن يعبر عن أفكاره وشعوره فى لغة ركيكة هى خليط من العبرية والكلدانية واليونانية ، فحالت ظروفه هذه دون خلق آداب عبرية ، فما كان أولئك اليهود بمستطيعين قول الشعر أو اجادة النثر ، فغير نزولهم بين العرب هذه الأوضاع وبخاصة أن العربى

معجب بلغته معنى بها نثرا وشعرا حريصا على المحافظة عليها فصيحة نقية .

أخذ اليهود عن جيرانهم العرب فن الكلام والنطق الصحيح وفصاحة التعبير فلما رحل بنو قينقاع والنضير وقريظة ويهود خيبر ووادى القرى وغيرهم الى العراق والشام وفلسطين كانوا يتكلمون لغة عربية ويتأدبون بأدب عربى ويتطبعون بطباع عربية ، كلها شجاعة ووفاء وكرم واباء ، يقولون الشعر فى مختلف فنونه ويعبرون عن خواطرهم ، فى لغة هى لغة أهل الحجاز ، نزل أولئك اليهود فى أوطانهم الجديدة فأثروا فى أبناء ملتهم تأثيرا قويا ولم يمض نصف قرن من الزمان على تحرير العرب ليهود فلسطين والعراق وغيرهما حتى أصبح فى استطاعتهم التعبير بالعربية .

وقد حبب الى اليهود ظاهرة المحافظة على عربية القرآن الكريم فاقتفوا أثر العرب فيها فحاولوا الحرص على نطق أسفار العهد القديم نطقا صحيحا وتأثر اليهود بالعرب أيضا فأوجدوا ما يعرف فى الأدب العربى بالشعر العبرى الحديث فهذا الفن صورة من الشعر العربى وزنا وقافية ولم يقف الأثر عند الشعر بل تعداه الى النثر وكذلك الامثال العربية ولقد فتح العرب أمام اليهود دور العلم على مصاريعها ولم يفرقوا بينهم وبين غيرهم ولذلك استطاع اليهود القيام بدور الرواة من الشعر اذ انسابوا فى بعض البلاد المسيحية وأخذوا الى جانب بعض العلماء العرب يلقنون الأوروبيين ما انتهت اليه معرفتهم .

ويحدثنا التاريخ اليهودى أن الاسلام أحسن معاملة اليهود حتى أولئك الذين اضطر النبى والخلفاء الراشدون الى اجلائهم عن

قلب الجزيرة العربية تأمينا لرسالة الاسلام واتباعه أقطعهم أمير المؤمنين عمر بن الخطاب والامام على كرم الله وجهه الأراضى الواسعة بالقرب من الكوفة وعلى ضفاف الفرات مما دفع المؤرخ اليهودى « جريتز » الى الاشادة بعدالة العرب وانسانيتهم فى كتابه تاريخ اليهود ، فقال :

« ان تاريخ اليهود فى بلاد العرب فى القرن السابق للنبوة المحمدية وابان حياة الرسول صفحة ناصعة فى التاريخ اليهودى » وقال : « لقد وزع عمر أراضى اليهود على المسلمين المحاربين وعوض اليهود المطرودين ـ وهذه هى العدالة ـ أخرى بالقرب من الكوفة على الفرات حوالى عام ٦٤٠ م حقا رب ضارة نافعة . ان سيادة الاسلام نهضت باليهودية من كبوتها » .

واذا تركنا الخلال العربية الاجتماعية جانبا : هذه الخلال التى بوأت العرب هذه المكانة الممتازة والتى جعلتهم اهلا ليكونوا رسل حضارة وثقافة للناس كافة ، وقابلنا بين الاسلام وتعاليمه وبين اليهودية أدركنا الفرق الشاسع اجتماعيا وعقائدياً بين الملتين ، لذلك سرعان ما وجدنا المرأة اليهودية مثلا تفضل الالتجاء الى المحاكم الشرعية الاسلامية للفصل فى قضايا الاحوال الشخصية . وقد هدد هذا الوضع الجديد المجتمع اليهودي بالزوال فقرر علماء التلمود تغيير بعض أحكامه مجاراة للشريعة الاسلامية ، لكن تغيير بعض الأحكام التلمودية لم يقف عند هذا بل زعزع العقيدة في قدسيته وصحة ما جاء فيه وبخاصة تلك الأحكام التي لا تستند الى نص قوي في الكتاب المقدس .

يقول الدكتور حسنين : « هذه بعض حسنات العرب على

اليهود . فالعرب هم الذين أهدوهم العربية بعد أن كانوا يرطنون خليطا لا شرقيا ولا غربيا . والعرب هم الذين هذبوا ذوقهم اللغوى ورفعوا مستواهم الأدبى فمكنوهم من خلق ملكة أدبية وثالثا وليس أخيرا احتذى اليهود حذو المسلمين مع القرآن الكريم فعنوا بدراسة كتابهم وشرعوا فى وضع نحو للغتهم صيانة لها من اللحن والضياع ، هذه هى الحقيقة العلمية أسوقها للدكتور طه وتلميذه الدكتور اسرائيل ولفنسون » .

ونقول : هذا هو سر الحقد الشديد الذى تبيته الصهيونية العالمية للعرب واللغة العربية فتعمل على محو ذلك التاريخ الطويل ورفع اسم العرب عنه ونسبته الى رمز مضلل هو « السامية » فينقل ذلك التاريخ الزاخر من مصدره الأصيل الى مصدر غامض يقوم على نص من التوراة التى كتبها احبار اليهود والتى لا ترقى الى مستوى الحقائق الثابتة التى قدمها القرآن الكريم الذى لم يصبه أى تحريف .

ان الهدف هو طمس الرابطة بين الاسلام الذى جاء به محمد ابن عبد اللّه رسول الله فى القرن السادس الميلادى وبين دعوة ابراهيم التى بدأت منذ عام ١٧٥٠ قبل الميلاد ، ذلك أن اقامة ابراهيم ابنه اسماعيل فى قلب الجزيرة العربية فى مكة ، واسماعيل هو جد العرب وجد محمد صلى اللّه عليه وسلم وبناء البيت الحرام الكعبة ، ودعوة اللّه سبحانه وتعالى الى النبى صلى اللّه عليه وسلم الى اتباع ملة ابراهيم ﴿ واوحينا اليك ان اتبع ملة ابراهيم حنيفاً ﴾ كل هذا مما يريد اليهود والصهيونية طمسه وتزييفه ، وقد أثبتت الاحافير التى كشف عنها اخيرا ان ابراهيم عليه السلام كان يتكلم

العـربية وان لم تكن العـربية التى نـزل بها القـرآن أو التى نتكلمها اليوم ، كما أثبتت الأحافير أن اللغـة التى كانت مستعملة فى اليمن والعـراق والشام والحجـاز لغـة واحـدة وان اختلفت لهجـاتهـا كمـا تختلف لهجـات الأمم العربيـة فى هذه الأيـام . وقد استشهـد عبد الحميد السحار الذى أورد هذا فى كتابه (محمد رسول اللّه والذين معه) بالآية الكريمـة : ﴿ كان النـاس امة واحـدة فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين وانزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس ﴾ .

وقد جاء فى كتاب العلامة « البرايت » : عن احافير فلسـطين قوله : « تتقارب اللغات العربية القديمة عدا الأكادية فى الأجروميـة والنطق بحيث تشترك كل لهجة ومـا جاورهـا ولا يلحظ الانتقال من لهجة الى لهجة الا كما يلحظ مثل هذا الانتقال اليوم بين اللهجات الفرنسية والجرمانية » .

والملاحظ أن التوراة لم تورد ذكر ذهاب ابراهيم عليه السلام الى الحجاز وسكتت هذه المصادر سكوتا متعمدا عن علاقة ابراهيم بالجزيرة العربية ومكة وبناء الكعبة ، بل وسكتت ايضا عن ذكر هود وصـالح من ابنـاء العرب كـأنما لم تكن عـاد وثمود على مقـربة من فلسطين . وقد حدد بطليموس فى أطلسه موقع ثمـود وعاد وكشفت الحفريات عن مدائن صالح وعثر على بعض الخطوط الثموديـة فى ثمود وفى الطائف . وقـد كان اليهـود ينفسون على العـرب أن صار لهم بيت محرم منذ أيام ابراهيم بينما لم يصبح لهم هيكـل فى بيت المقدس الا فى أيام سليمان بن داود فكان هذا السكوت المتعمد .

وقـد عمد اليهـود الى طمس حقيقة وعـد الله تبـارك وتعـالى

لابراهيم فجعلوه قاصرا على اسحاق ولذلك تجاهلوا ابنه الأكبر اسماعيل وحاولوا اخراجه واخراج ابنائه من حقوق الوعد الذى تلقاه ابراهيم من ربه وابتكروا الاكذوبة التى تقول أن بنى اسرائيل وحدهم هم شعب اللّه المختار . يقول الأستاذ السحار : « حرم اليهود أبناء اسماعيل حقوق الوعد الذى تلقاه ابراهيم من ربه ، وأرادوا أن يسلبوا اسماعيل كل فضل فزعموا أن الذبيح هو اسحاق ، مع أن التقاليد تقضى بتقديم الابن الاكبر قربانا لله » .

ولا ريب أن انكار اسماعيل وأبنائه يحرف تاريخ العرب قبل الاسلام تحريفا شديدا فان أبناء اسماعيل الاثنى عشر قد انبثوا فى هذه المنطقة .

وقد أعلنت ألواح الطين التى كتبت بالخط المسمارى والتى وجدت فى أطلال بابل ونينوى وبلاد ما بين النهرين ان بنى اسماعيل كانوا حقيقة واقعة وان ابناءه الاثنى عشر صاروا قبائل قوية تناوىء بابل واشور ومصر والاغريق والرومان .

والواقع ان تاريخ هذه المنطقة منذ عهد ابراهيم عليه السلام (١٧٥٠ قبل الميلاد) هو تاريخ العرب الذين كانت تطلقهم الجزيرة العربية فى موجات مهاجرة امتدت من حدود الفرات الى المغرب وشملت هذه المنطقة كلها وان فكرة السامية الزائفة لم تكن شيئا معروفا او مقررا ولا توجد اى اشارة اليها فى اى من الكتب أو الحفريات أو الأسانيد المكتوبة على الاعمدة او الاثار القديمة .

يقول العلامة محمد عزة دروزة : « لقد أصبح أمر انسياح

الموجات من جزيرة العرب الى الاقطار المجاورة لها منذ اقدم الأزمنة وكون الكلد والاشور والاكديين في العراق والكنعانيين والعمور والآراميين والعبرانيين فى جزيرة الفرات وبلاد الشام ومعظم سكان وادى النيل شماله وجنوبه ومعظم سكان أثيوبيا والصومال من هؤلاء المنساحين فى القرون التاريخية من الحقائق التى لا تحتمل جدلا ولا سيما ان جزيرة العرب ظلت ترسل بموجاتها الى هذه الاقطار بدون انقطاع قبل دور العروبة الصريحة ، أى قبل أن تغدو اللغة العربية الصريحة لغة العرب واسم العرب اسما لهم ، ثم فى دور العروبة الصريحة قبل الاسلام ، ثم منذ الاسلام الى اليوم مما سجلت أحداثه القديمة نقوش المصريين والأشوريين والكلدان وكتب اليونان والرومان القديمة وما قرره علماء الآثار والتاريخ » .

ومن خلال بحثه الواسع نصل الى الحقائق الآتية :

أولا : ان جزيرة العرب أخذت تسمى باسم العروبة الصريحة فى كتب اليونان والرومان واسفار العهد القديم منذ (الفين وخمسمائة سنة) واسم العرب الصريح اخذ يطلق على أهلها المستعربين فى داخلها وتخومها الشمالية جزئيا ثم كليا منذ الفين وخمسمائة سنة كذلك بل قبل ذلك مما تدل عليه النقوش والمدونات القديمة واللغة العربية التى تكلم بها سكان الجزيرة والنازحون منذ ألفين وخمسمائة سنة كذلك هى اللغة العربية الصريحة بقطع النظر عن تعدد لهجاتها وبعدها قليلا أو كثيرا عن اللغة الفصحى ، على ما تدل عليه آثار وأسماء واعلاء ونقوش السبئيين والحجريين والنبطيين والتدمريين واللحيايين والثموديين والصفويين العائدة الى الحقبة الممتدة من القرن الخامس قبل

الميلاد الى القرن الخامس بعده وقد ساعدت عوامل متنوعة على سرعة تطويرها بعد ذلك حتى بلغت ذروتها باللغة الفصحى قبل البعثة المحمدية بأمد ما .

ثانيا : ان هناك نصوصا قاطعة بأن اللغة العربية هى اللسان الاول : وهى لسان آدم عليه السلام الا انها حرفت ومسخت بتطاول الزمن عليها فظهرت منها السريانية ثم سائر اللغات : وفى المزهر (ج ١ ٢٠) ان اللسان الاول الذى نزل به آدم من الجنة كان عربيا الى أن بعد العهد وطال فحرف وصار سريانيا وهو يشاكل اللسان العربى الا انه محرف .

وقد ثبتت القرابة بين العربية والسريانية ، فقال المسعودى فى كتابه التنبيه (ص ٦٨) : وانما تختلف لغات هذه الشعوب (أى شعوب الجزيرة العربية) عن السريانيين اختلافا يسيرا . وأكد المرحوم أحمد كمال باشا فى قاموسه الذى أعده للمقارنة بين اللغة الفرعونية واللغة العربية أن ثلاثة ارباعها تمت الى العربية بصلة .

ويقول الأستاذ دروزة أن علماء العربية أخذوا نظريتهم فى القرابة بين العربية والسريانية من أهل الكتاب فقد كانت السريانية هى لغة الثقافة والمثقفين ولغة يهود العراق وأكثر أهل الكتاب فى جزيرة العرب فى ذلك العهد .

ثالثا : مما وجد فى الحفريات ما كتب على قبر امرىء القيس (٣٢٨ بعد الميلاد) عبارة : (ملك العرب كلهم) مما يسوغ ان كلمة العرب كانت معروفة فى ذلك الوقت وتطلق على العرب الصرحاء ، وأن التسمية العربية كانت تطلق أولا على بعض

أجزاء من الجزيرة وتخومها وقبائلها وملوكها قبل ذلك بعدة قرون .

وترجع كلمات (ارابا وعربانا ، وعرابا وعريبى) الى مدونات قديمة فى القرن التاسع قبل الميلاد المسيحى وان اقدم أثر عربى هو أثر الملك الأشورى (٨٦٠ ـ ٨٢٥) قبل الميلاد .

وقد اضاف الى هذا الاستاذ عبد الحميد السحار : ان الحفريات أكدت : أن حضارة بابل عربية ، وحضارة العموريين عربية ، وحضارة الكنعانيين عربية وحضارة سيناء عربية وحضارة ثمود عربية ، وقد اكتشفت هذه الحضارات وعرف انها حضارات عربية خالصة : ولكن بعض العلماء ارادوا ان ينسبوها الى جد أعلى حتى لا يلقوا أضواء على مجد أقوام نافسوا بنى اسرائيل منذ أيام خليل الرحمن ابراهيم فأطلق العالم سلوتيسر اسم (السامية) نسبة الى سام بن نوح وصادف ذلك هوى فى نفوس الآخرين فأخذوا يتحدثون عن الأقوام السامية والحضارات السامية ويتبعهم الكتاب العرب .

والمعروف ان سيدنا ابراهيم قد اقام القواعد من البيت وابنه اسماعيل عام ١٧٠٠ قبل الميلاد وتلك هى أولى خطوات هذه الأمة الحقيقية ومن ثم فان أصلح اسم لها هو « العروبة الحنيفة » هذه الامة التى امتدت حتى جاء محمد صلى الله عليه وسلم فأكمل لها الدين .

ونصل من هذا كله الى عدة حقائق :

اولا : ان اليهود لم يكن لهم دور صريح او وضع صريح او اثر صريح فى اى نهضة من نهضات هذا التاريخ الطويل ، وانهم

زيفـوا تاريخهم وتـاريخ العـرب وعمدوا الى حجب اسمـاعيل حتى يقصروا الوعد على أبناء اسحاق .

ثانيا : ان هذه الجزيرة العربية منذ بعثة ابراهيم عليـه السلام ونشأة اسماعيل عليه السلام وبناء الكعبة وهى عربية واللغة العـربية ولغة الموجات المهاجرة المتصلة التى شملت كل البلاد العربية من بعد ، والتى كانت قبل الاسلام عـربية ومـوحدة لأنهـا كانت تعـرف دين ابراهيم (الحنيفية) .

ثـالثـا : ان احقـاد الصهيـونيـة العـالميــة هى التى حـرضت المستشرقين وكتاب الغرب على تغيير هذا الاسم وانكاره واصـطناع اسـم آخر اقدم منه ولا صلة له بهـذا التاريـخ فضلا عن ان مصـدره ليس سليما ولا موثقا وهو التوراة التى كتبها الاحبار بأيـديهم وليست من عند الله .

رابعا : استهـدف اليهود ان يجمعوا بين العـرب واليهود فى كيان تاريخى زائف ، كما أن يجمعوا بين العبرية والعربية فى ترابط وهمى غير صحيح محرفين بذلك حقائق التاريخ الاصيلة .

خـامسا : ان كـلمـة (الساميـة) هو تعبيـر اصطنعـه اليهـود ليحصلوا من عمومه دورا لهم أكثر وضوحا من دور العرب أصحـاب الشـأن الحقيقى ، وأن يجعلوا منه تكـأة لمعارضـة خصومهم بـاسم معاداة السامية .

سـادسا : ان السـاميـة احـدى شبهات الاستشـراق اليهـودى والغزو الفكرى ، وتجديد دعاوى « الاسرائيليات القديمة » .

* * *

الباب العاشر

الانقطاع الحضارى

تجرى محاولة خطيرة ترمى الى ردة العالم الاسلامى الى كيان وهمى قديم ، واعطائه صفة الاستمرار التاريخى تحت اسم : حضارة السبعة آلاف سنة الفرعونية والفينيقية والفارسية والهندية وتجرى محاولة لاحياء هذه الحضارات القديمة .

والحق أن هذه الدعوة تتجاوز حقيقة تاريخية أكدها المؤرخون المنصفون ، وهى أن الاسلام بظهوره وانتشاره قد قطع العلاقة بين الأمة الاسلامية وبين هذا التاريخ الوثنى القديم ، وكل ما يتصل به من لغات وأديان وحضارات . ولقد قرر الباحثون الثقات بأن الاسلام كان عامل التصحيح الحضارى مع هذه الحضارات القديمة ، وبين الأمة التى دخلت بعد ذلك فى الاسلام .

* * *

استمرار الحنيفية :

والواقع أن الاستمرارية الموهومة التى يحاولون جمع خيوطها

ليست هى استمرارية الفرعونية أو الفينيقية أو غيرها وانما هى استمرارية (الحنيفية الابراهيمية) التى بدأت بها الدعوة الى التوحيد ، والتى كانت رسالة محمد صلى اللّه عليه وسلم ختاما لها ، وانقطاعية عما سواها ، هذه الانقطاعية الواضحة فى تاريخ البلاد العربية كلها منذ جاء الاسلام ، وبعد ألف سنة من اليونانية والرومانية الوثنية .

لقد كان الاسلام هو الخط الفاصل الحاسم فى تاريخ الانسانية ، فقد قطع الامتداد الفكرى والاجتماعى والثقافى بين ما قبل الاسلام وما بعده ، قطعه عن العرب اولا ثم فى كل مكان ذهب اليه ، وقد ذهب الاسلام الى كل مكان واثر فى جميع النحل والاقطار . قطع امتداد الوثنية فى العالم كله من ناحية العقائد والملل ، وقطع امتداد العبودية فى العالم كله من ناحية الحضارات والامم . فقضى على استرقاق العبيد فى حضارات البراهمة والفرس والفراعنة والرومان . وقضى على قيصر وكسرى جميعا .

ماذا تعنى العودة :

وبعد ، فماذا تعنى العودة الى ما قبل الاسلام : هل هى ممكنة ؟؟ وما هو مفهومها ؟؟

ان الباحثين الذين حملوا لواء الدعوة الى الفرعونية أو الفينيقية أو غيرهما ، لم يجدوا أى خيوط يمكن أن تشكل تراثا أو لغة أو ثقافة أو « فكرا » كما يقولون .

بل تبين لهم أن كل الحضارات البابلية والاشورية وغيرها هى حضارات عربية حنيفية الاصل ، وقد كشفت الابحاث عن زيف

ادعاء ما حاوله التغريب والاستشراق بالتفرقة بين الفراعنة والعرب ، أو الفينيقيين والعرب . وذلك فى سبيل تمزيق المسلمين الى أمم وعناصر ، وكشفت الابحاث الجادة عن زيف هذه الادعاءات ، وتعين أن المصريين الاولين وفدوا من بلاد العرب وعبروا البحر الاحمر ، ونزلوا عند حدود الحبشة ثم تدرجوا الى أن هبطوا وادى النيل ، واسسوا دولتهم . وقد أحصى المرحوم الاثرى الكبير أحمد كمال باشا ما يزيد على خمسة آلاف كلمة متصلة الجذور بين العربية والفرعونية .

وما يقال عن الفراعنة يقال عن الاشوريين والبابليين والفينيقيين ، فهم جميعا موجات خرجت من الجزيرة العربية وانماعت فى هذه المنطقة الممتدة من العراق الى الشام الى مصر الى افريقيا ، وان هذه الموجات توالت فى خلال فترات طويلة من القرون المتوالية قبل الاسلام ، وكانت ممهدة الموجة الاسلامية الضخمة التى حملت لواء الاسلام والتى وجدت ـ عندما تمددت ـ جذورا لها فى هذه المنطقة .

الاسلام حول مجرى التاريخ :

أما الانقطاع التاريخي بين ما قبل الاسلام وبين عصر الاسلام فان أمره واضح ويعترف به حتى من هو أشد المؤرخين الاوربيين تعصبا فان (هنرى بيرين) مؤلف كتاب (محمد ـ صلى اللّه عليه وسلم ـ وشارلمان) يقرر : « ان الاسلام هو القوة الهائلة التى حولت مجرى التاريخ الاوربى ، وأن العصر الوسيط والنهضة الحديثة ، ثمرتان من ثمار الاسلام ، وأن ما يقال من أن سقوط الامبراطورية الرومانية هو العامل المؤدى الى هذا التحول فى

التاريخ هو قول خاطىء فان هذه الشعوب كانت من هوان الشأن ، وضيق الحياة ، الى درجة تجعلها تنظر الى الرومان نظرة العبيد الى السادة . فما كان يخطر لها - بل ما كانت ترغب أبدا - فى أن تناوىء روما وتقضى عليها » .

أما المسلمون فكانوا يعتقدون أنهم أرقى وأسمى من الرومان فى جميع أساليب الحياة ، ولا سيما من الناحية الدينية التى كانت مبعث قوتهم ومصدر تربيتهم ، فلم يحجموا عن منازلة الرومان ليقضوا على سطوتهم وسيادتهم وقد ظلت الدولة الرومانية قائمة ، وظلت حضارتها باقية ، بعد ان اجتاز (الوندال) حدودها واستقروا فى نواحيها ، وكل ما حدث أن انتقل مركزها الرئيسى من روما الى بيزنطة « القسطنطينية » وأصاب حياتها العقلية والمادية شىء من الركود والفساد .

ولكن لم تكد تهب (رياح الاسلام) وتسير ركائبه الى أراضى اليونان ، حتى تلاشى ما كان لهم من المعالم والآثار ، وقامت دول جديدة وظهرت حضارة جديدة ، حاصرت أوربا من الشرق والجنوب والغرب « بعد فتح الاندلس » . فاضطرت ملوكها الى أن يوجهوا أنظارهم الى الجزء الشمالى من أوربا حيث قامت المعارك التى كتبت تاريخ أوربا فى العصر الوسيط وابان العصر الحديث .

أما الجزء الجنوبى من أوربا فلم تقع فيه - فى تلك العهود - معارك الا معركة (بواتيه) التى انتصر فيها شارل مارتل على جيش الاندلس بالخيانة والغدر لا بالقوة والبأس .

فلولا ظهور الاسلام لظلت الامبراطورية الرومانية قائمة ، وان

انتقل مركزها من الغرب الى الشرق ، ولظل البحر الابيض المتوسط بحراً رومانيا ـ بل قد سمى فترة بحر الروم ـ ولما قامت الثورات القومية التى خلقت أوربا الحديثة ولا الثورات الفكرية التى تمخضت عنها الحضارة الراهنة .

وهكذا نجد أن الاسلام قد غير العالم كله .

* * *

صفحة جديدة :

لقد فتح الاسلام ـ حين جاء ـ صفحة للبشرية ، من حيث « عالمية » الرسالة وخلودها ، ودعا الامم القائمة الى الدخول فى دين اللّه : لانه هو الدين الحق ، بعد أن زيف رؤساء الاديان مفهوم التوحيد ، ولقد أعلن الاسلام وحدة الدين ، ووحدة البشرية ، والتوحيد الخاص ، فحطم الوثنية والاصنام ، وعبادة غير اللّه ، وقدم للبشرية منهج الاخاء الانسانى ، فقضى على العبودية الفرعونية والقيصرية ، ودعا المسلمين الى النظر فى الكون فأنشأ (المنهج العلمى التجريبى) الذى هو قاعدة الحضارة العالمية اليوم ، ولقد استطاع الاسلام لانه الفطرة والحق ، وضياء النفس البشرية الأصيل ، أن يزحف فى خلال قرن ولا يزيد ، حتى سيطر على ثلاث قارات آسيا وافريقيا وأوربا : من الصين الى حدود نهر اللوار فى قلب فرنسا ، وقدم للبشرية ذلك الضياء الحق ، وتغلب على اللغات والاديان ، ونقل العالم كله الى نور التوحيد ، ونفذ بأشعته الى قلب أوربا ، فحررها من الوثنية والرهبانية والمادية ، وأدخلها الى عصر النهضة . وبذلك كان الاسلام هو العامل الاكبر الذى أدخل العالم كله الى العصر الحديث .

وعبر الاسلام الشاطىء الشرقى والجنوبى للبحر المتوسط فادخله فى السلم كافة ، وقامت فيه كلمة التوحيد وامتدت نحو آسيا فأخرجت القبائل التركية فيما وراء النهر من الوثنية . وواصلت زحفها الى الصين ، وفى الغرب اقتحم الاسلام الاندلس ، ووصل الى نهر اللوار ثم لم يلبث أن اقتحم أوربا من البلقان حتى وصل الى أسوار فينا . بل تعداها الى جبال الصرب والكروات .

ودخل الناس فى دين اللّه أفواجا :

من هذا كله نجد أن الاسلام كان عامل انقطاع حضارى عميق المدى بين حضارات الفراعنة والرومان والفرس والهنود . فبعد ألف سنة عاشتها هذه المنطقة بين يدى اليونان والرومان . انداح فيها الاسلام ، ولم تلبث بعد عقود قليلة من الزمان ، أن تحولت الى رسالة التوحيد فنسيت لغاتها وأديانها ونحلها القديمة وأقبلت على الاسلام اقبالا تاما ، ومع أن الاسلام حين سيطر على هذه المناطق لم يفرض عليها دينه ، وانما أقام حكمه العادل ، وأفسح لأهل الكتاب الحرية الكاملة في حياتهم الدينية ، وحمى معابدهم وفتح لهم آفاق العمل فى مختلف المجالات فى سماحة ورحمة ، غير أن الطوائف العربية الداخلة فى هذه البلاد سرعان ما انصهرت فى البيئات التى عاشت فيها ، ولم تستعل عليها استعلاء سلطان أو استعمار ، وانما تآخت معها وأصهرت اليها ، ومن ثم فقد دخل الناس فى دين اللّه أفواجا ، عندما تبينوا أن ذلك الحكم السمح العادل الذى حررهم من مظالم الرومان ، هو من عند اللّه ، لذلك فقد دخلوا فى الاسلام الذى كانت جذوره موجودة فى أعماقهم وضمائرهم منذ رسالة الحنيفية الابراهيمية ، التي

جـددهـا محمـد صلى اللّه عليـه وسلم ، واتصـل بهـا بعـد أن انحرفت . . في مرحلة ما بينهما ﴿ ثم أوحينا اليك أن اتبع ملة ابراهيم حنيفا ﴾ النحل : ٢٣ .

ومن هنـا فان الانقـطاع ليس الا عن المـرحلة القصيـرة التى تعثر فيها طريق الحنيفية الى العنصرية ، وكـان هذا أمـرا طبيعيا فى التاريخ فمصر العربية قد انقطعت عن مصر الفرعونية انفصالا تاما ، لان مرحلة الفرعونية انحرفت عن الابراهيمية ، وكذلك فان سـوريا العـربية قـد انفصلت عن سـوريـا الفينيقيـة ، والعـراق العـربى قـد انفصل عن العراق الاشـورى والبابلى ، وبـالاسلام عـادت سيرتهـا الاولى الى الربط بين الحنيفية الابراهيمية والحنيفية المحمدية .

* * *

الجرى ضد تيار التاريخ :

وحين جـرت المحاولات فى العصـر الحديث لاعـادة البـلاد العـربية الى تـاريخها قبـل الاسـلام بـاحيـاء الفـرعـونيـة والفينيقيـة والاشـورية ، فشلت هـذه المحاولات فشـلا ذريعـا ، لانهـا كـانت تجرى ضد تيار التاريخ .

ويصـور هذا المعنى العـلامة عـلال الفاسى حين يقول : « ان العمليات التاريخية التى سبقت بعثة الرسول صلى اللّه عليـه وسلم لم تكن الا تمهيدا لابلاغ الانسان رشده عن طريق اكمال الـدين ، بوجود محمد خاتم الرسل عليـه الصلاة والسـلام ، ولم يكن محمد صلى اللّه عليـه وسلم بـدعـا من الـرسـل ، فقـد سبقتـه نبـوات ورسـالات ، كما سبقتـه دعوات ربـانية تشمـل كل بقـاع العـالم ،

ولكنها لم توفق الى البقاء ، وأصابها الانحراف الذى يستوجب أن تجدد وتصلح ثم انفتحت آفاق التقدم الانسانى فكان لابد أن يبعث اللّه الرسول الخاتم . وكانت مهمة النبى صلى اللّه عليه وسلم أن يضع الناس فى جو الرشد المبنى على العقل والروح ، على القلب والجسم ، ومن هنا فان كل ما سبق من عمليات التاريخ كان يهدف لغاية واحدة هى وجود الرسول نفسه صلى اللّه عليه وسلم ، وبذلك يصبح الماضى وكأنه ما قبل التاريخ ، أما التاريخ الصحيح فيبدأ بالمجتمع الاسلامى ، والبشرية كلها مخاطبة لتسير وفق ما ترشد الى ناموس الكون وما بنى عليه هذا المجتمع .

هذه هى قصة الاستمرارية والانقطاع فى تاريخ العربية الاسلامية ، انقطاعية ألف سنة عن اليونان والرومان والوثنية ، والحقيقة أن الاستمرارية هى استمرارية دين ابراهيم أبى الانبياء . وانقطاعية كل ما سواه من محاولات عنصرية وقبلية وعرقية وقومية . حاولت أن تخرج بالرسالة الخالدة عن هدفها الاصيل وغايتها الكبرى .

ولذلك فليست هناك استمرارية فرعونية ، أو بابلية ، أو أشورية ، أو فينيقية وانما هناك استمرارية التوحيد الخالص وميراث ابراهيم واسماعيل واسحاق ويعقوب والاسباط وكلها على طريق اللّه الحق .

* * *

وذابت الاعراق :

لقد ذابت كل القوى التى حاولت أن تسيطر على المنطقة

الحنيفية الابراهيمية ، لقد ذهبت العنصرية وبقيت العقيدة الخالصة ، وانصهرت القبلية والعرقية كلها فى دعوة اللّه الخالصة . وأن الوحدة التى التقى عليها المسلمون فى مشارق الأرض ومغاربها هي وحدة العقيدة والفكر والتوحيد الخالص ولغة القرآن . ولقد انهزمت كل عوامل العنصرية والعرقية أمام قوة العقيدة والفكر ، التى غلبت على فكرة الدم والنسب . وغلبت لغة القرآن على كل اللغات القديمة . حتى اضطر النصارى الى ترجمة أناجيلهم الى اللغة العربية بعد أن ماتت القبطية والسريانية والآرامية التى كان المسيح عليه السلام يتحدث بها الى معاصريه .

ان الارتباط بين الحنيفية الابراهيمية والرسالة المحمدية هو التصحيح السليم للاستمرارية . بل هو التفسير الأصيل للترابط الأكيد الجامع بين عصور هذه المنطقة وأجزائها الجغرافية والتاريخية ، وهو ما تعمد المحاولات التغريبية واليهودية الى التأثير فيه ، وذلك حين تشكك المصادر اليهودية : فى مجىء ابراهيم الى مكة وبنائه البيت الحرام مع اسماعيل . وذلك بسوء نية . وهم يهدفون الى نفى الرابطة الجامعة بين ابراهيم واسماعيل ، وبين محمد عليهم الصلاة والسلام ورسالة الاسلام الجامعة الخاتمة . التى هى رسالة الاسلام الممتدة منذ آدم عليه السلام ونوح .

لقد عمد الاستشراق الى تزييف العلاقة بين الحنيفية الابراهيمية وبين الاسلام ، واثارة الشكوك حول ابراهيم واسماعيل عليهما السلام ، على النحو الذى قال به الدكتور طه حسين فى كتابه الشعر الجاهلى حين أنكر وجود ابراهيم واسماعيل ، بالرغم من ثبوت وجودهما فى التوراة والقرآن وان كانت الأحداث لم تلبث

أن كشفت زيف ما دعا اليه طه حسين جريا وراء الصهيونية فى دعواها بعد ظهور الحفريات التى كشفت عن كثير من اثار ابراهيم واسماعيل وأبناء اسماعيل فى شمال شبه الجزيرة العربية وحول الكعبة .

ومن الأسباب التى تدعو الى انكار الحنيفية الابراهيمية ، أنها يدخلها الكردى والشركسى والبربر والمسيحيون ، وهم يهدفون الى اعلاء العنصريات للقضاء على هذه الوحدة التى هى « عربية اللسان » ولقد أكد هذا المعنى رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم فى قوله :

« ليست العربية بأحدهم من أب ولا أم وانما هى اللسان فمن تكلم العربية فهو عربى الا أن العربية اللسان الا أن العربية اللسان » رواه الحافظ ابن عساكر بسنده من مالك .

دعوة البغضاء :

ان الدعوة المسمومة الى اعادة بعث الاقليميات والعنصريات القديمة ، انما تهدف الى اذكاء البغضاء والاحقاد باثارة الفرقة ، بينما تقوم استمرارية الحنيفية السمحاء على وحدة الفكر والعقيدة ، وهى الوحدة الحقيقية وليست دعوى اللغة والتاريخ والأرض التى يحمل لواءها العلمانيون الشعوبيون .

* * *

(*) بدأت الدعوة الى التوحيد من عهد آدم واستمرت وأخذت اسم الحنيفية في عهد ابراهيم .

الباب الحادي عشر

الاسلام : نقل العالم من طفولة البشرية الى رشد الانسانية

جاء الاسلام حركة تحرر فى مواجهة الغزو الخارجى وحركة عدل اجتماعى فى مواجهة الاستغلال وحركة شورى فى مواجهة الاستبداد وأخوة عالمية فى مواجهة التفرقة العنصرية .

وفى الفتح الاسلامى حذر الاسلام من الغدر :

« لا تحرقن بيتا ولا تعقرن شاة ، ولا تقتلن وليدا ولا هرما ولا امرأة » .

وكان الرومان يبيدون كل عامر ويقتلون الأطفال والنساء والشيوخ . والاسلام أسبق شريعة قررت العدل الاجتماعى والشورى : لأنها تقيم الحرية على حق الانسان الذى لم يكن له حول ولا قوة ، حيث لا تشرع الحرية والمسؤولية ضرورة لا محيص عنها كما شرعتها من قبلها حكومات الأقدمين وفي مجلس يزدجرد سأل الامبراطور سفير المسلمين : ما الذي جاء بكم ؟ فقال : ان اللّه ابتعثنا لنخرج من شاء من عبادة العباد الى عبادة اللّه وحده ومن ضيق الدنيا الى سعة الدنيا والآخرة ومن جور الأديان الى عدل الاسلام .

وأعظم عطاء الاسلام وذروة المعرفة فيه هى معرفة اللّه تبارك وتعالى ولذلك دعا الاسلام الانسان الى الفكر والذكر .

المعرفة باللّه وأسمائه جل وعلا ، ومعرفة عظمة ملكه المتمثلة فى الطبيعة والكون ومعرفة عالم ما وراء المادة ، والمعرفة بكتب اللّه ورسله واليوم الآخر .

والمعرفة طريق الى الايمان :

الايمان : بقوة علوية تشرف على الانسان من فوق وتمنحه الأسلوب المتوازن الشامل الذى يتعامل به مع جهازه الانسانى الضعيف .

والدين هو الذى كون حاسة « الخوف من اللّه » وخشية اللّه بما وضعه من مقاييس للفضائل والرذائل وتعهد بها النفس الانسانية بالتربية والتقويم .

ويقوم الاسلام على مجموعة من الأصول العامة : عقيدة سليمة وعبادة صحيحة وكتاب منير « القرآن » وأسوة حسنة « الرسول » وشريعة عادلة وأخلاق ايجابية وتربية صالحة وجهاد فى سبيل اللّه .

ولقد دعانا الحق تبارك وتعالى أن نتفكر في خلق اللّه لا في ذات اللّه فقال الرسول صلى اللّه عليه وسلم : « تفكروا فى خلق اللّه ولا تفكروا فى ذات اللّه فتهلكوا » .

ان المسلم يبحث فى الكون وآفاقه ولكن لا يحاول أن يبحث فى الجوهر . عليه أن يبحث فى الخصائص ولا يبحث اطلاقا عن

الماهية ، ذلك لأنه لا يملك أدوات البحث فالعقل لا يمكن أن يستقل بمعرفة اللّه ولا أن يهتدى اليه الا اذا صحت فى تطوافه الى تلك الغاية قلبا يتلقى عنه مدركاته .

ولقد أرسى القرآن العظيم قواعد الاسلام على وحدة الخالق ووحدة الخلق ووحدة النفس البشرية ووحدة الدين ووحدة الانسانية ووحدة الكون ووحدة التشريع وحق اللّه تبارك وتعالى على عباده أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئا ، وعبادته انما تتمثل فى طاعة أمره وتجنب نواهيه .

﴿ ومن يعتصم باللّه فقد هدى الى صراط مستقيم ﴾ .

ان اللّه تبارك وتعالى تكفل لمن يعتصم به أن يخرجه من كل ضائقة وكل أزمة ومن كل حيرة يقع فيها ﴿ ومن يتق اللّه يجعل له مخرجا ويرزقه من حيث لا يحتسب ﴾ .

ومفهوم الاسلام الحق لاستخلاف الانسان فى الأرض وما له من ارادة محدودة يكون مسؤولا فى حدودها يمكن الانسان من اقامة الانسجام والوحدة والتوازن بينه وبين عناصر الكون كلها : من مجتمع وحياة وانسان .

« وادراك المسلم بأن اللّه تبارك وتعالى هو الذى خلق هذا الوجود كله وفق سنن ونواميس متفقة هو الذى وضع له هذا المنهج باعتباره أحد عناصر هذا الوجود يعطيه الثقة بأنه فى نطاق هذا المنهج يمارس نشاطه مع حركة الوجود كله ووفق هذه الحركة بانسجام وتوافق لا يمكن أن يتحقق الا فى ظل هذا المنهج فهو والحالة هذه ليس ريشة فى مهب الريح ولا جرما انفلت عن مداره

ولا يدرى حتى يصطدم بغيره » .

وايمان المسلم بأن له ارادة واختيارا تجعله آمنا من الوقوع تحت سلطان الجبر الذى يقع فيه الماديون فيقتل منزع الارادة منهم ويعطيهم الجرأة على فعل المنكر ﴿ واذا فعلوا فاحشة قالوا وجدنا عليها آباءنا والله أمرنا بها : قل ان الله لا يأمر بالفحشاء أتقولون على الله ما لا تعلمون ﴾ .

ولو لم يكن للانسان ارادة واختيار لما كان محلا للتكاليف ولا موضعا للحساب والجزاء ، ولما توجه اليه من الله تعالى أمر ونهى .

* * *

أقام الاسلام نظاما متكاملا شاملا للنفس والمجتمع تتمثل مقاصده الأساسية فى نقاط محددة ، وأساس الاسلام أنه نظام دنيوى أخروى فى آن واحد ، لا ينفصل فيه الدين عن الدنيا ولا المجتمع عن الشريعة ولا الأخلاق عن الحياة .

وقد أحيا الاسلام عقيدة ابراهيم عليه السلام واعترف بجميع الأنبياء والكتب السماوية المنزلة ، ونظم أمور المجتمع ووضع تعاليمه فى صيغة كلية وأصول عامة متكاملة مترابطة متفاعلة لا يجوز تجزئتها أو الأخذ بفرع منها دون الآخر ، وأقر نظام الأسرة بالزواج وأعلن حقوق الاسرة ورفع مكانة المرأة وأبطل الرق وأعلن الزكاة وجعلها حقا للفقراء . وقرر الاسلام أن العلاقة بين الله تبارك وتعالى والانسان علاقة مباشرة دون أى وساطة وأكد الايمان بالله وحده لا شريك له والايمان بالبعث والجزاء والحساب وجعل طلب

العلم فريضة ودعا الى النظر والتماس الدليل والبرهان وحث على تنمية المدارك .

وأقام الاسلام شرعة الجهاد ونظم مفهوم المال الذى هو مال اللّه الذى آتاكم ، والانسان مستخلف لتوجيهه الى الخير وصالح الجماعة وفى سبيل اللّه .

وقد حرر الاسلام الانسان من الوثنيات جميعا : عبادة الأصنام والدنيا والابطال والخرافات والاساطير والغى التفرقة بين العناصر والتعصب للجنس ودعا الى المساواة والاخاء ووفق بين سلطة الحاكم وحرية المحكوم وأعلن احترام الملكية الفردية ووجهها الى العمل النافع وأقام التعاون والتكافل بين الغنى والفقير ففرض للفقير فى مال الغنى زكاة ودعا الى التوفيق بين جانبى الانسان وجانبى الحياة الروحى والمادى وأقام الاسلام الالتزام الأخلاقى وجعله مناط المسئولية والحساب .

وأقام قاعدة حرية الفكر ، لا اكراه فى الدين ، وكفل لغير المسلمين حرية العقائد وحماية الأموال والتسامح .

وأطلق الاسلام العقل الانسانى من قيوده التى كانت تأسره حول المعابد وبين أيدى الكهنة فارتفع الى الاعتقاد بحياة أخرى وراء هذه الحياة ، واعترف بالنوازع البشرية وقرر حق الانسان فى مزاولتها ووضع له ضوابط ونظماً لتوجيهها الوجهة الصحيحة ، وهذب من مداخل هذه النوازع ومخارجها بحيث لا تؤذى الفرد نفسه ولا تسيء الى المجتمع كذلك وعاد الاسلام الى الوحدة العالمية وجعل من شعيرة الحج منطلقاً الى التقاء الأجناس

والعناصر ، وأقام الاخاء العالمي وقضى على كل تفرقة لونية أو عنصرية وشجب العنصرية القائمة على الدم والأنساب ومنع التفاضل بهما وجعل تقدير الناس بالأعمال .

أعلن القرآن الكريم أن اللّه تبارك وتعالى لم يرسل الى البشرية طوال التاريخ البشرى الا دينا واحدا هو الاسلام : أى اسلام الانسان وجهه للّه ولحكم اللّه وكل الأنبياء الذين بعثهم اللّه فى أقطار مختلفة وفى شعوب مختلفة فى العالم ما جاءوا الا بنداء التوحيد والاسلام ، وقد غيرت التفسيرات من أصل الأديان وبدلت ، وحرفتها عن جوهرها الأصيل حتى جاء الاسلام يدعو البشرية من جديد الى هذا الدين الحق ، وقد جعل اللّه تبارك وتعالى كتابه محفوظا من حيث النص مهيمنا على الكتب وجعل الاسلام خاتم الأديان وجعل رسوله صلى اللّه عليه وسلم خاتم الرسل وفرض على كل من شهد الاسلام أن يؤمن به .

وقد جاءت بشاراته فى الكتب السابقة وكان كثير من المؤمنين يترقبون ظهور النبى محمد صلى اللّه عليه وسلم وترهص الدلائل التى بين أيديهم ببعثه ومطلع رسالته . والمسلمون يؤمنون بجميع من جاء قبل محمد صلى اللّه عليه وسلم من أنبياء ورسل وكتب وان هذا الايمان جزء أساسى من عقيدتهم لا يكمل اسلامهم بدونه وان كانوا يتلقون الهداية من النبى محمد صلى اللّه عليه وسلم فقط لأن تعاليمه هى آخر التعاليم .

وكلام اللّه الذى بين دفتى المصحف هو كلام الهى محض لم يمازجه شيء من كلام البشر ، وهو محفوظ بلغته الأصلية ولغته هى احدى اللغات الحية فى العالم ، ولم يطرأ أى تغيير على

قواعدها ومبانيها ومعانيها وأساليبها ورسوم الكتابة بها .

وما كان عليه النبى صلى اللّه عليه وسلم من الأخلاق والسلوك وما صدر عنه من الأقوال تم تدوينه وحفظه بأصح ما يكون من الطرق وأن رسالة محمد صلى اللّه عليه وسلم بموجب عقيدتنا جاءت لجميع العالم ولسائر الأزمان .

* * *

ان نظرة عميقة مستفيضة الى بعض الوقائع والأحداث فى حياة الاسلام الأولى من خلال تاريخ النبى محمد صلى اللّه عليه وسلم تكشف أبعادا عريضة للدعوة الاسلامية لم تكن واضحة وضوحا كافيا حتى جاءت هذه المرحلة من تاريخ الاسلام فألقت عليها ضوءا كاشفا . تعنى هذه الوقائع ارتباط الدعوة الاسلامية التى جاء بها محمد بن عبد اللّه بميراث النبوة كله : ابراهيم واسماعيل وموسى وعيسى يتجلى ذلك واضحا فى واقعة الاسراء بالنبى صلى اللّه عليه وسلم الى بيت المقدس وصلاته اماما بالأنبياء جميعا قبل عروجه الى السماوات العلا هذا الارتباط بميراث موسى وعيسى دليل على صدق نبوة محمد وانه جاء خاتما لكل الرسائل والأنبياء وجاء كتابه خاتما لكل الكتب ومهيمنا عليها ، وقد تحقق ذلك بعد سنوات قليلة عندما فتح المسلمون بيت المقدس وعقد أمير المؤمنين عمر بن الخطاب لسكان القدس العهدة العمرية .

كذلك فقد جاءت فريضة الحج لتربط المسلمين بدين ابراهيم عليه السلام الذي أقام القواعد من البيت واسماعيل وأهدى الى أهل التوحيد تلك المناسك في منى وعرفات والمزدلفة وقد جاء

محمد صلى اللّه عليه وسلم دعوة ابراهيم ومن نسل اسماعيل وسجل القرآن ذلك تسجيلا رائعا .

﴿ ان أولى الناس بابراهيم للذين اتبعوه وهذا النبى ﴾ .

﴿ ثم أوحينا اليك أن اتبع ملة ابراهيم حنيفا وما كان من المشركين ﴾ .

وهكذا ارتبطت دعوة التوحيد بين ابراهيم ومحمد عليهما الصلاة والسلام وجاء هذا الارتباط واضحا فى كل دين جاء به الأنبياء اذ حمل اليهم الايمان بمحمد صلى اللّه عليه وسلم ولقد ذكرت التوراة والانجيل كلاهما هذه النبوءة وسجلتها تسجيلا : ﴿ ذلك مثلهم فى التوراة ومثلهم فى الانجيل ﴾ ولقد أبان سيدنا عيسى بن مريم رسول اللّه الى بنى اسرائيل هذا الارتباط : « ومصدقا لما بين يدى من التوراة ومبشرا برسول يأتى من بعدى اسمه أحمد » .

كل هذا يعطى مفهوما واضحا هو المسئولية الكاملة النهائية لكل ميراث النبوة والرسالة ، والارتباط بين أنبياء اللّه ورسله على كلمة التوحيد يسلمها كل منهم الى من بعده حتى تختتم بمحمد صلى اللّه عليه وسلم .

كذلك كشف القرآن عن عجز بنى اسرائيل عن حمل الأمانة ولذلك نقلها الحق تبارك وتعالى الى العرب : ﴿ قل اللهم مالك الملك تؤتى الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء ﴾ .

كذلك فقد جاء الاسلام بإرهاصات واضحة تكشف عن أنه

دين رشد الانسانية وأن البشرية قد تجاوزت طفولتها ، فقد جاءت رسالة الاسلام معجزة بيان خالد باق الى يوم القيامة هو القرآن الكريم الذى تحدى به الحق تبارك وتعالى العرب والعجم أن يأتوا بمثله أو بسورة من مثله أو بآية واحدة ، ولقد عجز البشر وما زالوا عاجزين الى اليوم والى أن يرث اللّه الأرض ومن عليها عن هذا التحدى .

ولقد جاء الاسلام ليفصل بين تاريخين للبشرية : تاريخ ما قبل الاسلام كله وهو تمهيد لنزول الاسلام ، وتاريخ العالم منذ الاسلام ، ومنذ أن بزغ ضوء الاسلام وهو عنصر فعال ومؤثر فى كل حدث من أحداث البشرية على وجه الأرض .

وقد حرر الاسلام البشرية من الوثنية وعبودية الانسان فى حضارات الفراعنة والفرس والهنود واليونان والرومان وحرر هذه المنطقة العربية التى توالت عليها أمواج الهجرات من قلب الجزيرة العربية خلال أكثر من خمسة آلاف سنة متوالية حتى جاء الاسلام فوسدت له العروبة والعربية ذلك السفح الممتد من العراق الى الشام الى مصر الى أفريقيا وسرعان ما استجابت هذه الأمة كلها لكلمة اللّه فى سنوات قليلة ونسيت تاريخا اغريقيا رومانيا امتد أكثر من ألف سنة من سوريا الى اسبانيا عبر شمال أفريقيا ، منذ فتح الاسكندر الأكبر .

* * *

وفى يوم فتح مكة رفض رسول اللّه قول سعد بن عبادة :

اليوم يوم الملحمة ، اليوم تستحل الحرمة وقال : « اذهبوا فأنتم الطلقاء » .

وأعلن الاسلام دعوة انسانية عالمية تخاطب الناس جميعا فالناس كلهم من ذكر وأنثى عباد اللّه وخلقه وقد استخلفهم تبارك وتعالى فى الأرض ، وجعلهم شعوبا وقبائل ليتعارفوا ومن آياته اختلاف ألسنتهم وألوانهم ، والرسول صلى اللّه عليه وسلم رسول اللّه الى العالمين ﴿قل يا أيها الناس انى رسول اللّه اليكم جميعاً﴾ .

وانداح المسلمون فى أنحاء الأرض يعلنون كلمة اللّه ويقيمون دعوة الحق ، ولا يعمدون الى افناء السكان الأصليين أو اجلائهم ولا يقيمون المستعمرات أو يضعون الحواجز بينهم وبين سكان المدينة التى انتقلوا اليها وهم كما يقول فتحى عثمان : مع سكان المدن المقيمين ، والمهاجرين والوافدين سواء فى الاعتبار الانسانى والحقوق القانونية .

ولقد واجه المسلمون النصر والهزيمة ، انتصروا حين استمسكوا بكتاب اللّه تبارك وتعالى وحقه الذى بينه لهم وانهزموا حين تخلوا عنه « والحق تبارك وتعالى - كما يقول الأستاذ محمد قطب - حين يتعامل مع رسله وأنبيائه وأتباعهم من المؤمنين لا يتدخل من أجلهم فيخرق الناموس وينصرهم بالمشيئة على طريقة كن فيكون » وانما يعودهم أن يكونوا أول الناس ايمانا بالقانون الاجتماعى وأكثرهم ادراكا لسنن الحياة ونواميسها وأن يكونوا أحرص الناس على التوافق مع هذه السنن والنواميس فهو يبتلى

رسوله صلى اللّه عليه وسلم بتكذيب الناس ولا يتدخل بالمشيئة المباشرة ليعفيه من أعباء الجهاد فى سبيل دعوته وانما يذكره بقانون الحياة وسنة الصراع بين الحق والباطل :

﴿ ولقد كذبت رسل من قبلك فصبروا على ما كذبوا وأوذوا حتى أتاهم نصرنا ولا مبدل لكلمات اللّه ولقد جاءك من نبأ المرسلين ﴾ . ويبين اللّه تبارك وتعالى علاقة المشيئة الالهية بقوانين المجتمع فيقول : ﴿ ذلك ولو يشاء اللّه لانتصر منهم ولكن ليبلوا بعضكم ببعض ﴾ .

ولقد كشف الباحثون المنصفون عن هذا الدور الخطير الذى قام به الاسلام فى « تحضير » البشرية ورفعها الى درجة الانسانية فيقول ايربرى : ان الاسلام لم يكد ينزل على محمد فى قلب جزيرة العرب حتى بدأ يغزو العالم بسرعة أذهلت المفكرين المحللين للتاريخ . وقد حاول المؤرخون المحدثون تعليل هذه الانتصارات الواسعة والفتوحات العظيمة بردها الى عوامل اقتصادية أو حربية أو سياسية ولكن كل تلك التفسيرات ظلت عاجزة عن التعليل الصحيح فكان لابد من الرجوع الى العامل المؤثر وهو الدين الجديد .

ان بلاغة القرآن المعجزة مع بساطة تعاليم الاسلام التى جاءت فى هذا الكتاب هى المفتاح لحل لغز أعظم « مد » فى تاريخ الأديان ذلك أن الاسلام جاء يدعو الى حياة منظمة جادة ، حياة جماعة عاهدوا اللّه أن يخضعوا لارادته فى كل أمر ، وأن يجاهدوا فى حمل كافة البشر على الاقرار بقدرته وملكوته .

حقا ، اختار محمد رسول اللّه الرفيق الأعلى ، ولكن رسالته بقيت ، حملها معهم المجاهدون الى أطراف الأرض وكانوا جندا وفى الوقت نفسه مبشرين بدعوة الدين الجديد . وأعلن أكثر من باحث غربى أن انتشار الاسلام كان أكبر خرقا للعادة ، يقول (م . روى) أن امبراطورية اغسطس الرومية بعد ما وسعها بطلها (تراجان) نتيجة فتوح عظيمة فى سبعة قرون ولكنها لا تساوى المملكة الاسلامية التى أسست فى أقل من قرن . ان امبراطورية الاسكندر لم تكن فى اتساعها الا كسرا من كسور مملكة الخلفاء الواسعة . ان الامبراطورية الفارسية قاومت الروم زهاء ألف سنة ولكنها غلبت وسقطت أمام سيف اللّه فى أقل من عشر سنوات ، وما تزال مسألة « لماذا انتصرت الجيوش الاسلامية القليلة العدد والعدة على الجيوش الضخمة » أكبر معضلة فى تاريخ الاسلام وموضع دهشة الباحثين ، حين استطاع بسرعة انتشاره المذهلة خلال فترة قصيرة أن يبسط جناحيه من حدود الصين الى حدود فرنسا .

ويرجع ذلك فى الرأى الأصدق الى طبيعة العقيدة وجمعها بين الدنيا والآخرة والعقل والقلب وطابع العدل والرحمة والاخاء البشرى وتحرير العقل الانسانى من الوثنية وتحرير الجسد البشرى من العبودية .

فقد عرف الاسلام منذ يومه الأول بمرونته فى مواجهة الحضارات والثقافات واتاحة الفرصة لأهل البلاد فى حكم أنفسهم ، وحرية العبادة وعدم فرض العقيدة الاسلامية عليهم بالقوة ، وكون الاسلام ليس دينا فحسب ولكنه كان فى مجمله

منهج حياة ونظام مجتمع .

وقد أدى الاسلام دورا حضاريا وثقافيا بالغ الخطورة خلال ألف سنة كاملة وانساب الى مختلف الثقافات والعقليات فمنها من تقبلته عقيدة ومنها من تقبلته ثقافة وحضارة ، وهو الذى أنشأ بذرة الحضارة الحديثة حين قدم لها المنهج العلمى التجريبى .

لقد كانت الدولة وأصحاب الأديان يفرضون مذاهبهم وعقائدهم بالقوة ، أما الاسلام فقد ترك لكل انسان حريته فى العبادة وأقام العدل وحمى معابد اليهود والنصارى ولم يحارب المسلمون أبدا فى سبيل نشر الاسلام وانما ردوا على عدوان من اعتدى عليهم أو وقف فى طريق دعوتهم .

* * *

بماذا انتصر المسلمون ؟

يقول ماكس مايرهوف فى كتابه (العالم الاسلامى) :

« يكاد يكون مستحيلا أن نفهم كيف أن أعرابا منقسمين الى عشائر ليس عندهم العدد والأعتدة اللازمة يهزمون فى هذا الوقت القصير جيوش الرومان والفرس الذين كانوا يفوقونهم فى الأعداد والعتاد وكانوا يقاتلونهم فى كتائب منظمة ، ان القول بالمراس الذى عرفه العرب للحروب والقتال والنظم والانقياد العام للقيادة فيه مغالطة كبيرة ، فقد ثبت أن الروم والفرس كانوا راقين فى النظام الحربى ، وقد بلغت الدولة البيزنطية فى بداية القرن السابع المسيحى زهوها وأوج قوتها ، ودحر الروم الفرس وردوهم على

أعقابهم عام ٦٢٥ قبل زحف المسلمين على الشام باثنتى عشرة سنة فقط ، وقد وقف ٢٤ ألف مسلماً فى وجه الروم الذين كانوا أكثر من مائة وثمانين ألفا » .

ونقول : لقد كان الايمان هو الموازن لفرق الكفة من ناحية العدد والعدة ، فقد كان المسلمون يدخلون معاركهم وقد آمنوا بأن الحرص على الموت يهب الحياة وكانوا يقدمون انفسهم وأرواحهم للّه خالصة .

ولقد كان المسلمون رحماء فى فتوحهم كرماء مع خصومهم أيضا .

أين هذا مما يقوله مؤرخ الحروب الصليبية حين يقول : « اذا كنت تريد أن تعرف المعاملة التى لقيها أعداؤنا فى بيت المقدس فيكفى أن تعلم أن أصحابنا كانوا يخوضون فى بحر من الدماء حتى الركب ولم يستطع أحد من الكفار (المسلمين) الخروج سالما ولم نعف عن أحد حتى النساء والأطفال » .

أين هذا الذى فعله المسلمون مما فعله فيليب الثانى بأمر البابا عندما أصدر أمرا يقضى بطرد جميع المسلمين من أسبانيا وقبل أن يتمكن المسلمون من الفرار والنجاة بأنفسهم تم القضاء على ثلاثة أرباعهم بأمر الكنيسة والذين استطاعوا النجاة من الموت أصدرت فى حقهم محاكم التفتيش أمرا بالاعدام ثم القضاء على ثلاثة ملايين مسلم دون مبرر .

ومع ذلك فقد أعطى المسلمون حضارتهم ولم يبخلوا : يقول المؤرخ الكبير هونشو : لقد خرج الصليبيون من ديارهم لقتال

المسلمين فاذا هم جلوس تحت أقدامهم يأخذون عنهم أفانين العلم والمعرفة ، ولقد بهت أشباه الهمج عندما رأوا حضارة المسلمين التى رجحت حضارتهم رجحانا لا تصح معه المقارنة بينهما .

وكان هناك جانب قد خفى على الغرب ، هو أنهم لم يفهموا الاسلام فهما صحيحا فقد استقى الغربيون معارفهم عن الاسلام من مصدرين (كما يقول ادوين كالفرلى) أحدهما يتمثل فى الشائعات التى روجها بعض المحاربين والتجار الغربيين وغيرهم ، والآخر يتمثل فى المعلومات التى أذاعها الغربيون القليلون الذين اطلعوا على القرآن وغيره من كتب الاسلام ، وقد ذخرت الشائعات التى روجت عن الاسلام بأخطاء كثيرة ما زال بعضها راسخا فى أذهان كثير من الغربيين ومن بين هذه الأخطاء أن المسلمين يعبدون محمدا وليس عسيرا أن يتقبل الغربى هذه الفكرة فكما أن بعض المسيحيين يعبدون المسيح ، فكذلك يظن بعض الغربيين أن المسلمين يعبدون محمدا مؤسس دينهم الذى يطلق عليه الغربيون لهذا السبب اسم « المحمدية » .

وقد كانت هذه الفكرة شائعة فى أوروباقبل حروب الصليبيين وأثناءها ثم زادت رسوخا ورواجا عند عودة الصليبيين من حروبهم فقد حاول الدعاة من رجال الدين وقادة الجيوش العائدة أن يثيروا فى نفوس الجنود بغض المسلمين فأخذوا يروجون الاشاعات المضللة عن معتقدات المسلمين وتقاليدهم وفى مقدمتها أنهم يعبدون محمدا نبيهم ووجدت هذه الاشاعات مرعى خصبا بين أولئك الجنود فأخذوا يتناقلونها ويرددونها مع الزيادة فيها ولا سيما

ان أكثرهم كانوا أميين لا يقرأون ولا يكتبون حتى بلغتهم الأصلية ، كما أنهم لم يختلطوا بالمسلمين ولم يكونوا يعرفون العربية ، فلم يتح لهم أن يقرأوا أو يسمعوا شيئا يذكر عن الاسلام والمسلمين ، والعجيب أن هذه الفكرة الخاطئة ما زالت شائعة تجد الطريق ممهدا لترويجها ويروج كتاب (ماركوبولو) لهذه الفكرة الخاطئة بطريقة غير مباشرة . ففى الفصل الخامس منه يتحدث ماركوبولو عن العرب الذين يعبدون محمدا .

وهناك صحف غربية كثيرة ما تزال تقع فى هذا الخطأ وترردده ، وبعض المعاهد الغربية تلقن طلبتها هذه الفكرة ويرى أساتذتها أن محاولة المسلم أن يطيع محمدا ويحاكيه فى كل أفعاله ليس الا عبادة فى حين يقرر المسلمون جميعا أنه لا اله الا اللّه وأن محمدا رسول اللّه وفى حين أن طاعة المسلمين لمحمد ليست الا طاعة للّه الواحد الأحد الذى دعاهم الى عبادته .

ويصور برنارد شو موقف الغرب من الاسلام فيقول : « لقد عمد رجال الاكليروس فى العصور الوسطى الى تصوير الاسلام فى أحلك الألوان والواقع أنهم كانوا يسرفون فى كراهية محمد وكراهية دينه ويعدونه خصما للمسيح أما أنا فأرى واجبا علي أن يدعى محمد منقذ الانسانية وأعتقد أن رجلا مثله اذا تولى زعامة العالم الحديث لنجح فى حل مشكلاته » .

والواقع أن محمدا ودينه لم يكرها المسيح عليه السلام ولم يختصما معه بل آمنا به ايمانهم بكل أنبياء اللّه ورسله وكتبه وقال النبى صلى اللّه عليه وسلم : « انما مثلى ومثل الأنبياء من قبلى كمثل رجل بنى بيتا فجمله وحسنه الا موضع لبنة فى زاوية من

زوايـاه ، فكان النـاس يطوفـون بالبيت ويعجبـون ويقـولـون : هـلا وضعت هذه اللبنة ؟ فأنا اللبنة وأنا خاتم المرسلين » .

ولقد أنكر الغرب والى زمن قريب فى مدى أربعة قرون فضل المسلمين على الحضارة العالمية ، أما المسلمون فانهم قد اعترفـوا بمـا أفادوا من تـراث الأمم ، هذا الـذى غـربلوه ونخلوه فى ميـدان العلوم الطبيعية والرياضية فحسب أما فى مجال الانسانيات والعقائد وأسلوب العيش والأدب فانهم لم يأخذوا من أحد واستهدوا فطرتهم وطبيعتهم وفى مجـال العلوم استـطاعـوا أن ينشئـوا المنهـج العلمى التجريبي وكانوا منصفين دائماً لكل ما عرفوا من علم واعترفوا بفضل من سبقهم فى أى ميدان دون أن يجدوا فى ذلك غضاضة ، فقد علمهم دينهم : العدل والانصـاف من النفس وقد فعـل الغرب ذلـك كله ليصـور المسلمين أمـام أهليهم بصـورة العـاجـزين عن الانبعاث مرة أخـرى أو بصورة التـابعين لحضارة الغـرب ورغبة فى احكـام السيطرة والنفـوذ على مقدراتهم ، كمـا حاولـوا اثـارة الفتن القـديمة والخـلافات بين مختلف الـوفـود التى طـوبت مـرة أخـرى للتفريق بين المسلمين .

ومع ذلك فقد استعاد الاسلام وحدة الفكـر من جديـد وعرف أهداف الغزو والتغريب وقطع مراحل طـويلة فى التقدم الاجتمـاعى وفى التوسع السلمى فدخل بلادا كثيرة وانتشـر فى مختلف القارات وأثلجت كلمـة لا الـه الا اللّه مـلايين الصـدور التى كـانت حـائـرة مضللة .

ووصف ذلك عدد من المؤرخين المنصفين فقال أحدهم انـه متى دخلت قبيلة من القبـائل الـوثنية فى الاسـلام اختفت عنهـا فى

الحـال عبادة الشيـطان وعبـادة البشـر وأكـل لحم الانسـان وتقـديم الضحـايا البشـرية وقتـل الأولاد والسحر ، وصـاروا يرتـدون الثياب وحلت فيهم النـظافة وشعـروا بالعـظمة واحتـرام النفس وصار قـوي الضعيف عندهم من الواجبات الدينية وندر شرب المسكرات وحـرم القمار والرقص المنـافي للعفة وفـوضى اختلاط الجنسين وصـارت طهارة العرض من أعـظم الفرائض وذهبت البـطالة والكسـل ودخل العمل والجد محلهما وتغلب النظام والـرزانة على الشقـاق وحرمت القسوة على الحيوان والعبيد ، وتعلموا الشعـور بالانسـانية واللطف والأخوة ، وصدق اللّه العظيم اذ يقول :

﴿ أفمن كان ميتا فأحييناه وجعلنا له نـورا يمشي به في النـاس كمن مثله في الظلمات ليس بخارج منها ﴾ .

فهرس